المنهاج القرآني

تكوين وإقناع

تأليف
دكتور
عبد الله يوسف الشاذلي

المكتبة القومية الحديثة
طنطا ــ ش القاضي
ت : ٣٤٩٠٦٩

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

« لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا »

المائدة ٤٨

مقـــدمة :

ان الانسانية فى فترات طويلة ، وأحقاب ممتدة ينتابها شــعور الاستقلال الفكرى والاعتماد على الذات ، والتطلع الى الانسان على أنه قادر على صياغة حياته الخاصة والعامة معتمدا على تفكيره وحده وفى تلك الحالة يقدم لفيف من البشر على محاولة دراسة الانسان فى ذاته واجتماعه ، ويتصورون كثيرا من المواقف الفعلية أو الطارئة أو المرتقبة ، ويبتكرون الحلول لها ، أو يقومون بوضع برامج زمنيـة لتفاديها وقد يسنون من المناهج ما يرونه أساسا صالحا للتفكير وحده ، أو للعمل والتنفيذ معا ، ويتضح لدينا أن الذى يقوم بعرض المنهج على أذهان الناس وحياتهم هم صفوة من البشر يمتازون بنوع من العبقرية، والتسامى الذهنى ، وترد مناهجهم خاضعة لتصوراتهم ، فمنها المـادى البحت ، أو العقلى الصرف ، أو الروحى الخالص أو العاطفى الجامح ، والمشـــتغلون بمناهج التفكير والبحث يدركون كثرة التعـدد ومقدار التباين فيها ونقاط الارتكاز الخاصة والمشتركة .

وفيما يتصل بالانسان واعداده وتكوينه واســعاده يحاول فريق صــياغة منهج يراه ملائما لتحقيق قــدر من اليقين النفسى والراحة القلبية ، والطمأنينة التى ينشدها الانسان ، وتكثر تصــورات المنهج وألوانه ، ويتبعها تشتيت فى الفكر وتقسيم بين الجماعات التى تخضع لهذا المنهج أو ذاك ، ولم يذكر التاريخ الفكرى لنـــا أن منهجا انسانيا كتب له البقاء أبدا ، أو سيطر سيطرة كاملة على قطاعات بشرية واسعة النطاق ، بل ظلت المناهج محدودة بحدود أصحابها ، اقليمية أو شعبية أو قطرية ، وليست انسانية عامة بالمدلول الشامل لهذه الكلمة .

ولعل من أسباب القصور لهذه المناهج حينا ، أو الفشــل أحيانا لا سيما ما يرتبط منها بمحاولة تكييف الانسان واسعاده هوعدم الاحاطة بطبيعة النفس البشرية ، وما تعالج به ، وما ينبغى أن تتجه اليه ، وعدم تحديد الغايات العليا التى تسعد النفس وترقيها ، أو عدم القدرة على تبين الركائز الصحيحة التى تقوم تلك المحاولات المنهجية .

وكم جر هذا الشعور الاستقلالى فى الفكر والمنهج على الانسانية من ويلات ، وكم أودى بها فى حضيض التصورات التى صارت فى وقت من الأوقات محلا للسخرية ومجالا للاستهزاء والاستنكار وكلما تقدم بالانسانية الزمن سخر المتأخر من السابق ، ونال منه بالنقد أو التصحيح أو التجريح أو الاشفاق مما آل اليه فكره .

ولكن الحق جل جلاله لم يترك أحقاب الزمن تمر دون أن يرسل لهـا برنامجا ومنهجا يصلح الفاسد ويقوم المعوج ، ويهذب الشارد ، ويفتح آذان البشرية وأعينها على آفاق جديدة من السعادة العاجلة والآجلة ، ولم يرد أن يدع أمر البشرية فى اصلاح النفس وتهذيبها وهدايتها ويقينها وراحتها وطمأنينتها الى البشر أنفسهم لما طبعوا عليه من العجز والقصور ، وتكفل سبحانه بتوالى المناهج الهادية انقاذا واسعادا للنفس الانسانية ، وعليها أن ترد هذه المناهج وتنهل منها ، وان أرادت فسحة من الاستقلال الذاتى فلها ما تريد فى استيعاب الكون ودراسته شريطة أن يكون ذلك فى ضوء قواعد الايمان العامة .

وظلت المناهج تتوالى حتى جاء القرآن الكريم (مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه) فحوى من المناهج أدقها وأشملها وأعمها ، وأتى منهجه عن قدسية مصدرية ، واحاطة بالنسبة لقائله ، وخبرة من حيث اطلاع الحق على النفس فى سرها وجهرها ، وسوف نتناول فى هذه المباحث شمولية المنهج القرآنى ، ومراحله ، وطريقة اعداده للذات البشرية وادراكها ، وما يتميز به استدلاله وبراهينة ، ولا أدعى أننى سأستقصى كل ذلك استقصاء بقطع الطريق على الغير بل كل ما أدعيه أن تلك الدراسة تقف مع المنهج فى نقاط محددة : خصائصه ، اعداده للذات ، مميزات البرهنة .

والله أسأل أن يوفقنا الى ما فيه الخير ، وأن يهدينا سواء السبيل .

الموافق   طنطا مساء الثلاثاء

٢٣ من ذى القعدة ١٤٠٦

٢٩ من يوليـو ١٩٨٦

د/ عبد الله الشـاذلى

الباب الاول

نظرات فى الشمول والمرحلية

الفصل الأول

المنهاج .. خطواته وخصائصه

مفهوم كلمة منهـــاج :

لا نستطيع الادعاء بأن التعرض لتعريف المنهاج ضرورى ، أو يأتى بفوائد هامة ، أو لم نسبق اليه ، بل كل ذلك غير مزعوم ، ذلك لأن كثيرا من الباحثين تعرضوا للكلمة تعريفا وتوضيحا ، ولأنها صارت بينة المعنى والدلالة على المراد ، ومع هذا نؤثر تناولها لكونها عنوانا لتلك الدراسة التى نحن بصددها ، ولأنها تتشابه مع لفظة شرعة وشريعة ، وبالطبع لا نقصد منها المعنى المرادف للشريعة ، وانما نعنى بهاالطريقة التى نخاطب بها البشر لنجذبهم الى الاسلام ، ولندعوهم الى الايمان بنهج مقنع ، ونمط من الخطاب والاستدلال يناسب حال كل مدعو ، لذا نلمح الى تعريفهـــا •

فاذا نظرنا الى كتب اللغة وجدناها تدلنـــا على أن كلمة **منهـــاج ومنهج ونهج** كلهـــا بمعنى الطريق الواضح ، وأنهج الطريق أوضحه وسلكه ، واستنهجه صار نهجا ، واستنهج فلان ســـبيل فلان ســـلك مسلكه (١) ، واستخدم اللفظ فى الحديث بهذا المعنى اللغوى ، فـــلم يتجاوز الطريق الواضح أو العظيم أو المحشر ، أو كون الخلافة على منهاج النبوة أى طريقها (٢) ، ولم يرد فى القرآن غير مرة واحـــدة فى قوله تعالى :

(وأنزلنـــا اليك الكتاب بالحق مصدقا لمـــا بين يديه من الكتـــاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل اللـــه ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء اللـــه لجعلكم أمة واحـــدة ولكن ليبلوكم فيما أتاكم فاستبقوا الخيرات الى اللـــه مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) ٤٨ الأنعام •

---

(١) القاموس المحيط فى غ١ ٢١

(٢) ارجع الى ابن ماجه فى الســـنن (الرؤيا ١٠) وســـنن الدارمى مقدمة ١٤ ، ومسلم فضائل الصحابة ١٥٠ والسنن لابن حنبل ح٥ ٢ ٤٥٢ — ٤٥٣ . ح٤ ٢٥٣ ، ح٥ ٤٠٤ ح١ ٢٣٦) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث ح٧ ٥(

والشرعة والشريعة ما شرع اللـــه تعالى لعباده ، أو الظـــاهر المستقيم من المذاهب ، وشرع كمنع سنن وشرعت الدواب فى المـــاء دخلت ، وأشرع الطريق بينه كشرعة تشريعا (٣) ، ومن هذا الاستعمال يتضح أن الشرعة والشريعة غالبا ما تستعمل فى اللغـــة بمعنى الطريق، فهما والمنهاج يؤديان الى مفهوم واحد ، لهـــذا يقول ابن عطيـــة فى تفسيره (والمتأولون على أن الشرعة والمنهـــاج فى هذه الآية لفظـــان بمعنى واحـــد) هو الطريق (٤) ، ولا يختلف ابن قتيبـــة فى تفســـير غريب القرآن كثيرا عن هـــذا المفهوم ، كذلك لا نجد عند الجصـــاص فى أحكام القرآن ، أو عند أبى السعود فى تفسيره ، أو الزمخشرى فى الكشـــاف ، أو لدى الشـــوكانى فى فتح القـــدير تمييزا واضحا بين اللفظـــين .

هـــذا والمـــأثور عن ابن عباس ومجاهد وقتادة أنهم قالوا الشرعة هى السنة ، والمنهـــاج هو السبيل ففرقوا بينهما تفرقة محـــدودة ، ويفهم من كلام ابن تيمية أنه مال الى التفرقة حيث قال (الشرعة هى الشريعة أو هى بمنزلة الشريعة للنهر ... والمنهاج هو الطريق الذى سلك فيـــه) أى فى الشرعة أو النهر ، وبنـــاء على هذا فالشريعة عامة كالنهر ، والمنهاج خاص بالسبيل الذى يسلكه السالك فى هـــذا النهر ، وكل من الشرعة والسبيل مختلفـــان لدى الأنبياء أو عند عامة الناس كما يختلفون فى الطريقة والمذاهب اختلافا يتسع أو يضيق (٥) .

والتفـــرقة على النحو السالف أولى ، لأن اللـــه سبحانه أورد اللفظتين معطوفتين فى عبارة واحدة ، والعطف مشعر بالمغـــايرة على

---

(٣) القاموس ح٣ ٤٤   (٤) المحرر ح٤ ٤٧٠ .

(٥) انظر ابن قتيبة : تفسير غريب القرآن ١٤٤ ، والجصـــاص : أحكام القرآن ح٢ ٤٤٢ ، وتفسير الكشاف ح١ ٦١٨ وتفسير ابى السعود ح٢ ٦٩ ، وفتح القدير ح٣ ٤٨ ، وفتح البارى شرح البخارى ح١ ٤٧ — ٤٩ ، ومجموع الفتاوى ح١١ ٢١٨ — ٢١٩ ، التسهيل ح١ ١٧٩

أى حال ، ثم ان التفرقة تكسبنا معنى جديدا لا يوجد عند اتحادهما ، وتدلنا على أن اللـــه سبحانه سن وفرض لنـــا شريعة وأمرنا باتباعها ، وفى الوقت ذاته بين لنـــا الطريق المقنع الذى يمكن استخدامه لامالة العقول نحو ما شرعه اللـــه ، وتكون الشرعة مع التفرقة عبارة عن مجموعة الأحكام المتعلقة بصلات العبد بربه فى الطاعة والعبادة وسائر أنواع القربات ، وبعـــلاقة الفـــرد بالآخر داخل الاطـــار الأسرى أو الاجتماعى أو السياسى ، الشريعة هى محتوى الأحكام بقواعدها وأصولهـــا وفرعها ، والمنهـــاج هو السبيل الذى يتعامل مع الظروف والمناسبات ، واختلاف القدرات والملكات ، ويخاطب الأذهان والعقول بأنواع من الأدلة المناسبة بغية توصيل اليقين الى القلوب ، واقناعهم ان ما سنه اللـــه هو الحق المبين •

خصائص ثلاث بارزة :

واستطرادا لـــا قلناه من ايثار التفرقة بين اللفظتين نضيف حقيقة أخرى لتكتمل حقائق الدين الثلاث ، وينظم من مجموعها معا الاسلام بعقيدته وشريعته وطريقة اقناعه ، أما من حيث العقيدة كحقيقة أولى فالدين واحد وعام بالنسبة لجميع الأنبياء ، لكونهم جميعا يدعون الى اللـــه وتوحيده ، وتصديق رسله ، والى الايمان باليوم الآخر ، وهذه الحقيقة الواحدة العامة هى (الغاية المقصودة) من وراء بعثة الرسل ودعواتهم ، ولا يختلف حولها نبى مرسل ، أو داعية صادق يحافظ على عهد اللـــه وميثاقه •

وأما الحقيقة الثانية فهى الشريعةبأحكامها ، وهى متنوعة باعتبار الزمان والمكان والمصالح ، وقد ختمت الشرائع بشريعة النبى صلى الله عليه وسلم ، وجبت ما قبلها ، ولم يعتمد المشرع جل جلاله بعد نزولها شريعة غيرها ، وبين أنها حق من جهة مصدرها ، وحق من حيث محتواها ومضمونها وأحكامها ، وبالتالى فكل ما سواها من قوانين ونظم هـــو جاهلى صرف ، ونابع من الأهواء الفاسدة ، والآراء الزائفة ، فليحذر

المسلمـون أن يسلكوا سبيل الجاهلين ، أو يتبعـوا أرباب الأهواء ، أو يفتنـوا عن بعض ما أنزله اللـه اليهم ، وليدركوا أن البشر بين حالين ، اما مسلم خاضع لحكم اللـه وشرعه ، واما جاهلى يرضى بحكم الهوى وقانون البشر ، وهذان الحالان ما ساقتهما سورة المـائدة قبل وبعد الآية المذكورة سلفا .

وتبقى الحقيقة الثالثة وهى الطريقة فى جذب البشر ودعوتهم الى العقيـدة الصحيحة ، ولكل نبى منهجه فى دعوته وسبيله فى التـأثير بالاقناع ، فقد يأخذ بطرف من الاستدلال البرهانى وبطرف من التاثير الاعجازى ، وقد يؤثر جانبا على جانب بالكلية ، أو قد يؤيد بواحد منهما على سبيل الغلبة كما هو حال موسى فى تأييده بآيات متعددة ، وكمـا هو حال عيسى فى اقتصاره على طريقة الاعجاز بصورة كلية ، وأحيانا يعطى من الآيات الاعجازية ما يسنده فى دعوته ، وينال من البراهين والحجج وأنواع كثيرة من طرائق التأثير النفسى ما يستطيع معـه رد الشبه لدى أرباب الأديان الأخرى ، ودفع الانكار ، وازالة اللبس ، وتحرير العقول ، وتنبيه القلوب الغافلة كما هو الشأن فى المنهج المتميز عند خاتم الأنبياء محمد صلى اللـه عليه وسلم ، وسوف نبين مميزاته قريبا خاصة وأنه موضوع دراستنا .

خطـوات المنهج :

تختلف الخطوات فى المنهاج الاسلامى عنها لدى الفلاسفة اختلافا بينا ، فالخطوات عند أى فيلسوف تبدأ من نقطة أولى ثم تنتقل الى الثانيـة ، ثم الى الثالثة وهكذا حتى تصل الى المطلوب حسبما يتراءى للفيلسوف ، ولكل واحد طريقته فى البناء المنهجى ، فمنهم الذى يعتمد على التوليد والاشتقاق حسبما فعل سقراط مثلا ، ومنهم الذى يعتمد على التحليل والتركيب والسبر والتقسيم كما فعل غيره ، وكلها فى النهاية عبارة عن حالات عقلية مترتبة على بعضها بطريقة خاصة يقترحها

الفيلسوف داخل اطار مرحلى واحد ، أى أنها حالات ذهنية تجـرى وتتم داخل مرحلة منهجية واحدة ، أو صبغة منهجية واحدة ، ولا يعتبر الفيلسوف كل خطوة منها تمثل مرحلة كاملة ذات صبغة منهجية مستقلة عن الأخرى ، حقا قد تستقل فى طبيعتها عن المراحل التى تتلوها ولكن الفيلسوف لا يخطر على باله أن يجعل من كل خطوة مرحلة منفصـلة فى صبغتها وهدفها عن الخطوات المتبقية ، بل يعتبرها أطوارا متعددة يتكون من مجموعها المنهج المختار •

وخطوات المنهاج القرآنى تباين هـذا المسـلك تمام المبـاينة من وجـوه :

أهمها أن الخطوات فى المنهج الفلسفى ذاتية مقصورة على صاحبها، وعندما يعلن عنها فانما يفصح عن طريقته ليثق بها الغير حتى ولو لم يستعملها ، وعلى فرض أن الفيلسوف بدافع حب الذاتية ، والرغبـة فى نشر فلسفته يود لو أن العقول مرنت على منهجه وتدربت عليـه الا أنه مع ذلك لا يجعل همه ذلك بالدرجة الأولى ، انه يحكى تجربته فى المنهج والتفلسف سمع له الآخرون وقلدوه أم لا ، أما خطوات المنهج الاسلامى فانها نابعة من علم اللـه بأحوال الآخرين من البشر ، فهم بظروفهم وتكوينهم ، وطرائق تفكيرهم موضع عناية أثنـاء رسـم الخطوات وسنها ، والغـرض من كل خطـوة أن يكون المنهج مؤثرا بالايجاب فى نفس المستمعين ، وأن يستجيبوا لمغزاه استجابة نظـرية وعمليـة ، نظـرية بفهم المطلوب ، وعملية بتطبيقه واعتناقه ، نظـرية بتعلم ما ينادى به المنهج ، وعملية بتنفيذه طبقا لمـا دعت اليه نصوص العقيـدة والشريعة •

ومن ناحية أخرى فان كل خطوة من خطوات المنهج الاسـلامى تمثل فى طبيعتها وصبغتها حلقة مستقلة عما تليها ، أو عن الأخرى ، اما لأن الجماعة التى تستعمل معهم خطوة معينة يختلفون عن الجماعة

الثانيـــة التى تستخدم معهم خطوة تاليـــة ، أو لأنها جماعة واحدة استخدمت معهم طريقة وخطوة حسب ظرف معين ثم حلت محلها خطوة أخـــرى لتغير تلك الظروف .

ويتبع هـــذا الاستقلال فى الخطوات استقلال فى الأسلوب الذى تصاغ به كل خطوة ، والطريقة التى تؤدى به ، والاستعداد النفسى الذى يكون عليه كل من الداعى والمدعو .

ومن هـــذه الفوارق تبدو كل خطوة من خطوات المنهج الاسلامى منهجا مرحليا مناسبا للظرف والمخاطب على حد سواء ، ولولا أن مجموع الخطوات تشترك فى المصدر والهدف والسمة الغالبة لحققت لنفســـها استقلالا تاما ، الا أنها من حيث المصـــدر الربانى ، والهـــدف الذى تجتمع عليه من جذب المدعوين الى الحقائق الاسلامية والسمة الاعجازية فى الصياغة هى فى جملتها واحدة .

وتتلخص تلك الخطوات بوجازة تامة فى عملية البلاغ والأنبـــاء الصرفة التى تلقى أولا على أسماع البشر ، وتناديهم بصوت رفيـــق هادىء أن يستجيبوا لأمور محددة ، غالبا ما تكون بسيطة وفطـــرية وخاليـــة من الأعباء والتكاليف ، ومركزة على أوجب الواجبات ، وأول الأصول والمعتقدات ، فان هم استجابوا نقلوا الى طور من التكاليف لا يحتاج معه الى جهد منهجى جديد والا تريث الداعية قليلا ريثما يتبين له طبيعة رد الفعل للبلاغ ، ووجهة النظر للمعارضين ثم يتلقى عن اللـــه فى مرحلة ثانية أجوبة هادئة عما أثاروه ، وردودا مقنعة عما اختلج فى صدورهم ، وتكون تلك الردود عبارة عن دحض المزاعم فى صورة أقرب الى الموضوعية السريعة منها الى الاستدلالات العميقة المتأنية وعندما يجدهم مصرين على مواقفهم ، أو يبتدعون من أفانين الجـــدل ما تسوله لهم نفوسهم وشياطينهم وأهواؤهم تتداركه عناية اللـــه بالدعوة الى تحرير الحواس والعقول ، والى المطالبة بتركيبها

تركيبا سليما كى تنظر حولها لترى من آيات اللـــه الكونية ، أو كى تعى ما يلقى عليها من الآيات المتلوة ، وتنتهى تلك المرحلة بجولات متعددة من الجـــدل العقلى الرصين ، وبأنواع متنوعة من الاستدلالات تشمل براهين التمثيل والخطابة والبرهان العقلى والحسى المشاهد .

وتمثل تلك المرحلة صلب الصراع الحقيقى بين الحق والباطل ، وتواجه فيه العقلية المنكرة بأدلة مفحمة ومحرجة ، ولا تجد ازاءها أجوبة شافية ، وعندها تتخلى عن شىء من مزاعمها لتحل محله حالة من الرفض الاستكبارى القـــائم على مجرد الظن ، والمبنى على غير أساس ، واذا طاردهم الداعية بمنهجه الذى يتطلب ردودا عقلية على براهينه لم يحيروا جوابا ، واذا أفصح لهم عن فساد تصورهم الظنى ، وأنهم يبنون معارضتهم على محض التخريص أعلنوا براءتهم منه ، (فاعمـــل اننـــا عاملون) وأن لهم عملهم وله عمله ، وبعدها بقليـــل أو بكثير حسب ظروف الداعية والدعوة تأتى مرحلة الانذار والتذكير بعقاب اللـــه للأمم السابقـــة دون أن يســـند الانذار الى نفسه ، أو يتوعدهم من تلقـــاء ذاته ، وأخيرا يحين وقت العقاب الفعلى بآيات يرسلها اللـــه على المنكرين كما حدث لعـــاد وثمود وفرعون ، وكما حدث من السنين التى أخذت بها قريش حتى ذهبوا الى النبى صلى اللـــه عليه وسلم مستنجدين بدعائه وضرعته ، ثم تكون عملية ومرحلة الصراع المسلح بين الطرفين ، وهو الصراع الذى علمتنا التجارب والأنبـــاء المؤكدة أن الغلبة فى النهاية لصالح الحق ، وأن الهزيمة والخذلان للباطل وأنصـــاره ، وحـــروب النبى صلى اللـــه عليه وســـلم شاهدة على صـــدق النتيجة .

وفى أثنـــاء هـــذه المراحل وبين خطواتها يتخول النبى صلى الله عليه وسلم أو الدعاة من المؤمنين المستجيبين بالموعظة الحسنة ترقيقا لقلوبهم ، وتصفية لنفوسهم ، وقمعا لشهواتهم ، وزجرا لهم عن المعاصى أو الفتـــور ، وتقويما لبعض ميولهم ، أو لبعض هفواتهم ، وابعادا

لهم عن لذائذ الدنيا وزخارفها ، وذلك مثلما كان النبى صلى اللـه عليه وسلم يفعل مع صحابته ، فيعظهم حتى يذرفوا الدمع حارا من صادق الايمـان وعميق اليقين ، ودالا على منتهى التأثر والاعتبار ، وحتى تجل منها القلوب ، وتقشعر لهـا الأبدان ، ولقد نمـا هـذا العلم الخاص بالموعظة حتى كتبت فيه المؤلفات (٦) والرسائل ، وصار اتجاها غلب على بعض الدعاة والقصاصين كما سنبين قريبـا •

الخطوات تدرج له مغـزاه وهدفه :

الخطوات — كما قلنا — ليست عمليات ذهنية ، وليست اعتبارات متنوعة لمرحلة واحدة وانما هى تدرج زمنى وحكمى ، فكل خطوة لهـا زمنها ووقتها الملائم ، وكل منها لهـا حكمها الخاص بها ، سواء فيما يتعلق بعلاقة الدعوة مع الجبهة المعارضة ، أو بعلاقة الدين مع الجماعة المتراصة دفاعا عن الحق ، والمستمسكة به • والتدرج من الجهة الزمنية والكمية له مغزى عميق ، وله أهداف تستدعيه •

أما مغزاه فانه يعبر بجلاء أوضح من لمعان الشمس فى ريعـان النهار عن أن الوحى الهابط على النبى صلى اللـه عليه وسلم ينبـع من مصدر يخرج عن الذات الناطقة به ، وأنه تعبير عن مواقف يرد من ذات تقـدر تلك المواقف وتحيط بها ، وأحيانا ينزل على غير ما اتخذه النبى صلوات اللـه عليه من تدابير ، وذلك على غرار حادثة الأسرى وحادثة عبد اللـه بن أم مكتوم ، وقد جاءت الأولى فى ختام سورة الأنفال ، والثانية كانت سببا مباشرا فى نزول سورة عبس ، وسيقت فى أول آياتها ، ولو لم يكن التدرج شاهدا على مصدرية الألوهيـة الواحدة للوحى لجاز للنبى أن يتخذ قراره الحكمى فى المواقف الصعبة

---

(٦) على غرار ما كتب ابن الجـوزى : الشـفاء فى مواعظ الملوك والأمراء •

التى تعرض لهـا ، فما الذى يدعوه الى الانتظار والحال أنه يملك الحسم فى الموقف عندما هاجر أصحابه الى المدينة وبقى مع مجموعة قليلة لا تستطيع درء أى خطر يمكن أن يوجه اليه ؟ ما الذى منعه عن أن يسافر مع السابقين ؟ لقد أفصح لصاحبه أبى بكر عن حقيقة الأمر ، وأنه لا يتصرف أدنى تصرف دون اذن الهى قائلا له : (انتظر لعـل اللـه يختار لك صاحبا) .

وعنـدما غلت نفوس المؤمنين ، ولم تعـد تحتمل صلف قريش وغرورها وعنتها فطالبت بالجهاد ، رد قائلا : (لم أومر بقتال) . وفى حادثة الافك وقد أثرت فى أعماقه انتظر شهرا كاملا حتى نزلت آيات البراءة لأم المؤمنين عائشة رضى اللـه عنها ، وقريبا من نصف هذه المدة انتظر الاجابة على الأسئلة التى وجهت اليه بخصوص الروح وأهل الكهف وذى القرنين ، ولمـا عبر عن طول انتظاره لجبريل أمره اللـه أن يبلغـه **(وما نتنزل الا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسـيا)** (٧) ، ولو كان النبى صلى اللـه عليه وسلم منبعا للوحى من تلقـاء ذاته ، ولو لم يتلق كل حكم فى زمنه عن اللـه ما عاتب نفسه على أمر قد استقر عليه قراره فى الأسرى ، ولاستمر فى تحرجه من زواجه بالسيدة زينب ، ولكن انصياعه للاعلان عن تعديل الحكم فى الأسرى ، ورضوخه للزواج من السيدة زينب بعد طلاقهـا من زيد ، وانبائه للبشرية كلهـا بهذا العتاب الشديد الذى لقيه من اللـه فى حادثة الأعمى وغيرها من الحوادث تؤكد تأكيدا جازما على أن مصدر هـذا التدرج ومغزاه هو اللـه سبحانه وتعالى .

وأما الأهداف المتعلقة بالتدرج والمرحلية فانها تتجلى فى أن هذه الخطوات المرحلية التى صاحبها وحى مبين اما أن تكون مراعية لظروف

---

(٧) مريم ٦٤

الدعوة ونشأتها وعلاقاتها بالمعارضين ، واما أن تكون تربية للمؤمنين وتهيئة لنفوسهم ، واعدادا عقليا وقلبيا وسلوكيا ، وتهذيبا نفسيا يأتى فى ساعات الضعف الذى ينتاب البشرية فى لحظات اغراء دنيوى مثلما كان من الأمر فى غزوة بدر وأحد وحنين وقد تطلعت بعض النفوس الى الغنائم أو اغتروا بالكثرة ، وقد يكون تثبيتا للمؤمنين فى ساحات البلاء والامتحان على غرار ما نجــده فى بداية غزوة بدر ، وفى نهاية غزوة الأحزاب ، والقرآن الكريم يشير الى هذا الهدف فيقول : (**وقال الذين كفروا لولا أنزل عليه القــرآن جمــلة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلنــاه ترتيــلا**) [٨] •

وهــذا التدرج بما ترتب عليه من تنجيم فى الوحى ، أو هــذا التنجيم الذى ترتبت عليه المرحلية هو فى الواقع (الطريقة التربوية الوحيدة الممكنة فى حقبة تتسم بميلاد دين وبزوغ حضارة) وبه يشاد صرح الحــركة التاريخيــة ، والاجتماعية والروحية كما يرى مالك ابن نبى [٩] ، ويقول المودودى : (ان الله لم يرد أن يضع خطة من خطط الاصلاح ، ويرسم منهجا من مناهج التعليم والارشاد فقط بل أراد سبحانه وتعالى الى ذلك أن يضع خطته موضع التنفيذ ، وأن يحدث بها انقلابا شاملا فى حياة الناس الفردية والاجتماعية ، الأمر الذى لم يكن لتحقيقه وانجاحه بد من التدرج وقطع المسافة شوطا شوطا) [١٠] وبدونه ربما (يلحق الضرر بأهداف الدعوة فضلا عن ضياع الجهــد ســدى) [١١] •

وكما سبق أن أشرنا فمع التدرج والمرحلية ، ومع توالى الوحى حســب كل مرحلة وظرف ومناســبة فهناك الوحدة الموضوعية التى

---

(٨) الفرقان : ٣٢

(٩) الظاهرة القرآنية ١٧٣ — ١٧٦ (١٠) مفاهيم اسلامية ٤٢

(١١) امين أحسن اصلاحى : منهج الدعوة الى الله ٥١

تجعل من المنهج القرآنى طريق هداية ، وبرنامج أمة ، وخطة عملية واحدة المصدر والمسائل والغايات ، ونظرا لمراعاة تلك الوحدة فقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يضع الآيات فى سياقها الموضوعى ، وفى نسقها الوحدوى بغض النظر عن الزمن الذى نزلت فيه ، أو المناسبة التى ألقيت من أجلها ، وكانت النتيجة بعد انتهاء المراحل وترتيب الآيات طبقا لمتطلبات الوحدة الموضوعية أن خلصنا من القرآن والسنة النبوية تجل منها القلوب ، وتقشعر لها الأبدان ، ولقد نما هذا العلم على خطة شاملة ومتكاملة للحياة فى شتى صورها الفكرية والسلوكية ، وضمت فى اطارها كل شىء عن العقائد والنظم والأحكام العملية ، ووضعت كلا منها فى موضعه الصحيح •

الشمولية المنهجية :

المنهج حسب العرف الاصطلاحى هو العمليات التى يتبعها الباحث للوصول الى المطلوب ، وطبقا لهذا التعريف فهناك مطلوب محدد وسابق يحتاج الى منهج مناسب يوصل اليه ، والمطالب أمور تقررت فى الذهن سلفا ، واتضحت لديه اتضاحا ، وهى فى الغالب نظرات الانسان التى يبتغيها ، أو الأهداف التى ينشدها ، أو الغايات التى رسمها أو رسمت له من محيط غير محيطه •

وبما أن المنهج طريقة موصلة الى هذه المطالب أو النظرات أو الغايات والأهداف على أى وضع كان مصدرها فانه دائما يكون تابعا لمحدوديتها أو اطلاقها ، ومرتبطا بضيق أفقها واتساعه ، وواقفا عند قصرها أو ممتدا معها فى عمومها ، وتحاول العملية المنهجية أن تكون منسجمة مع الآمال التى ترمى اليها ، وأن تحدث تكيفا تاما بين الأهداف ووسيلة الوصول اليها والذات التى تقوم بالبحث تحقيقا للمطلوب ، فاذا كان الهدف محكوما بالنظرة المادية كان المنهج حسيا تجريبيا فحسب كما هو الحال بالنسبة للفكرة السائدة فى عصرنا ، وطبقا لتلك

النظرة تطرح الذات من حسابها أية أفكار دينية مسبقة ، ولا تعتمد فى يقينها سوى ما تمليه التجربة وما تنطق به المعـامل .

والعكس عند العقليين ، فهم يفضلون العقل ، وكل واحد منهم يركن الى القضايا العقلية المسلمـة ، أو الضرورات فيجعلها أساسا لمسلكه النظـرى والمنهجى . وهكذا تتنوع النظرات ، وتختلف المناهج، وتمتلىء الذات تمسكا وتعصبا لهـذه أو تلك ، ونشاهد اليوم وسوف نظل نشاهد أفكارا محـددة تتبعها مناهج مستقلة وخاصـة وذوات محصورة فى نطاقها .

والاسلام — بلا تحيز — هو الدين الحق الذى امتدت أهدافه الى الكون والانسان وما وراءهما بكل ما تحمله الكلمات الثلاث من عمـوم وشمول ، ومن ثم استحث الناس على استخدام جميع ملكاتهم الحسية والعقلية والقلبية ، والعاطفية والوجدانية ، والذات المسلمة المستوعبة هى التى تحاول أن تسبح فى خضم الكلمات الثلاثة ، وأن تجدف بما تملك ، أو تغوص حسب قدرتها واستعدادها ، ولا بأس أن نقف بعض وقفـات مناسبة مع شمولية المنهاج القرآنى من حيث الموضـوع ، والنظرة الى الانسان ، والفهم والتحليل ، والغـاية والهدف .

١ — المنهج وشـمول الموضوع :

قد يقول قائل ما للمنهج والموضوع ، المنهج طريق موصـل الى نتيجة ، والموضوع مسائل تتطلب حلولا ، أو مجال حيوى مثير للبحث والدراسـة ، أو ممتع فى بابه بالاستقصاء والتتبع ، أو مبهر بالكشف والاختراع أو مريح بالسكينة واليقين ، أو باعث على الشوق والحب بالصلات الوثيقة التى تنشأ بين الذات العارفة والموضوع الذى يعرف مثلما نجده فى صلات المؤمنين الصادقين بربهم .

ويزول هذا التعجب اذا علمنا أن الموضوع بتشعبه يلقى ظلالا

وارفة على المنهج خاصة اذا أدركنا طبيعة الاسلام ذاته ، وأنه ليس محصورا فى المعتقدات الذاتية ، وليس نظاما محكوما بعلاقة العبـد بربه ، أو بمجموعة من العبادات والشعائر وبعض شـئون الأسرة ، أو بعض العلاقات الاجتماعية ذات الطـابع الأخلاقى والشعورى ، ولكن الاسلام كما هو معروف عقيدة تقـوم على الفهم والاقتناع ، ومعرفة باللـه تبنى على التأمل والتفكر ، وشريعة تؤسس على العـلم بالمصادر والقـدرة على الاجتهاد والاستنباط ، وتستوعب أحكامهـا شئون الحياة وجوانبها وعلاقاتها المتعددة ، وهو دين يهتم بالسلوك الانسانى وتحليل بواعث الأفعال وعلل الصفات النفسية وعلاجها ، ويتناول النفس الانسانية فى فطرتها ودوافعها الخـيرة والشريرة ، والفاضلة والمذمومة ، ويتحدث عن كل ذلك باستفاضة مرغبا فى الخير محذرا كل التحذير من مسالك الشر وعواقبـه الوخيمة ، ويبين لتلك النفس نشاطها المطلوب والمحمود فى الدنيا ، والذى ان قامت به حققت السعادة فى الدنيا والآخرة والا تعست فى الأولى وشقيت فى الآخرة •

ومع هذا كله فالانسان كما بينا فى كتابنا الدعوة والانسان خليفة الله على الأرض ، وتقتضيه تلك الخلافة أن يفهم طبيعتها من الاسلام ، ومهامها من أحكامه ، وأن يعى بعلمية مستنيرة هـذا الكون ومظاهره وقوانينه ، وأن يستثمر هـذا الوعى لمنفعته الدنيوية ، وفى علاقتـه بربه عن طريق العلم بحكمته وابداعه وأسراره العميقة فى هذا الكون ، وهـذا الكائن البشرى لن يستطيع أن يقوم بمهمة الخلافة عن جهـل بهـذا العـالم ، ولن يستطيع أن يقضى منه حاجاته فى حال تقصـيره وعجزه عن دراسته ، ولن يعرف معرفة صحيحة مدى الابداع الالهى طالمـا هو كليـل الحس ، مغشى الذهن والعقـــل ، مغلف القلب والبصيرة ، وانما تتحقق المنفعة والحاجة ، وتثبت المعرفة واليقين ، ويكون جديرا بمنصب الخلافة ما دام يتبع قانون السير والنظر فى هـذا الكون الذى استخلفه اللـه عليه •

وواضح جدا من خلال هذا العرض مدى الالتحام بين السعة الموضوعية والتنوع المنهجى ، فالعقيدة بما تقتضيه من معرفة بالله وكمالاته ورسله الى آخره تتمسك بأهداب الفهم والاقناع لا التقليد والعالة ، والشريعة مبنية على الاجتهاد والاستنباط مع استيعابها لشئون الحياة ، والنفس تستغرق مجالا فسيحا فى اهتمام القرآن والسنة ، ويبينان كثيرا من جوانبها ، ويستحثان المؤمنين على تبصرها والانتباه لها وفهمها ومجاهدتها الى آخره ، والكون لابد أن يعلم وأن تفهم ظواهره وسننه بالقانون المشار اليه ، فهناك اذن شمولية فى الموضوع مقترنة تماما بالتنوع المنهجى من عقلية الى تأملية نفسية باطنية الى تجريبية فى مضمار الكون دائما والنشاط الانسانى أحيانا .

وكان من الممكن أن تكون مسائل الدين المتعلقة بهذه الجوانب الموضوعية المتعددة ملقاة على الانسان القاء ، ولكن الله ربطها بالنشاط المعرفى الانسانى ربطا متينا بحيث يظهر الموضوع والجهد المعرفى والسلوك العملى كشىء واحد ، والحكم الدينى منصب عليها كلها ، فلا فاصل من جهة الحكم الشرعى بين الايمان ومنهجه فى الاستدلال لمن له أهلية ، ولا بين العبادة العملية والفقه النظرى . ولا بين السلوك الانسانى ومعرفة المحمود من المذموم ، ولا بين الأمر بالاستخلاف وقانون النظر والكون ، وكما تنوع الموضوع واتسع تعدد المنهج وتشعب .

وتبعا لهذه النتيجة التى وصلنا اليها نجد أنه فى المضمار الواقعى قد قامت العلوم الاسلامية على اختلاف تخصصاتها طبقا لها ، فعلماء التفسير لهم موضوعهم ومناهجهم ، وعلماء الحديث كذلك ، وعلماء التاريخ لهم مسائلهم ومسلكهم المنهجى ، وفى الفقه واللغة والأصول وغيرها كل فريق يهتم بموضوعه والمنهج الذى يناسبه، وهذه مسألة معروفة لدى من له أدنى المام بنشأة العلوم الاسلامية ، تلك العلوم التى قامت وأسست بدافع من دعوة الاسلام الى العلم والمنهجية ، وبلا أدنى تأثير فى البداية من ثقافات أخرى ، ولقد حدثنا

ابن خلدون عن تلك العلوم وبين أنها ناشئة فى الملة الاسلامية نشوءا صرفا (١٢) •

ولا شك أن المسائل التى هى مثار الاهتمام فى الاسلام ، والتى سبقت الاشارة اليها أكثر شمولية بالقطع من موضوع العلم المادى اليوم هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان تركيز الاسلام عليها عامة وعلى النفس والسلوك والعدالة والطموح والابتكار والثقافة والجمال خاصة يعتبر كل هذا أساسا قويما للحضارة فى نظر الاسلام •

وتقصير المسلمين اليوم فى فهم دينهم ، واستيعاب شموليته ، وتطبيق أحكامه ومنهجه ، وتشييد نهضتهم وحضارتهم عليه لا يعتبر مبررا أمام أنفسهم وأمام الغير فى اتهام الدين بالقصور عن استيعاب الحياة المعاصرة ، ولو وضع الاسلام فى موضعه الصحيح من الفهم والتطبيق والتجريب لعلم الجميع عظمة هذا الدين ، ولنموا فى ظل حكمه وحضارته ، ولكنه سجين المصادر ، حبيس المكتبات ، محكوم عليه من أعدائه بأن يبتعد عن الحياة ، ووسائل الحكم والقسر على الأمة وحكامها من الغير معروفة وذائعة ، ومظاهر الجبن والجهل معا من الشعوب وحكامهم فى كل صقع بادية •

واذا ما فهمنا الاسلام على هذا النحو ، وعلمنا يقينا استيعابه لموضوع العلم وتفوقه فى مجالات لا طاقة للعلم على ارتيادها ، وأدركنا مع ذلك أن الفلسفة وان ادعت على لسان أحد زعمائها (هنترميد) الفيلسون الأمريكى أنها تشترك مع الدين فى (أصل وعلاقة الانسان بالله ، وخلود النفس ، وحرية الارادة ، وعلاقة الانسان ومصيره ، وعلاقته بالكون الذى يعيش فيه ، وطبيعة الله ، وعلاقة الانسان بالله ، وخلود النفس ، وحرية الارادة وعلاقة

---

(١٢) راجع المقدمة

السلوك الانسانى بالسعادة الانسانية) (١٣) ، وان ادعى مع هـذا أنها قادرة على التعمق فى مشكلة قدرة الذهن على معالجة تجربتـه معالجة كافية بخلاف الدين فيفترض مصدرين هما العقل والايمـان ، ويرى أنه بهما يمكن أن تحل مشاكل المعرفة ، وأن الفلسفة من جهـة أخرى أكثر اهتماماً بالمشكلة العلمية وشبه العلمية كأصل الكون المـادى وتاريخه وقوانينه وتركيبه العام ، وأصـل الحياة وتطورها وطبيعـة العليـة ، ان ادعى هـذا فهى ادعاءات باطلة بالنسـبة للاسلام من وجـوه عـدة :

منها أن هذا الصلف الفلسفى وغروره ومحاولة التطاول على الدين هو سمة قديمة ، وخصيصة لازمت عقول الفلاسفة زمنا طويلا ، فلقد تطاول فلاسفة الاســلام على النبوة التى هى الأساس الأول للدين ورفعوا الفيلسوف فوق منزلتها ، كما غلوا من شأن الطريقة الفلسفية المنهجية على الأسلوب التخييلى والتمثيلى الذى خاطب الأنبيـاء به أقوامهم على حـد زعمهم ،و بالطبع لم تكن الا نزوة تخصصية تسببت فى كثير من الحملات ضد الفلسفة والفلاسفة لا سيما تلك التى شـنها الغزالى وابن تيمية ،وألف الأول كتابه التهافت فى معرض الرد وتصحيح نسـبة التفكير ، وكتب الثانى كتابه الضخم « در التعارض » لنفس الغرض الذى دفع اللغزالى •

وأما الفلاسفة الغربيون والعلماء معا فقـد دفعهم الى مواقفهم ما يعلمونه عن طبيعة الدين المسيحى ، وما لا يحبون أن يعترفوا به لو علموا حقيقة الدين الاسلامى ، أقول أدتهم اليها طبيعة المسيحية التى لم تستحث الهمم على اقامة عقيدة على أساس استدلالى وعقلى بل على محض التسـليم القلبى ، واللتى لم تنتشر بأحكامها الشرعية

---

(١٣) الفلسفة : أنواعها ومشكلاتها : ترجمة الدكتور فؤاد زكريا : ٣٤ دار نهضة مصر ١٩٧٥

لتسيطر على أرض أوربا أو الشرق بل ظلت محصورة عندهم فى دائرة العقيدة التسليمية وبعض مظاهر أخلاقيــة أو قواعد أسرية ، وتركت القانون الرومانى يحكم وينفذ (١٤) ، ومن ثم لم تنظر اليها العقليــة الغربية على أنها دين استدلالى فى شــعبته العقدية ولا على أنه دين شامل مستوعب فى جوانبه التشريعية ، والحق أن الاسلام ليس كذلك كما بينا سلفا .

ويقال مع هذا ان المشكلة المعرفية ، ومقدرة الذهن على الادراك ، وتنبيه البشرية الى ذلك هى مسألة مبثوثة فى صميم الآيات القرآنيــة والأحاديث النبوية وسوف نتعرض لها بتفصيل خلال هــذه الدراسة مجتمعــة .

والادعاء بأن الفلســفة تتمــيز بالنظــر الكونى وقوانينــــه وعلله باطل لدى من يقرأ آيات من القرآن ، فلا يتجاوزها الا لينهض واثقا من دعوة القرآن الى تلك الحقيقة ، وحث المؤمنين عليها ، وكم طالب كتاب الاسلام بالنظر فى الأنفس والكون والآفاق ، فهو من هذا الجانب باعث حثيث على كشف السنن والقوانين فى العالمين الأصــغر والأكبر : الانسان والكون كله ، وهو كتاب حكمة ومعرفة كما أنه كتاب عقيدة وشريعة الى آخره .

ونضع تحت أيدينا عصــارة لهذه النقطة فنقول : ظهرت أمامنا حقيقة الشــمول الموضوعى للاسلام ومعه وبنفس الدرجة الشــمول المنهجى ، كما برز استيعاب الدين الحق وهو الاسلام للمطلوب العلمى والفلسفى واحتوائه لكل النظرات البشرية المحدودة ، وهو وان لم يقدم تحليلا مستوفيا لكل مسألة ذات موضوع فانه قد وضع القواعد العامة التى تكفل حث البشر على ذلك ، وتكليفهم بالنهوض بهــا ، فهو مبين حينا أو موجه ومطالب وحاث لأفراد النوع البشرى خاصة المؤمنين على أن يقوموا بدراسة المراد ، وأن يكونوا فكرة واضحة عنه أحيانا أخرى .

---

(١٤) محمد قطب: مذاهب فكرية معاصرة : ٤٢٨ وما بعدها .

٢ ـ شمول المنهاج لجوانب الذات الانسانية :

تعودنا لقراءتنا فى مباحث المعرفة أن نجـد الحدود والفواصل بين المذاهب العقلية والحسية والذوقية قائمة على اعتبار جانب واحد فى الانســان واهمال ما ســواه ، فالعقليون يمجدون العقل ويكذبون الحس ، والحســيون يرون أن الحس هــو أداة المعرفة المبــاشرة بالمحسوسات فهو أفضــل ، والنقديون يجمون بين الحس والعقــل والذوقيون يرفعون من شأن القلب فوق الطرفين السابقين ، والمنهـاج القرآنى لا يقسم الانسان الى مجموعة من الأفراد ، ولا يفتتــه الى أجزاء يتخير واحدة ،و يطرد الأخرى من حسابه ، وانما يقوم هــذا المنهج على أساس أن الانسان يحوى ضروبا من الملكات والاستعدادات تعمل مجتمعة على تزويده بما يحتاج اليه من معرفة ، وبما يلزمه من ضرورات الحياة ، ولهذا جاءت آيات اللــه تخاطب القلب والعقــل والشعور وتشد الأبصار وتحاول فتح الأسماع ، وتلمس أول ما تلمس مكامن الاحســاس والتفكير فى الانســان لتوقظه نحو حقائق الأمور وجواهر الأشياء .

وهذا هو الخطاب الموضوعى للانسان ، وتلك هى النظرة المتفقة مع الامكانيات التى زود هذا المخلوق بها وأى خلل فيها يحدث انفصالا بين القوى المتحدة داخليــا والمتعاونة فيما بينها ، ويعزلها عن القوى الادراكية الخارجية ، أو يعزل هذه عن الداخلية ، أو يفرقها جميعا عن بعضها ، ودائما نعرف أن الانسان فى كل قوة فيه ليس انسانين أو ثلاثة بحيث يمكن أن تعمل جهة ما دون الجهات الباقية ، وبالتالى فليس من المعقول ولا من الموضوعية فى شىء أن ينأى العقل عن القلب ، والفكر عن الوجدان ، والحس عن الروح ، والطاقــة عن الحركة (وليس من السهل أن يتمزق الانسان ويغدو أشتاتا وتفاريق) [١٥] واذا لم يكن من

---

(١٥) عماد الدين خليل : تهافت العلمانية ١٧ ــ ١٨

المنطق أن يحدث التقسيم ، أو أن يتعسف المفكرون فى تجزئته فمن الطبيعى جدا أن تتلاقى حركة القلب والعقل والوجـدان والعاطفـة على امداد الانسان بالمعارف والحاجات ، وأن تظل محل اعتبار نضرب على أوتارها جميعا لنحدث التأثير المطلوب •

وهذا بالفعل ما قام به الاسلام ، فنجد النصوص القرآنية تثير الحواس ، وتستنهض العقل ، وتوقظ القلب من غفلاته وأدرانه : وتزجر الوجدان ليستفيق ، وتهمس فى العاطفة والفطرة ليتحركا ، وتعظ الأفئدة لترق ، وتجادل المنكرين لعلمهم يقتنعون ، وتلك النصوص تقدم للبشرية عامة تنوعا هائلا من الأدلة ، وألوانا من تصاريف الآيات ، وتلقى بها على جوانب الذات الانسانية كلية ، كما يستخدمها الداعون الى الاسلام كمادة أساسية فى الاستدلال ، وكموجه ومرشد الى ما يعنيه الدين من دعـوة البشر ، وتصبح تلك المـادة العلمية ضرورية فى أيدى الدعاة اذا ما عرفنا أنها تحوى معارف مطلقة تسمو بفارق لا نهائى عن معطيات العلم النسبية ، واذا ما رأينا أنها متنوعة شاملة مستوعبة لمسائل الكون والانسان والألوهية ، واذا ما تأكدنا من أنها تأتينا بمعارف من محيط لا يستطيع العقل أن يرتاده ، ولا العلم أن يدنو من ساحته بأى حال من الأحوال ، وذلك كمحيطات المعرفة الالهية والدار الآخرة ، وخلود النفس ، وأيضا فهناك محيط العبادات والشـعائر ودقائق الأخلاق والطبيعة النفسية ، وكلها من أخص خصوصيات الدين ، والاسلام بعرضه لتلك الحقائق المتنوعة ، وحله لمشاكل الحياة الانسانية ، ومايقدمه من توجيهات فى مختلف الأنشطة علم وزيادة ، وعقل وفكر ويقين فوق مستوى الجهد الذهنى وطاقته •

أقول تصبح تلك النصوص مادة اسـتدلالية فى أيدى الدعاة ، ولدى الذات المؤمنة العـارفة تلجأ اليها أولا فى الاقناع ، ويتحرى الداعية الدليل المناسب لكى يتلاءم مع الموقف الطارىء ، وقد لا يكتفى بسوق النص على حالته بل يحاول أن يستنبط منه بجهده العقلى مايمكن

أن يكون هاديا ومقنعا للمخاطب ، وربما لجأ المستدل الى تصوراته الخاصة فى ضوء القواعد الدينية العامة ، وهو فى كل حالة استدلاليه سواء منها ما اعتمدت على النص بالكامل ، أو على الاستنباط منه ، أو على جهد الداعية وحده يراعى شرائط الترتيب العقلى للأفكار ، والمستدل الذكى هو الذى يبدع فى عرضه وترتيبه ، ابداعا يليق بالموقف ، وبحالة المخاطب .

زعم ورده :

يتصور البعض أن المناهج العقلية البحتة فى رحاب التفلسف المقر بالدين والمعترف بالوحى تحاول فى سيرها أن تتبع خطا يؤدى الى مرضاة الوحى والعقل معا ، والى نتائج تتفق وحقائق الدين ومسلمات التفكير ، فاذا لم يستطع ارضاء الطرفين ضحى بمطلوب الدين لحساب العقل كلية (١٦) ، أو أول النص الدينى كما رغب فلاسفة المسلمين ، والعقل عندهم هو الحكم أولا وأخيرا ، ولابد أن يخلو الطريق أمامه ، وأن يتخلى الانسان عن كل شىء حتى يتيح له الفرصة كاملة لاستخراج النتائج المرضية له ، وهذا بخلاف المنهج الدينى فانه ينطلق من مسلمات الوحى ، وينبعث من حالة الرضا والاستسلام لقواعد الايمان ودوافعه المقررة ، وهذا ما يؤثر على الجهد الذهنى والعقلى حسب رأيهم .

والحقيقة أن عقدة الفهم الغربى لطبيعة الدين عامة من واقع الفهم الخاص بالمسيحية وحدها ، وهى الدين الذى تقوم عقيدته على مبدأ عدم المناقشة قد جرهم الى سوء الحكم والخطأ فى النتائج ، علاوة على أن الأحكام من خلال طبيعة دين معين دون الرجوع الى أديان أخرى وبالأخص الاسلام جريمة فى حق المنهج الموضوعى الذى يتشدق الغربيون باتباعه ، ولو أنهم تمعنوا جيدا نصوص المنهاج القرآنى

---

(١٦) ميد : الفلسفة أنواعها ومشكلاتها ٣٥ — ٣٧ .

وطريقة النبى صلى الله عليه وسلم فى تطبيقه لعلموا أن الخطاب الموجه الى المدعوين ارتكز على الاقناع البحت وأنه أتاح لهم فرصة تكبيرة لكى يتأملوا بعقولهم ما يلقى على أسماعهم ، ولم يكن لمسألة الايمان أو لمنطلق الوحى أى تأثير على عقولهم ، بالعكس كانت مسائل النبوة والوحى والألوهية الواحدة عوائق أمام أذهان المشركين حاول المنهج اقناعهم بصحتها عن طريق البرهان العقلى الصرف ، ولدينا شاهد قوى يدل على مدى تقدير النبى صلى الله عليه وسلم لقبيلة طلبت مهلة حتى تفكر مليا فى قبول الدين الجديد على ضوء ما استمعت من آيات ألقاها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه •

يروى ابن كثير أن النبى صلى اللى عليه وسلم أثناء دعوته للقبائل فى موسم الحج مر ببنى شيبان بن ثعلبة ومعه أبو بكر ، وفيهم مفروق ابن عمرو ، وهانىء بن قبيصة ، والمثنى بن حارثة ، والنعمان بن شريك، ولما سألهم أبو بكر عن حالهم ومنعتهم وأجابوه تقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم الى الاسلام والى عبادة الله وحده ، وطلب منهم أن يؤووه وينصروه ، وتلا عليهم الوصايا العشر من سورة الأنعام (١٧) فقال مفروق (دعوت والله يا أخا قريش الى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك) وأحب مفروق هذا أن يشرك هانىء معه فى الرأى فقال هانىء (قد سمعت مقالتك يا أخا قريش ، وصدقت قولك ، واننى أرى أن تركنا ديننا واتباعنا اياك على دينك لمجلس جلسته الينا ليس له أول ولا آخر ، أن لم نتفكر فى أمرك وننظر فى عاقبة ما تدعونا اليه لهو زلة فى الرأى وطيشة فى العقل ، وقلة نظر فى العاقبة ، وانما تكون الزلة مع العجلة) ووافق المثنى بن حارثة على جواب هانىء •

ولما استمع النبى الى أقوالهم لم يغضب ، ولم ينتقد تصرفهم فى عدم التعجل ، ولم يلفت نظرهم الى أن الوحى لا تعقل معه

---

(١٧) الآيات ١٥١ ، ١٥١ — ١٥٣.

ولا انتظار للتفكير فيه بل امتدح هذا المسلك قائلا (ما أسـأتم الرد اذا أفصحتم بالصدق ، انه لا يقوم بدين الله الا من حاطه من جميع جوانبه) وعنـد قيامه التفت الى على بن أبى طالب ثم قال (يا على أية أخلاق للعرب كانت فى الجاهلية — ما أشرفها — بها يتحاجزون فى الحياة الدنيا) (١٨) • وأنا أقول ما أشرفه منهج يحترم الرأى والعقل والتفكر ، ويدعو الى الايمان بالقناعة والحرية التامتين ، ويدع الآخرون يفكرون بروية ، ويقبلون بمحض اختيارهم أو يرفضون بكامل ارادتهم، وعندما يستجيبون عن قناعة • ويؤمنون بالله وحده تصـير المعارف القادمة عن هذا الطريق مسلمة ومحل قبول • تلك المعارف التى كانت محل شك وانكار فى لحظة من اللحظات صارت بعد التفكير والتعقل محل اعجاب ويقين ، والفلاسفة هم الآخرون يصيرون نتائجهم التى يتوصلون اليها بعد التفكير محل تصديق ويبنون عليها غيرها •

٣ — مراعاة المنهاج لأحوال الانسان الفردية :

تختلف تلك النقطة عن سابقتها فى الفقرة (٢) من جهة أن تلك تنـاولت الحديث عن الجوانب التى تصـلح لتلقى الأمر وفهمه ، أى الجوانب التى هى بمثابة المنـابع للمعرفة ، والقوى القـابلة للوعى والادراك لدى الجنس البشرى بصفة عامة ، وأما الفقرة التى نحن بصددها فتتناول ملاحظة القدرات الفردية لدى كل فرد عندما يقوم الداعية بتوجيه الخطاب اليه ، وبما أن البشرية تشترك فى خصائص عامة ويتميز الأفراد بقدرات وظروف خاصة فان الفقرة السابقة ركزت على العنـاصر العامة المشتركة ، وهـذه الفقرة تهتم بالأحوال والظروف الخاصة لدى الأفراد •

وفى البداية يختلف المنهاج القرآنى فى تنوعه واستيعابه وشموله

---

(١٨) البداية والنهاية ج٣ ١٥٧ — ١٥٩.

عن مناهج التفكير البشرى ، وذلك لأن المناهج العقلية والانسانية تظهر ما لدى أصحابها ، وماتوصل اليه المفكر ، فهو يخرج ماعنده ، وما استقر عليه عقله ، وما أداه اليه اجتهاده ومنطقه هو ، ويصوغ ذلك بأسلوب يرتضيه ، وبلغة ينتقيها ، ولا عبرة لدى المفكر الانسانى بالآخرين فى أنماط تفكيرهم وتنوع استعدادهم ، ودرجة ثقافتهم واستيعابهم ، ولايهمه أن يفهم الغير أو لايفهم ، وأن يستجيب لفكرته أو لايستجيب، وكثيرا جدا ما يعلن المتفلسفون أنهم لا يخاطبون كل النـــاس ، وانما يركزون اهتمامهم على الفئة الخاصة وحدها ، وأما المنهاج فى القرآن والسنة فهو طريقة تبغى الهداية للبشر ، وتعمل على اقناعهم بوجهة النظر الاسلامية ، وبالتالى فلا بد أن تأخـــذ فى الاعتبار طبائع الآخرين واستعدادهم وملكاتهم وظروفهم الراهنة ، وأن تراعى فى تعليم العقائد والتشريع وبث الصفات الفاضلة وايقاظها فى النفوس مستوى الفهم العام الذى وهبه الله للنوع البشرى (١٩) ، والطبائع البشرية العـــامة دون التفات الى حال أمة دون أمة ، أو مجتمع دون مجتمع كما تراعى الاطار الفردى سواء بسواء وأن تدقق فى ذلك لو أرادت تلك الطريقة المنهجية على أيدى القائمين بها أن تجـــذب اليها قلوبا ، وأن ترشـــد الى ما جاءت به نفوسا .

وهذه الملحوظة تقتضى من الدعاة والعلماء المهتمين بتطبيق هـــذا المنهج أن يتفرسوا أحوال المدعوين النفسية وقوة احتمالهم ، والصفات الكامنة فيهم ، ومقدار الأهلية المتوافرة ، وأن يلقوا اليهم التوجيهات طبقا لأحوالهم النفسية ، وأن يأخذوهم فى طرائق التعـــليم والتربية والعمل شيئا فشيئا ، وذلك بأن يبدأوا لهم من نقاط أصـــولية ، فاذا ترسخت فى أذهانهم وقلوبهم تخيروا ألصق الأحكام بالأصول فأتبعوها بها ، وهكذا يبنون الدين فى وجدان النفس وضميرها وعقلها وقلبهـــا

---

(١٩) المودودى مفاهيم اســـلامية ٤٢ — ٤٤ وانظر امـــين احسن اصلاحى : منهج الدعوة الى الله ٥٤ ، ٨٧ — ٩٥

حسب طاقتها ، ويؤسسونه لدى الأفراد خطوة خطوة حتى تتقبل النفس الأعباء الجـديدة عبئا عبئا ، وحتى تنفعل به انفعالا لا ينقلها فى كل مرحلة الى الأخرى ، أو التى تليها ، ولكى يرسخ يقينها رسوخا يجعلها مستعدة لأن تضحى فى سبيل دينها بكل غال ونفيس •

وأثناء التفرس للجانب النفسى فى الرد يكتشف الداعية عناصر البروز فيكلف كل واحـد من الأحمال الدعوية ما يناسـبه وما يتفق وقدراته ، أو يلقى عليه من المسئوليات الاجتماعية ما هو جدير بتحملها والقيام بها ، أو يكتشف فيه من العيوب النفسية ما يمكن تنبيهه اليها ، ومن ثم كان النبى صلى الله عليه وسـلم ينتدب للمهام ما لا يتشوف اليها كما فعل مع معاذ حين أرسله قاضيا فى اليمن وامتحنه فى مصادر الحكم والفتيا وأجاب معاذ بما هو معروف من الرجوع الى الكتـاب والسنة واجتهاد الرأى فسر به رسول الله سرورا عظيما ودعا له بالتوفيق بعـد أن ضرب على صدره ، وذلك فى الوقت الذى آثر أن لا يؤسر رجلا ، كأبى هريرة وتركه يجمع ويحصى أقواله وأحاديثه منخلفه لقدرته على ذلك ، وأيضا فكان يجيب على الأسئلة حسب الطباع التى عليهـا السائلون ، فيقول لمن يسأله عن عمل يدخله الجنة (**تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصـل الرحم**) ، (٢٠) ، ويجيب بنفس الاجابة على نفس السـؤال ولكنه يضيف (**وتصـوم رمضان**) بـدل (**وتصل الرحم**) ، ويقول لثالث (**قل آمنت بالله ثم استقم**) ولرابع (**لا تغضب**) والأسئلة قريبة من بعضـها ولكن الاجابة تنوعت باعتبار حال كل سائل •

والذين يستخدمون تلك الطريقة المنهجية ويطبقونها يدخلون على المخاطب من خلال صفاته النفسية التى تتضح أمامهم ، ويستثمرون لصالح دعوتهم كل ميل أو رغبة خيرة ، ويتجنبون الصدام مع الآخرين

---

(٢٠) رواه ابو أيوب خالد الانصارى « متفق عليه » •

وعدم اثارتهم ، والبعد عما يحرك فيهم نوازع الحمية والغضب والعصبية ، كما يبتعدون عن الفخاخ التى يمكن أن ينصبها المخاطب كى يضيع الفرصة على الداعية من أن يوصل مطلوبه الى الغير ، واذا بدأ الداعية فى مسلك نظرى ثم تراءى له عدم جدواه نفسيا ، أو تبين له أنه انزلق اليه بحيل من المخاطب انصرف عنه الى غيره ، وعدل الى نمط منهجى أفضل ، أو الى طريقة اقناعية مجدية ، ولا بأس من الصمت ان كان هو الأسلوب الأمثل لعلاج الطبيعة البشرية المعارضة .

ولا يقف المناج القرآنى عند حد مراعاة الظروف النفسية وحدها بل يتأمل الظروف الزمنية ، أو الملابسات السائدة فلا يفتتح مستخدما منهجه فى دعوة الآخرين وفى الآفاق الزمنية سحب داكنة يمكن أن تمنع وصول الدعوة الى الآخرين ، أو هناك من الصوارف والمشاغل ما يسد منافذ النفس عن سماع الخطاب ، وفهم الحقيقة المطروحة ، ومن هنا لزم ضرورة تخير الظروف الملائمة ، والأماكن المناسبة ، وأن يتخول الحاضرين بالحديث حسب الجو السائد والوضع الجارى حتى لا يحدث مللا أو ضيقة فى النفوس ، وحتى لا يكون رد الفعل على غير ما نشتهى لدعوتنا بين الآخرين ، ولكل فرد أسلوبه فى الخطاب ، فللمثقف أسلوبه ، وللأمى لغته وأمثاله ، وللبدوى طريقته وللحضرى ما يناسبه .

ومراعاة الفروق النفسية ، والملكات الفردية ، والظروف والمناسبات لا تتأتى مع المناهج المحدودة ، وانما تتيسر مع المنج الشامل المستوعب الذى يمكن للداعية أن يجد فيه وجها لكل طالب ، وطريقا لكل نفس ، وأسلوبا لكل ذى حال ، وعلاجا لكل صاحب داء ، ولقد جاء فى صحيح البخارى عن الامام على قال (حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله) وقال ابن مسعود (ما من رجل يحدث قوما بحديث لا تبلغه عقولهم الا كان فتنة لبعضهم) [٢١] وروى عكرمة عن ابن عباس

---

(٢١) ابن حجر فتح البارى ج١ ٢٢٥ .

قوله (حدث الناس كل جمعة مرة فان أبيت فمرتين فان أكثرت فثلاثا ، ولا تمل الناس هذا القرآن ، ولا ألفينك تأتى القوم وهم فى حديث من حديثهم فتقص عليهم فتملهم ، ولكن أنصت فان أمرت فحدثهم وهم يشتهون) •

٤ — المنهج والاستعداد الجماعى :

كما قلنـــا سابقا فان مناهج المفكرين تخاطب الفرد كما تخاطب الجماعة بأسس منهجية واحدة ، وأسلوب واحد ، ويخرج الفيلسوف على جماته بمنهجه ومذهبه دفعة واحـــدة ، ولا يميز فى تطبيقـــه بين زمن وزمن أو مجتمع ومجتمع ، ويكون المذهب بمنهجه وليـــد تجربة نفسية أو فكرية فى بيئة معينة أو مجتمع محدد ، ومع محدوديته الفكرية والذاتية والاجتماعية لا يحب صاحبه أن يعلن أنه صنع مذهبه ليكون خاصا بمجتمع كذا ، ويود لو أنه ساد شتيت البلدان ، ويقدمه للبشرية على أنه تراث انسانى يضاف الى غيره من أمثاله ، والفلاسفة المثاليون والمـــاديون والاجتماعيون الذين يرون خللا فى مجتمعاتهم يتصورون حلا معينا وينادون به اصلاحا للأمراض التى يحسونها من حولهم •

والمنهاج الاسلامى يختلف تمـــاما عن النظرة البشرية فى بنـــائه للمجتمعات ، وتصحيح مســـارها ، انه يفرق أولا بين مجتمع فى دور التكوين والنشأة ، وبين آخر له طابع اسلامى وبه أوجه قصور وفساد ، أما المجتمع الذى هو فى دون التكوين فان منهج التربية بالنسبة له يقوم على مبدأ التدرج الذى ســـلف ذكره ، ويتطلب هـــذا المبدأ قياســـا دقيقا لعناصر ثلاثة : قوة الجماعة الاســـلامية العددية والنفســـية والروحية والمـــادية ومقدار تحملها وصبرها وثباتها على الحق وحماسها من أجله ، وفهمها واستيعابها لمبادئه ، والعناصر التى تكفل لهم الاستمرار مع المزيد ، أو العوامل التى تعمل على تثبيط الروح ، واضعاف الهمة ، وهناك عنصر ثان يجب أن يكون فى الحسبان وهو الخاص بقوة الجماعة

المعارضة ، وحدود المعارضة ، وسيادة تلك الجماعة على الزمان والمكان في مجتمع الدعوة الناشىء ، وعوامل الاستثارة داخل الهيكل المعارض ، ومنزلة الأفراد الذين يشعلون روح الحماس ضد الحق ، والحجم المادى والكيفى لتلك القوة المناوئة ، ومقدار امتدادها ، والعمق البشرى المساعد لها ، والجبهات التى تتكاتف معها ، وطريقة وأسلوب الحوار فى الانكار ، وتطوير ذلك أو ثباته ، والمدى الذى يمكن أن تصل اليه جماعة المعارضة .

وأما العنصر الثالث فهو متعلق بالعلاقة بين العنصرين السابقين، وهل يتجه كل الفريقين فى طريقه دون احتكاك أو لا ؟ وهل هناك موازين تحكم الصراع وتضبطه مهما كان الفوران النفسى فى الداخل ؟ كما كان الحال فى الصراع بين الاسلام والكفر فى مكة لظروف تخص الحرص على بقاء الشكل السياسى والقبلى فى مكة على حاله ، وخشية أن تنحل عرى الروابط بين تلك القبائل والبطون فقد حرصت قوى الكفر ألا تغير من مهادنتها للاسلام ، وأن تطيل أنفاسها طويلا ، وتقدم حلولا مغرية للنبى صلى الله عليه وسلم لعله يؤثر الدنيا على الآخرة ، وطال انتظار مكة حتى مكن للدعوة فيها الى حد ما ، ثم وجد الاسلام البديل من الأرض والبشر فى يثرب والأوس والخزرج ، ويدخل فى هذا العنصر العلاقات الأسرية والشعورية والاقتصادية التى تنشأ بين الطرفين ، وتأثير بعض الشخصيات ذات العلاقات فيما بينهم ، وأصحاب المكانة التى يعمل لها الحساب هنا أو هناك .

هذه العناصر تكون دائما محل تدقيق الى أقصى الحدود ، ولكن المعيار الذى يقيس حركتها منفصلة كل واحدة على حدة ، ويوازن بين علاقتها ، ويتخذ من الأوامر ما يناسب الظروف الجماية والخاصة لا يرجع الى منطق البشر ولا يحتكم الى عقله ، وانما يكون الوحى هو الضابط والمسير بأحكامه وأوامره وتنزلاته لحركة الجماعة المسلمة فى توجيه النصح لها ، والزامها بتكاليف فردية أو جماعية مناسبة لكل ظرف

ومكان وحال ، وهو فى تلك الحالة لا يتدفق منهمرا كالسيل انما يقطر كالبرد ، كل قطرة تبرد لهيب نفس متعطشة الى الحق تواقة الى المزيد ، وتبنى نفسا جديدة طية طية وشعورا شعورا ، وتداوى عللا مترسبة ، وتفك عقـدا ماضية ، وتبسط أغلفة طواها المـاضى بضلاله وتيهه ، وتهيىء أفئـدة لفهم جديد ، وتشحذ ارادة لعمل متواصل ، وتؤسس عزيمة لكفاح مرير ، وترسى قواعد عقيدة سوف تشـيد عليها صروح أخلاقية وتشريعية قادمة ، تلك الصروح التى يأتى دورها من النزلات الربانية كل فى وقته وحينه حسب قدرة الجماعة واستعدادها وظروفها التى تسمح بالتطبيق والتجربة .

والوحى أيضا هو الذى يكشف خبايا النفوس الكافرة أن تكتمت على ما يعتمل فى داخلها ويعطى له من الردود المناسبة ، ومن وسائل الاقناع الاستدلالى أو الاعجازى أو الحربى ما يخرس جهارة البـاطل وصوته المرتفع بلا سند من حق ، أو دافع من هـدى ومنطق ، وهو الذى يأتى بالاجابات الشافعية على شبههم وافتراءاتهم ويحاول بشتى الطرق اقناعهم بصلف موقفهم وزيغه وظلمه وافترائه وبهتانه الى آخر العبارات الواصفة لحالهم ، كما أنه يبين العلاقات بينهم وبين غيرهم وتآمرهم على الحق ، ويرسم الخط الفاصل بين موقف الباطل والحق رسما دقيقا يتميز هذا عن ذاك ، ونزول الوحى يأتى مع كل حالة ومناسبة ، ويظل الوحى يتوالى حتى تكتمل الحلقات المطلوبة ويتم البناء الدينى .

هذا البناء الذى تتضح فيـه معالم الحقيقة الربانية بعقيدتها وشريعتها وأنظمتها ومسالكها ، وتطبق تجريبيا تطبيقا يكون نبراسـا للوقائع المتشابهة من جهة ، ويؤكد فعالية الدين وسلطانه فى الحياة من جهة أخرى .

وبالنسـبة لعلاقة المنهاج بالمجتمعات الاسـلامية التى يسودها الفساد ، وتتطلب اصلاحا فأول ما يجب عمـله هو التمييز بين الحق

الدينى والأفكار الفاسدة التى ترسخت فى أذهان الأفراد ، وحسبوها حقا ، وما هى بحق ولا قريبة منه ، فاذا ما امتاز الحق من الباطل عبئت النفوس بشتى الطرق والأساليب الاقناعية والعاطفية ، وعلى الدعاة أن يدركوا أهمية الوحـدة الفكرية فيما بينهم ، وأن يرسـموا خططا واضحة ودقيقة يقومون بتنفيذها واحدة وراء الأخرى ، وأن يجيـدوا فهم العناصر الثلاثة السابقة لتشـابه كبير بين المجتمعات الجاهليـة الأولى والمجتمعات المعاصرة ، ولا بد أن يدركوا أهمية التغلغل فى شتى الأوساط الاعلامية والسياسـية والتعليمية والاقتصـادية والصناعية والحرفية والثقافية والنسائة والاجتماعية وأن يقتربوا من الجمهـور قربا محببا ، وأن يستوعبوا روح العصر وظروفه ، وعلاقة العـالم الاسلامى بغيره وأن يهب العلماء فى غيرة وحماس وعاطفة مشحونة ، وأن يستميلوا الحكام بكافة الطرق والحيل الممكنة التى لا تخل بالخلق، ولا بشرف الداعية وشرائط الدعوة ، وأن يعمل الجميع على سـيادة العادات والتقاليد الاسلامية ، واحلال النظام الاسلامى محل النظام الوضعى العلمانى ، وأن تتم عملية الاحلال بالشكل الموضح ان أردناه تحويلا سلميا •

وفى النهاية نستمع الى صورة التدرج من السيدة عائشـة وهى تقول (انما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنـة والنـار حتى اذا ثاب الناس الى الاسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شىء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمـر أبدا ، ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبدا) (٢٢) •

٥ ــ المنهج والأسـلوب :

المنهاج والطريقة نمط فكرى متعدد المراحل والخطوات ، وسبيل متنوع الوسائل والتدابير ، وجل مراحله وتدابيره اهتمامات نظـرية

(٢٢) راجع كتاب مفاهيم اسلامية ٤٢،٤٦ ، ومنهج الدعوة ٥٤ ــ ٥٦

وفكرية ، ولن يخرج الى السامعين دون أن يرتدى ثوبا لفظيا قشـيبا أو خشـنا ، ناعم الملمس أو غليظا ، فضفاضا أو محكما ، موجزا أو مطنبا ، ومن الألفاظ يتكون الهيكل الأساسى للأسلوب ، ويصير الأسلوب رداء الفكرة ومظهرها ، ويكون بمثابة الاعلان الجيد أو الردىء عنها . وانطلاقا من هذه فان عرض الدعوة أمانة فائقة ومهنة غالية ، وتحتاج الى امكانيات واسعة لدى الدعاة ، بعضها يرجع الى السـعة العلمية والمعرفية التى تعين على تخير أفضل أنواع المراحل المنهجية ، والملاءمة بينا وبين المخاطبين وظروفهم ، وعلى ابتكار الطرق الاقناعية واستنباطها مع حسن الترتيب ، وبعضها لغوى يساعد على انتقاء اللفظ وحسنه . وجماله ورقته ، وعلى رسم أجود أنواع الأساليب التى تتميز بالجلاء والوضوح ، يتذوقه الخواص ويستسيغه العوام ، أو يترنم لسماعه الخاصة ، ويفهمه العامة ، ويتسم بالرشاقة والعذوبة كأنه نغمة جميلة على أسماع البشر بحيث يستحوذ على مشاعرهم وحواسهم .

وينبغى أن يوشى الأسلوب بالبديع والتشبيهات وضرب الأمثال التى تقرب المعانى ، وتبرز الغيبيات كأنها محسوسة ، كل ذلك والداعية مشحون بالفكرة والمضمون ، صادق الحس مع دينه ، مخلص النية مع ربه قوى الرغبة فى جذب ونفع الآخرين ، موفور الحماس مع دعوته ، منفعل بها ، متفهم لجميع الظروف والأحوال ويكون فى نبراته وعلمـه وفمه وطريقته ومنهجه صورة صادقة عن الرسالة التى يعيش لهـا ويدعو من أجلها ، ويتفانى فى سبيل نصرتها ، ولا ينبغى أن يدعى لنفسه طورا من الفهم فوق قدرته ، أوأن يغرق أسلوبه فى المحسنات الكلامية بلا فكرة جوهرية يعمل من خلالها ، ويهتف لها ، ومن الأساليب السيئة تلك التى مازلنا نمجها لاغراقها فى التسجيع المرذول والتقطيع المبغوض .

وكما يتأمل الداعية دعوته فى أصولها وأحكامها وطرق اقناعها فعليه أن يتفرس أسلوب البلاغ فيها ، وأن يتشرب نمطه الفريد المبهر والمعجز ، والذى تحـدى به النبى صلى الله عليه وسلم فصحاء العرب وبلغاءهم

فلم يدركوا أقصر آية منه ، واللسان الصادق الذى بلغه قد أوتى جوامع الكلم ، ورزق من الفصاحة ما لا نظير له فى عصره أو قبله وبعده ، ولقد أمرنا فى صلب آيات القرآن الكريم أن نختار القول الجميل العذب ، والبليغ الرصن فقال سبحانه آمرا النبى وكل داعية من أمته (**فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا**) [٢٣] يقول لزمخشرى (قولا بليغا فى أنفسهم مؤثرا فى قلوبهم) [٢٤] وقال أبو أبو السعود (مؤثرا واصلا الى كنه المراد مطابقا لما سبق له من المقصود) [٢٥] فان كان المقصود هو التخويف والزجر وفى الأسلوب بالغرض توفية تامة ، وان كان هو البشارة أو الحث على فعل شىء نهضت به العبارات نهوضا مناسبا ، ومما يدل على عمق التأثير ما نراه من الآية عندما تصل به حقا الى عمق النفوس وسويداء القوب ، ومكنون الأذهان .

ان البلاغة المنوطة بالأسلوب المنهجى الصحيح ليست هى التراشق اللفظى ، أو اللعب بالعبارات ، ولكنها لغة النفوس ، لغة تصدر من نفس واعية مفعمة بالحق ، صداحة به ، تستعذب منطقه ، وتستهون صعاب العمل فى سبيله ، وتدبج عذب الحديث تعبيرا عنه ، وهى لغة لا توجه الى الأسماع ، ولا تنتمى الى الأشكال الظاهرية ولكنها تستوعب ما فى نفس المخاطب ، وتعرف ما يجول بخاطره وتقذف اليه العبارات كأنها المدى المستحدة القاطعة اذا أنذرت وخوفت ، أو كأنها السلسبيل العذب البارد الذى يطفىء لهيب النفس الخائفة من عذاب اللـه اذا بشرت وطمأنت بما عند اللـه للمؤمنين الصادقين العاملين ، فهى لغة النفس للداعية الموهوب والمتفانى ترسل الى نفس المخاطبين حسب حالها . وتكون مطابقة لمقامها .

---

(٢٣) النساء من الآية ٦٣.
(٢٤) تفسير الكشاف فى ٥٣٧
(٢٥) تفسير أبى السعود فى ٧٢٧

ومجرد المطابقة للحال والمقام بأى قول ، أو بأى صيغة لا يكفى ، بل يشترط القرآن أن تكون المطابقة بالقــول الحسن حتى تجمع بين صدق الحال وجمال المقال يقول سبحانه ضــمن الأوامر التى ألقــاها على بنى اسرائيل : (**وقولوا للنــاس حسنا**) (٢٦) ويقول فى ســورة الاسراء : (**وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن**) (٢٧) ، والحسن كما يرى الراغب الأصبهانى (عبارة عن كل مبهج مرغوب فيه وذلك على ثلاثة أضرب : مستحسن من جهة العقل ، ومستحسن من جهة الهوى ، ومستحسن من جهة الحس) (٢٨) ، والمستحسن من بين الثلاثة شرعا ، وما ينبغى أن يتحلى به الخطاب لدى الدعاة هو القول المستحسن عقلا وحسا معا والبعيد عن الشبهة كذلك ، واذا جاءت الآيتان فى معرض الأمر العــام بالقول الحسن فانه يلزم الدعاة من باب أولى ، واذا أمر بنو اسرائيــل أن يقولوا حسنا فقد أمر اللــه عباده المسلمين أن يقولوا التى هى أحسن ، ويذكر الشوكانى :

(أى قل يا محمد لعبــادى المؤمنين انهم يقولون عند محاورتهم للمشركين الكلمة التى هى أحسن من غيرها من الكلام الحسن) (٢٩) .

واننا اليوم بحاجة ماسة الى دعاة من طراز متقدم ، ومن مثل حديثة ، لهم خبرة علمية وفنيــة ، كما أسلفنا ، وتزداد الحاجة اذا أدركنا أننا فى عصر يعرض فيه الباطل بمذاهبه وتياراته بأسلوب منمق ، وطرائق مزوقة ، وتجند له كافة الوسائل للافصاح عنه والترويج له ، ولسنا بحاجة الى دعاة موظفين ، أو خطبــاء مزورين ، ينتسبون الى

---

(٢٦) البقــرة من الآية ٨٣
(٢٧) من الآية : ٥٣
(٢٨) المفــردات ١١٨ ، وابو طــالب القيسى : مشــكل اعراب القــرآن ح١ ١٠٢
(٢٩) فتح القــدير ح ٢ ٢٣٥

الدين وهو منهم في تفكيرهم وسلوكهم براء ، هؤلاء يسيئون من حيث يظنون أنهم يحسنون صنعا ، ولسنا فى حاجة الى أدعياء على الطـريق يثنون على الاسلام فى كتاباتهم ، ويمجدونه بحلو أحاديثهم وقلوبهم تفيض مرارة ، وتضيق حرجا ، وألسنتهم داخل حناجرهم تلوك العلقم، ومسالكهم تنأى بعيدا بعيدا عن أحكامه وروحه ، وغايتهم تضليـل الشعوب واستقطابهم ، ولن ينفع هؤلاء وهؤلاء ما هم عليه من كذب وتمويه كما لن ينفع الحكام ما هم عليه من اهمال وتفريط فى حق الدين ومنهاجه القويم ، والويل للأمة ثم الويل ان لم تنهض شعوبا وحكاما لتستمسك بدين اللـه وتعمل به ومن أجله •

٦ ــ المنهج والغــاية :

يدرك (هنترميد) من خلال دراساته للعلاقة بين الغــاية والنشاط العقلى الذى يزاوله الانسان ، ويرى أنه يؤثر بطبيعة الحـال على المناهج المستخدمة ، وتكمن جهة التأثير من حيث أن الغايات اذا انحصرت فى الجوانب العرفانية ، أو اهتمت بها اهتماما كبيرا انصرف الانســان أثنـاء محاولاته التعقلية الى المناهج النظرية ، وبدا معنيا أو مشتاقا الى العثور عن المعرفة وحدها ، والمعرفة بالذات لا بقصد العمل المبنى عليها ، وهو مستعد لبذل أقصى الجهد فى سبيل آماله العرفانية وان لم تنســجم مع الآمانى البشرية العملية المتأصلة بعمق فى الطبيعــة البشرية ، وحتى فى تلك اللحظات التى ينتفع فيها المفكر أو الفيلسوف بثمار نظراته العقلية ، أو يراها فى مسالك بعض الأفراد أو الجماعات فانه لا يطرب بالقدر الذى سعد به أثناء تحصيله تلك المعارف نظريا ، ومعنى هذا أن المنــاهج الفلسفية بغاياتها تهتم أقصى ما تهتم بالجانب النظـــرى (٣٠) •

---

(٣٠) الفلسفة أنواعها ومشكلاتها ٣٩ — ٤٠

أما الدين ، وبالأخص الخاص بالاسلام فانه يهتم بالجوانب النظرية : العلمية والفقهية ، وطرق الاقناع وحججه وبراهينه ، وتنويع الجدل وأسلوبه ، والتبليغ والوعظ الى آخر ما هو معروف ويهدف من وراء ذلك كله الى بث الايمان واليقين فى قلوب البشر ، وانارة العقل أثناء بحثه ونشاطه كى يعمل تحت مصباح الوحى وهديه ، وفى ضوء قواعد الاسلام وتوجيهها ، واحداث نوع جيد من الأمان القلبى والاستقرار النفسى ينبعث من اليقين الايمانى ، ومع هذا يشد الانسانية فى قوة الى العمل ، ويشعرهم بأن الحياة منوطة به وأن السعادة فى الدارين مرتبطة به ارتباطا طرديا وعكسيا ، فان وجد وجدت ، وان زاد العمل قويت السعادة ، وقوى الاحساس بها والشعور بغمرتها ، وان نقص كان على حسابها ، وان انعدم الجهد والبذل كلية فلا سعادة هنا أو هنالك ولكنه الشقاء الدنيوى والأبدى .

وتلحظ هذا الاهتمام جيدا من خلال الآيات التى تناولت حث البشر على التفكر والتأمل والتدبر والسير والنظر ، ووضعت أمام أعينهم الآيات الكونية والمتلوة ، وتجد أنها تختم فى النهاية بعبارات **تتنوع بين النظر والعمل مثل :** لقوم يعلمون ، أو يفقهون ، أو يؤمنون ، أو يذكرون ، أو يعملون (٣١) ، وما من فكرة أو حكم سيق الا وهو لغاية عملية تأتى رديفة لفقهه والعلم به ، ومن يعلم ولا يعمل كان جزاؤه مضاعفا .

(٣١) على سبيل المثال انظر الآيات : فصلت ٣ ، الانعام ٦٥ ، ٩٩ ، البقرة ٢٢١ ، الاعراف ٤٣ ، ١٢٩

الفصل الثانى

البلاغ المبين

المراحل الأوليـة وعلاقتها بالمنهج :

في هـذا الفصل والذى يليـه سنتاول بعض المراحل المنهجيـة التى اعتبرت مقدمات أساسية للمرحلة الاستدلالية الكبرى فى المنهج الاسلامى ، مثل البلاغ واثارة الفطـرة والموعظة ، ويرجع السبب فى أننا جعلنـاها بمثابة المراحل الأولية الى أن اقامة الحجـة بالبرهان والآيات الاعجازية لا تتأتى غالبا الا بعد أن يكون النبى قد أخبر قومه بما جاء به من رسالة ، وطالبهم بالمضمون الأصلى لتلك البعثة التى كلف بها ، وليس من المنطق أو الحكمة أن يردف عملية البلاغ الأولى بسيل من البراهين ، وانمـا ينتظر مدة حتى يتبين له موقف قومه ، وما سوف يتمخض عنه من أفكار ، ثم بعد ذلك يرد الردود المناسـبة لحالهم ومعتقداتهم ومدى اصرارهم •

والترتيب الحكيم المناسب للمراحل الأولية يتطلب أن يبدأ الداعية باعلان سرى أو علنى يبلغ فيه أمته ما آل اليه الأمر من اختياره نبيـا مرسلا ، ويخبرهم بالمهمة التى ألقاها اللـه على كاهله ، ويطلب منهم أن يقبلوا ما جاء به ، وأن يتهيأوا لتنفيذ أوامر الحق جل جلاله ، فان رفضوا وأنكروا أثـار فيهم مشاعر التدين الكامنة ، وخاطب فطرهم النقية لعلهم يتحركون بدوافعهم الذاتية نحو المطلوب الايمانى ، ومن ثم تكون اثارة الفطرة هى المرحلة المنهجية التالية للاعلان الأول عن الرسالة والرسول ، واذا اتضح لديه انطماس الفطرة ، وذهاب بريقها ، وغلبـة قوى الشر على الخير فيه راح بعد ذلك ينافح بالدليـل والحجة حسب الظرف ، وقدر ما تسمح به عقلية وطبيعة المدعوين •

وتظهر علاقة البلاغ بالمنهج من حيث أنه سبيل اخبارى يحدث علما بطريق الاعلان بالنبـأ الهـام • عن ارسال النبى بدين ورسالة ، والخبر قضية عامة ، ودعوى جديدة مقدمة من صاحبها ، يراها البعض واضحة لا تحتاج الى دليـل فيؤمن ، وينظر الى صاحبها فيستبعد عليه

الكذب والافتراء فيصدقه ، ويعرف من خلال سيرته وحياته أنه طراز فريد ، ونمط من البشرية متميز فلا يتعجب من بعثته ، ولا يطلب برهانا على دعواه ، بل يصدقه بمجـرد الاعلان ، وفريق آخـر ينتظر حتى يتكشف له الأمر وتتضح له الحقيقة ، وجماعة وفيرة العدد يخيفها هذا الاعلان ويرعبها ، فتهب بوعى وبلا وعى تنكر وتصـد ، وهى التى يأخذها الداعية بالرفق أولا فيثير فطرتها ، وينقب عن نوازع الخير فيها ، فاذا ما تبين له انعـدامها أخـذ فى الجـدال والاقناع بطرائق منهجيـة متقدمة •

وأما علاقة اثارة الفطرة بالعمليـة المنهجية فانها تعتبر بحـق اكتشافا لطبائع المخاطبين ، وبحثا عن المحتويات النفسية لديهم ، ماذا بداخلهم من بقايا الخـير ؟ وماذا فيهم من نوازع الشر ؟ ومن منهم يستطيع أن يجتاز ركامه النفسى بسرعة حتى يجلى عن فطرته غشاوتها؟ ومن طويت فطرته بين أسـمال الهوى وأكوام الشهوة ؟

وهذا الاكتشاف ضرورى للتمييز والفرز بين الطبائع من جهة ، وكسب بعض الطبائع الخيرة ، ولتجنب العناصر الشريرة ومعـرفة شبهها وادعائها حتى تتم المحاجة عن بينـة ولتحديد مواطن الاختلاف ، وتحرير محال النزاع من جهة أخرى •

البـــلاغ :

اذا قيل بلغت المكان بلوغا يعنى وصلت اليه أو شارفت عليه ، ومنه البلاغ كسحاب الكفاية ، والاسم الابلاغ والتبليغ وهما الايصال ، ويقال بلغ بلاغا اذا اجتهد ولم يقصر (١) ، ويقول الراغب الأصـفهانى (البـلوغ والبلاغ الانتهاء الى أقصى المقصد والمنتهى مكانا كان أو

---

(١) الفيروز ابادى : القاموس المحيط ح٣ ١٠٣ .

زمانا أو أمرا من الأمور المقدرة وربما يعبر به عن المشارقة عليه وان لم ينته اليــه •• والبلاغ التبليغ •• (**هــذا بلاغ للناس**) • والبلاغ الكفــاية •• (**ان فى هــذا لبلاغا لقوم عابدين**) •• ويقال بلغته الخبر **وأبلغته مثله وبلغته أكثر « أبلغكم رسالات ربى ••• »** (٢) •

وبهذا يكون البلاغ والتبليغ والبلوغ بمعنى واحد حسب اللغة • ويراد بتلك الكلمات فى مجال الانبياء عن اللــه للأقوام أن يعلنوا ذلك الى أقصى الجهد ، ومنتهى البذل ، أى يقوم الأنبياء بايصال ما بعثوا به الى الأمم بكل ما يملكون من الطاقة والاستطاعة والوسيلة والحيلة ايصالا يعم جميع ما أمروا به دون كتمان لشىء منه مهما بدا صــغيرا أو فرعيا ، واذا جاز فى اللغة أن يكون البــلاغ بمعنى المشارفة على الشىء فان ذلك يكون مع غير الأنبياء ، وبعيدا عن الرسالات الربانية ، أما حكم الأنبياء وتكليفاتهم فهو أشد ، وليسوا فيه كسائر الناس فى الأمور الدنيوية أو العلمية الأخرى ، وبالتالى فلا يكتفى فى التبليغ بالمشارفة بل لابد من النهاية القصوى فى الايصال ، ولنفس السبب جاءت اللفظة فى القــرآن من بلغ وبلغ لتؤكد الوصول الى النهــاية العظمى فى التبليغ •

والبلاغ يتضمن شخصا مختارا لمهمته ، وموضوعا يبلغ للبشر ، وأسلوبا يتم به التبليغ ، ومرحــلة مناسبة له ، أو ظــرفا ملائما يتم من خــلاله •

المبلغــون عن اللــه :

الذين يقومون بمهمة التبليغ هم صفوة الخلق من الرسل أو الدعاة المتفقهون والمتحمسون ، وهؤلاء بالطبع يختلفون عن المصلحين السياسيين والاجتماعيين من جهة أن المصلح يأتى ببرنامج عقلى قد اخترعه من

---

(٢) المفــردات ٦٠.

عنـــده ، أو نقله من غيره ، وغالبا ما يكون البرنامج معزوا الى صاحبه، ويحاول القائمـــون به وعليه أن يجعلوه ملما بالمقصود من العمليـــة الاصلاحية ، مراعيا لمطلوب واضعيه طبقا لوجهات نظرهم ، وفى الوقت نفسه لا يسلم من النقـــد الشديد الذى يأتيـــه من جهات متعددة معارضـــــة •

أما الأنبياء والدعاة فلا ينسبون ما يقدمونه الى أنفسهم ، وانمـــا يحيلونه من أول لحظة الى مصدره ، وهو الحق جل جلاله الذى كلفهم به ، ولا ينسب النبى أو الداعية أى حكم لنفسه ، ويقرر فى وضوح أنه مكلف بالتبليغ والتنفيذ شأنه فى ذلك شأن بقيـــة البشر القـــادرين على البلاغ ، أو المكلفين بالعمل والاستجابة ، ويتلو عليهم بين الحـــين والحين صـــورة الأمر الصادر اليه بهـــذا التبليغ مثل قوله تعـــالى : **(يأيها الرســـول بلغ ما أنزل اليـــك من ربك وأن لم تفعل فما بلغت رسالته واللـــه يعصمك من النـــاس)** (٢) ، وهـــذه الصيغة بطبيعة الحال واردة على سبيل الطلب المباشر من اللـــه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وملزمة له على سبيل الوجوب هو ومن استطاع من أمته ، وشاملة لجميع الأحكام المنزلة على الرسول صلوات اللـــه عليه ، وتحمل تهديدا عن اغفال شىء من الأوامر المنزلة (٣) •

وتاريخ الرسل ومن سار على دربهم يحدثنا أنهم بلغوا الأقوام فى جرأة فائقة ، والحاح مستمر وأنهم تلقوا الاتهامات بأناة وصـــدر فسيح ، وأعلنـــوا مرارا أنهم ناصـــحون لأقوامهم ، لا يريدون لهم الا الرشاد والفـــلاح ، والا أن يكونوا عبيدا للـــه لا للبشر أو الصنم، انهم يريدونهم فى صورة بشرية راقيـــة ، صورة ترقى فوق مســـتوى الوثن ، وتعلو فوق حضيض الكفـــر ، وترتفع عن حيوانيتها وبلاهتها ، وتقـــدر لملكاتها قدرها ، ولعقولها حقها ، ومن ثم يقول المـــلأ لنوح :

---

(٢) المـــائدة من الآية ٦٧.

(٣) تفسير أبى السعود ج ٢ ٩١ — ٩٢.

« **انا لنراك فى ضلال مبين** » فيرد بكل ثقة واعزاز ، وبكل رباطة جأش : (**قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من اللـه ما لا تعلمون**) [٤] .

ولما قال الملأ لهود : (**انا لنراك فى سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين ، قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين**) [٥] ، والافصاح عن البلاغ مع النصح يرد على لسان شعيب وصالح فى حديثهما مع قومهما ، وفى نفس الموقف صمت النبى حتى رد الحق على قومه فى سورة المسد ، ويمتاز المبلغون فى تلك المرحلة بالجرأة والشجاعة ، والعزم الفائق ، والارادة التى لا تعرف الملل ، والعزيمة التى لا تفل ، ومع أن الصورة البشرية بقوتها وكثرتها ، واستهزائها وعنفوانها تبدو مخيفة ، ويبدو اختراق الطريق الى تلك النفوس مليئا بالمصاعب والأشواك ، وتظهر السدود سميكة ومرتفعة ، والبون بين النبى وما جاء به من دين وبين الأقوام شامخ ، والمسافة بعيدة ، والهوة سحقية ، وعيون البشر من حولهم تتلظى ، وترمى بالشرر الذى ينذر ببدء صراع مرير ، وبالاقبال على مراحل صعبة الا أن الأنبياء والذين ينهجون نهجهم يتجهون نحو دعوتهم لا يلوون على شىء ، ولا يخشون بأس أحد ، وحالهم ما تصفه سورة الأحزاب (**الذين يبلغون رسالات اللـه ويخشونه ولا يخشون أحدا الا اللـه وكفى باللـه حسيبا**) [٦] ، ويحسون دائما بعظم تلك المسئولية ، وأن اللـه مطلع عليهم مراقب لهم (**ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عددا**) [٧] .

---

(٤) الأعراف ٦٠ — ٦٢.
(٥) نفس السورة ٦٦ — ٦٨.
(٦) الآية ٣٩
(٧) الجن ٢٨

الموضوع المبلغ :

اذا قلنا ان المصلحين يخرجون على البشر ببرنامج يرونه مدبجا ومتكاملا من وجهة نظرهم فان برنامج الأنبياء يكون مبسطا فى البداية ، قائما على الأصول الأولى ، مركزا حول أهم القضايا العقائدية ، محصورا فى دائرة الألوهية والنبوة والبعث كما سبق أن أشرنا ، وبعد اجتياز المراحل الأولى من عمر الدعوة ، وبعد أن تترسخ فى أذهان جمهرة من الناس تتنزل أحكام التشريع وغيرها من الأوامر الالهية ، والاسلام هو الدين الذى تميز بهذا التدريب على وجه خاص •

ويتناول البلاغ الحديث الدائب عن الوحى والرسول والرسالة والعبودية والعبادة ، والخلق والتكوين واسناد الأشياء الى الله سبحانه ، ووحدانيته وصفاته ، وعلاقته بالبشر فى الانعام والحفظ والعناية والاعطاء والتفضل ، وكل واحد من الأنبياء يركز باهتمام بالغ على تلك المسائل كى تثبت فى أذهان قومه حتى ينطلق بعدها الى ما يريده الحق سبحانه من تكليفات شرعية **(هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو اله واحد وليذكر أولوا الألباب)** (٨) ، وكل مرحلة من مراحل الدعوة لها موضوعها الذى يقوم النبى بتبليغه على الفور من نزوله ، فالتبليغ مستمر باستمرار نزول الوحى ، ومرتبط بحياة النبى حتى يكتمل الدين موضوعا ، ويتم تبليغا ، وحول هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم (تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لايزيغ عنها الا هالك) ويقول (ما تركت من شىء يقربكم الى الجنة الا وقد حدثتكم به ، وما من شىء يبعدكم عن النار الا وقد حدثتكم به) وأما أبو ذر فيعبر عن سعة العلم الذى قام بتبليغه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول (لقد توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقلب جناحيه فى السماء الا ذكر لنا منه علما) (٩) والتبليغ مستمر باستمرار أمة الدعوة كذلك •

---

(٨) ابراهيم ٥٢

(٩) مجموع الفتاوى ج ٥ ص ١٥٥ — ١٥٦ .

الابانة فى التبليــغ :

ويتسم بلاغ الأنبياء بأنه مبين واضح ، وأنه كاشف ظاهر ، مبين واضح فى لفظه ، كاشف ظاهر لا يخفى حقيقة من الحقائق ، والأنبياء والدعاة من هــذا الجانب أمناء فيمــا يؤدون ، وهم ليســوا عقليين يستخدمون الرموز العقلية الغامضة ، وليســوا سياسيين فحسب يتحدثون بقــدر ، ويكتمون الكثير داخل صدورهم ، ولكنهم فى الدرجة الأولى أنبياء مبلغون يمتازون بالصراحة والوضوح ، والتعليم والتربية، والتهذيب والاصلاح ، والهداية والارشاد ، وهــذا كله يقتضيهم أن يبينوا عن كل ما يوحى به الله اليهم فى أسلوب سهل ، وطريقة محببة ، وشخصية جذابة ، ولا يهمهم بعــد ذلك أن يعرض الناس أو يتولوا ، فالمسئولية الملقاة على عاتقهم تتجلى فى التبليع لا الهــداية الفعلية ، وكثيرا ما طمأنهم اللــه سبحانه وتعالى على ذلك ، وصبرهم على أذى الأقوام والأعراض عنهم بحصر مســئوليتهم فى الابانة عمــا أنــزل وأوحى اليهم .

وعن الأمانة ومسئولية الأنبياء يقول اللــه سبحانه **(وأطيعــوا اللــه وأطيعوا الرسول واحذروا فان توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البــلاغ المبين)** (١٠) **(فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ان عليك الا البــلاغ)** (١١) ، **ويتكرر هــذا المعنى كثيرا** (١٢) .

طبيعة المرحلة التبليغية واستمرارها :

تبــدأ المرحلة التبليغية كما قلنــا مع بداية الدعوة ، وفيها يركز النبى أو الداعية على مجرد البلاغ ، ولايتناول الرد على الشبهبالبراهين

---

(١٠) المــائدة ٩٢
(١١) الشــورى ٤٨
(١٢) آل عمــران ٢٠

أو المحاججة ، واذا ما وجهت اليه تهم معينة ردها بعينها كما رد نوح على زعمهم بأنه فى ضلال قائلا ليس به ضلالة ، ورد هود مبينا ليس بى سفاهة ، ورد الله سبحانه وتعالى على مزاعم قريش بقوله (**فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ، أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون قل تربصوا فانى معكم من المتربصين ، أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون ، أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون ، فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين) الطور ٢٩ — ٣٤ (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) القلم ٢ (وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون ،تنزيل من رب العالمين ، ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين ، وانه لتذكرة للمتقين ، وانا لنعلم أن منكم مكذبين، وانه لحسرة على الكافرين ، وانه لحق اليقين) الحاقة ٤٢ و ٥١ .**

بهذا الهدوء والرفق ، ورد الفرية ذاتها ، وبهذا الأسلوب الذى يبين انحراف الأقوام فى منطقهم ، وعدم اعتداد تفكيرهم ، وبطلان ما يزعمون ، ويبين فى الوقت ذاته أن الله سبحانه لا يهمل النبى لو افترى عليه مثل ذلك من الوحى ، وأنه يعاقبه عقابا شديدا لو أقدم على مثل هذه الخطوة ، والغرض هو اثبات صدق النبى ، وبيان استقامته على نهج الله الذى خطه له ، والحق جل جلاله لو أمهل المكذبين بالرسل قليلا فانه لا يمهل الذين يدعون عليه مزية تلقى الوحى منه الا من باب الاستدراج والافتتان والبلاء .

وتتركز عملية الدعوة حول منهج البلاغ المجرد حتى يشتد عودها، ويقوى ساقها ثم يعقب النبى تلك المرحلة المنهجية بشىء من التهديد والانذار والوعيد ، ويسوق ذلك لا على لسانه الخاص الذى يدل على أنه ينتقم ويتوعد لثأر نفسه نظير اهانة شخصية وانما يسوقه وحيا من الله (**اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم ، ما على**

الرسول الا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) (١٣) **(فان تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم ويستخلف ربى قوما غيركم ولاتضرونه شيئا ان ربى على كل شىء حفيظ)** (١٤) **(واما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب) (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسـل ، ولا تسـتعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك الا القوم الفاسقون)** (١٦)،

وتتطور هـذه المراحل الى المحاججة أو القتال لكن فى أزمان تأتى بعـد البدايات ، واذا حلت البرهنة ، أو جاء دور الجهاد فليس معنى هـذا ايقاف عملية التبليغ فى حـد ذاتها بل تستمر اخبارا عن الوحى النـازل ، أو بيانا للأحكام ، كما يستمر التبليغ المجرد مع الذين لا طاقة لهم على الجـدال وليس فى استطاعتهم ذلك مثلما فعل عمر رضى الله عنه بالشـام عند رأى امرأة عجـوزا وعلم أنها مسيحية فدعاها الى الاسلام ، ولم يناقشها أو يكرهها على ما دعاها اليه بعد ما رفضت ، واكتفى بايصال الدعوة اليها ، وحتى الذين تؤهلهم قدراتهم على الجدل عنـدما يتبين للداعية لجاجهم فان عليه أن يقطع المجادلة ، وأن يعلن البلاغ **(فان حاجوك فقـد أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ، وقـل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فان أسلموا فقـد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد)** (١٧) ، والأمة فى هـذه الأيام

---

(١٣) المـائدة ٩٢ ، ٩٨ ، ٩٩ هود ٥٧ ، الرد ٤٠ ، النحـل ٣٥ ، ٨٢ ، النـور ٥٤ ، العنكبوت ١٨ ، يس ١٦ — ١٧ ، الشـورى ٤٨ ، التغابن ١٢ وانظر مجمـوع الفتـاوي ح ٤ ٢٦ ، ح ١٣ ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ومرشد الدعاة للشيخ محمد نمـر الخطيب ١٢٣ — ١٢٤ وفى ظلال القرآن ح ٢ ٩٣٧ — ٩٣٨.

(١٤) هـود ٥٧

(١٥) الرعد ٤٠

(١٦) الاحقـاف : ٣٥

(١٧) آل عمـران ٢٠

وبعـــدها مأمورة بتبليغ القرآن بلفظه ومعناه حسبما يرى ابن تيمية ، لفظة لمن يعرف العربية ، ومعناه لمن لم يعرفها بالترجمة أو البـــلاغ الشارح والمبين[١٨] ، أى أن التبليغ مستمر فى عصر النبى بكل مراحله ، وبعـــد عصر النبى الى يوم أن يرث اللـــه الأرض ومن علبهـــا يروى ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال (نضر الله عبدا سمع مقالتى فحفظها ووعاها وأداها فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه) [١٩] ، وروى عبد الرحمن بن أبى بكر عن أبية قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ليبلغ الشاهد الغائب فان الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى منه) [٢٠] وقال النبى (تسمعون ويسمع منكم) [٢١] وقال (بلغوا عنى ولو آية وحدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمدا فيتبوأ مقعده من النار) [٢٢] .

---

(١٨) مجموع الفتاوى ح٤ ١١٦.

(١٩) شرح السنة ح١ ٢٣٦ وصحيح البخارى ح٣ ٤٥٩ فى خطبـــة النحـــر .

(٢٠) فتح البارى شرح البخارى ح١ ١٥٨ كتاب العـــلم .

(٢١) رواه الامام أحمـــــد (٢٩٤٧) وأبو داود (٣٦٥٩) فى باب العلم وصححه ابن حبان (٦١) والحاكم ح١ ٩٥

(٢٢) انظر شرح السنة ح١ ٢٤٠.

الفصل الثالث

اثارة الفطرة الانسـانية

تمهيـــد :

بات من المعروف لدى علماء النفس أن الانسان تعتريه حالات ثلاث من الأفعال :

أفعال عشوائية وهى التى تقع بطريقة آلية ونلاحظها عند الصغار كثيرا وعند الكبار كذلك مثل تحريك اليدين والرجلين وفرقعة الأصابع ، وتحريك الرأس يمينا وشمالا بداع وبلا داع •

وهنناك الأفعال المنعكسة التى هى مجموعة ردود أفعال تصدر عن الانسان بطريقة آلية ثابتة كانقباض حدقة العين وضيق فتحتها بازدياد الضوء الواقع عليها ، واتساعها بقلتـــه ، وكالسعال والعطش وغيرها •

أما الحالة الثالثة من الأفعال فهى تلك التى يأتيها الفرد ويكون لها علاقة بالحياة النفسية الشعورية والعقلية والارادية ، وتهـدف الى غرض معين ، وغاية محـــددة ، وهذه الأغراض والأهداف الموجودة فى عقل الكائن البشرى والذى يرمى الى تحقيقها تعطى أفعاله التلقائية هذه صفة هامة ، وقيمة بارزة الى حـــد أنها تصير عنوانا خاصا ومميزا يطلق على السلوك الانسانى ، فلا تطلق كلمة سلوك عند علماء النفس المحدثين الا على هـــذا النوع من الأفعال ويسمونها بالسلوك العقلى ، ويخرجون من حســابهم الأفعال العشوائية والمنعكســة ، ويركزون اهتمامهم الكلى على السلوك العقلى ، ويبذلون قصارى جهدهم لتفسيره وتحليله ، ومعرفة أسبابه الغرائزية أو البيئية (١) •

وذلك بخلاف المنهاج القرآنى فانه يخاطب الانسان ويثير فطرته ، ويحرك ادراكه مهتما فيـــه بالجانب السلوكى الواعى والشعورى ،

---

(١) د/ عبد العـــزيز القوصى : أسس الصحة النفسية ٦٧ مكتبـــة النهضة المصرية ط الخامسة ١٩٧٥.

ومركزا بصورة شديدة على تلك الأفعال التلقائية ذات الغايات والأهداف ، والنابعة من ادراك مميز ومختار ، ومع ذلك فهو لا يهمل الأفعال العشوائية أو المنعكسة بل يضع لهـا أحكاما تخص كثيرا منها ، فحركة الرجل ومدها تجاه القبلة فى المسجد ليست من الآداب الاسلامية ، والبصاق تجاه القبلة وفى المسجد عامة منهى عنه فى السنة، والتثاؤب فى الصلاة مكروه ما لم يغلق الانسان فاه ، ومع العطاس تحميد من العاطس وتشميت له من المستمع ، وهكذا يتناول المنهاج القرآنى بسعته الأفعال السلوكية الواعية ويلفت النظر الى دوافعها النفسية أو البيئية ، ولا يغفل أيضا بقية الأفعال التى لا تدخل فى دائرة الشعور الضابط ، بل يتناول كثيرا منها بالتحكم والتشريع ، وان لم يعر أسبابها التفاتا يذكر •

ومع اعترافنا باهتمام المنهج القرآنى بالحالات السلوكية الثلاث الا أننا فى هذا الفصل سنركز على السلوك الادراكى الواعى ، وهل ينشأ من جبلية مركوزة فى الانسان ؟ واذا كان كذلك فما حال تلك الجبلية الفطرية من الصفاء أو التكدير ؟ ومن أين يأتيها الكدر ؟ وهل يمكننا أن نثير حالة الفطرة الصافية ؟

منشأ الأفعال السلوكية

هناك صراع مرير دار حول تفسير الظواهر النفسية وما ينشأ عنها من سلوك ، وكل فريق يتمسك بوجهة نظره ، ويدافع عنها بالبراهين النظرية أو العملية التجريبية والميدانية ، وعلى حلبة هذا الصراع يقف الفلاسفة وبعض علماء النفس خاصة « فرويد ، وأدلر ، وماكدوجل » فى ركن عتيق يصرون على أن الانسان يحمل قوى داخلية تبعث على الفعل ، وتث عليه ، ويطلقون عليها ألفاظا معينة مثل : الغريزة ، والاستعداد ، والدوافع ، ولأنها طبيعية ونابعة من داخل الانسان ذاته فيعلنون عنها تحت اسم « الدوافع الفطرية » ويختلفون فى تحديدها

عددا ومسمى ، فلا يميـل « فرويد » الى الكثرة العددية ، بل يعتبر غريزة الجنس هى الأم ، وهى المؤثر الفعـال الذى يتحكم فى بقيـة الاستعدادات •

ويكتشف « ماكدوجل » عددا من الغرائز ، يحددها فى عام ١٩١٠ باحـدى عشرة غريزة ، ثم زادها فى عام ١٩٢٣ الى أربع عشرة هى : الوالدية ، المقاتلة ، الاستطلاع ، الخلاص ، البحث عن الطعام ، النفور ، الاستغاثة ، الجنس ، الخنوع ، التسلط ، التملك ، الحل والتركيب ، الغريزة الاجتماعية ، الضحك ، ثم أضاف فى أخريات حياته قائمة أخرى تضم أربع غرائز : الراحة ، النوم ، التنقل ، ومجموعة بسيطة عن تلك ، وقـد وضع ثبت لمـا أطلق عليه فى علم النفس غرائز فوجدانه يصـل الى ١٤٠٤٦ نوعا من النشاط الانسانى ، وكلها خاضعة لمبدأ الفطرية والجبلية (٢) •

وبناء على فكرة الاستعداد فكل نشاط يقوم به الانسان له أصل نفسى ، ودافع ذاتى ، وهذا الأصل أو الدافع يوجه صاحبه نحو الفعل لاشباع حاجيات الذات المعرفية أو البدنيـة ، والمجال الحيوى الذى يكون مسرحا للأفعال الانسانية هوالكون باعتباره مقرا للحياة ومستودعا للمطالب البشرية •

والعلاقات التى تنشـأ بيننا وبين الكون هى نتيجة تلك الدوافع التى تحفزنا على البحث عن مصادر لاشباع مطالبنا ، وبالطبع لا نجـد أمامنا الا العالم فنضطر الى التعامل معه ، وعقد الصلات المستمرة بيننا وبينه ، وبهذا يحيا الانسان فى دأب للحفاظ على تلك العلاقات وتنميتها وتعميقها •

---

(٢) د/ محمد عماد الدين اسماعيل : المنهج العلمى وتفسير السلوك ١٠٥ ، النهضة المصرية ١٩٧٨ ، وانظر د/ عبد الحميد محمد الهاشـمى : على النفس التكوينى : اسسه وتطبيقه : ٥٢ ، ٥٩ •

وتقودنا التطورات الهائلة التى خطا اليها الانسان وما يزال يخطوها على أنه — فى ضوء نظرية الغرائز — يحوى كتلة كبيرة من الاستعدادات ، تتفق بين الحين والحين ، وتتولد مع التطور ، وكلما قفز الانسان من طور الىط ور استخرج من استعداداته الكامنة طاقات جديدة ، ويسحب الكائن البشرى من رصيده الهائل ما يلائم الظروف المتجددة ، وطبيعته مستعدة لكافة الاحتمالات التى تلقى عليها أو تحيط بها .

وعلى الرغم من أن تلك النظرية لاقت من المعارضة والتنفيذ ما لاقت الا أنها على حد تعبير الدكتور القوصى ما زالت أكثر الآراء شيوعا وأقواها الى الآن ، وأنصارها لا ينكرون التأثير الاجتماعى أو البيئى على السلوك العقلى ، ويسمونه بالدافع المكتسب فى مقابل الدوافع الفطرية المشار الليها ، فهناك اذن مجالان :

أحدهما داخل الفرد ، والثانى خارجه ، والمجالان يتفاعلان ، وهذا التفاعل الواقع بين المجالين والمنتمى أكثر للفرد هو السلوك (٣) والمجال الداخلى يولد مع الانسان ، وترثه الأفراد ، والخارجى يكتسبه الفرد من التفاعل بينه وبين البيئة المادية والثقافية ، وفى كثير من الأحيان يصعب الفصل بين المجالين لتحديد أيهما صاحب التأثير على السلوك ، ولكن نصل الى هذا التحديد فيمكن أن نستخدم أحد طريقين :

اما أن نعمد الى اعتبار الظروف البيئية متساوية ما أمكن ، فتكون الفروق الناتجة بين الأفراد فى مظاهر الحياة راجعة الى الوراثة ، واما أن نساوى بين العوامل الوراثية فتكون الفروق حينئذ عائدة الى اختلاف البيئات .

---

(٣) القوصى: اسس الصحة النفسية ٦٠–٦١ ، وانظر د/ الهاشمى، علم النفس التكوينى ٦١ — ٦٢

وعلى كل فلهـذه النظرية أعداؤها من الاجتماعيين الذين ينكرون بشدة جميع الموروثات والاستعدادات الفطرية ، ويستمسكون بالظروف المحيطة والبيئية وحدها في تفسير السلوك وأسـبابه والتنبؤ بحدوثه والتحكم فيه ، ويرفضون في الوقت ذاته النظرية الثالثة في تفسـير السلوك وهى التى ترجع النشاط الانسانى الى أسباب جسمية داخلية ، أو الى عمليات فسيولوجية (٤) •

وبهذا العرض يتضح لدينـا أنه توجد ثلاث نظريات في تفسـير النشـاط البشرى هى : نظرية الدوافع الفطرية والنظرية الاجتماعية والبيئية ، والنظرية اللفسيولوجية •

وجهة النظر الاسـلامية :

واذا كنا نتناول الفطرة الانسانية بالحديث فمن اللائق أن نعرض لمـا أوجزناه خاصة وأنه في صبيحة يوم من أيام مؤتمر تربوى عقـد بكلية تربية طنطـا وقف أحد المتخصصين في علم النفس يتباهى بعلميته المـادية ويخاطب المؤتمرين قائلا : علينا أن نعرف يا سادة أنه لم يعـد لكلمة الفطرة مكان في قاموس علم النفس مشـيرا بذلك الى اللنظرية البيئية أو الفسيولوجية ، ولقـد مر على هذا المؤتمر عند كتابة هـذه السطور ما يربو على ست سنوات ، ولمـا حانت المناسبة للحديث عن الفطرة واثارتها في المنهج الاسلامى تذكرت ما قاله أمام الجميع هـذا المستغرب بفكره فأردت أن أنظر في علمهم وهل صحيح ما يقال من أن الفطرة والاستعدادات اختفت وحلت محلها نظريات أخرى أو أن الأمر ليس كذلك ، وأن تلك النظرية ما زالت تحظى بالتأييد ؟

ولقـد وجدنا الأمر كما رأينا ، ولمسنا أن الفطرة ما زالت هى النظرية السائدة وان زاحمتها نظريات أخرى ، وأحب أن أسجل هنا أن

---

(٤) انظـر د/ محمد عمـاد الدين : المنهج العلمى في تفسير السلوك ٨٩ — ٢٣٤.

النشاط الانسانى حسب التصور الدينى ، وتصور المذاهب الفلسفية المثالية والروحية سيظل محتفظا بفكرة الدوافع الذاتية فى تفسيره ، وذلك لأن الدين والفلسفات المثالية تنظر الى الانسان على أنه كائن يحوى طبيعتين : مادية وروحية ، وتلك هى نظرتها الى الكون كله وترى أن الطبيعة الروحية أسبق وآكد عند الانسان والكائنات الأخرى ، وما دام الأمر كذلك فان نظرية الاستعدادات تظل محتفظة بقيمتها لدى هؤلاء جميعا هـذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى فان النظرة العميقة للعقل الانسانى الواعى والعاقل تدرك أن ازاحة الدوافع الفطرية والاستعدادات الجبلية تلغى الجانب الشعورى المميز والمختار، وتسوى بينه ككائن متميز عن الكائنات الأخرى وبين غيره ، وتحيله الى قوة مادية أو حيوية غير واعية تخضع بلا وعى للظروف المحيطة به كما هو الحال عند الاجتماعيين ، أو تجعله يتصرف بطريقة ميكانيزمية آلية كما يرى أنصار المدرسة الفسنولوجية وفى كل من الحالتين هاتين يفقد الانسان أعظم مميزاته وهى الحرية والارادة المختارة الواعية ، ويصير تكليفه بمثل عليا لا تحبط أسبابها به تكليفا لا معنى له .

وأيضا فان الغاء الفطرة والقابليات المركوزة من حسابنا فى دراسة الانسان أمر لا يتفق مع طبيعة المنهج العلمى الذى يفترض فى كل ظاهرة أطرافا ضرورية : أهمها قابلية الانسان محل الظاهرة ، واستعداده للتكيف مع الظروف المحيطة به فى وقت من الأوقات أولا ، ثم الظروف الناشئة ونوعها وشدتها أو ضعفها ، وأخيرا تلك الطريقة التى تتفاعل بها الاستعدادات مع الظروف لتخرج الظاهرة النفسية ، فاذا حذفنا الفطرة والاستعدادات فما علينا بعد ذلك الا أن نجعل الانسان العاقل انسانا صناعيا ندير نحن تفاعله بأزرة صناعية نركبها فى أى جنب فيه ، وندع فيه داخليا جهازا يستقبل ويتحكم ويرسل لنا المطلوب، أو أن نفترض اذا أخذنا برأى الفسيولوجيين أنه لا يدرى عما بداخله

شيئا وهو يعمل لاخراج نشاطه ، ولا قدرة له على التعديل أو التحكم فى تصرفاته .

والأفضل أن نعترف بأن كل فريق من العلماء ينظر الى الظاهرة النفسية أو الأفعال السلوكية من منظور تخصصه فحسب ، ويحاول تعميمه فى مجال التفسير والشرح للسوك ، واذا اعترفنا بهذا لزمنا أن نوسع دائرة التفسير للافعال الانسانية الواعية فنقر بأنه يحوى استعدادات داخلية وتؤثر فيه الظروف المحيطة به من الناحية الاجتماعية ، وباعتبار أن النفس الانسانية الواعية والحاوية للقوى المتعددة ، والمتأثرة بالظروف محمولة فى بدن مادى ، وأن التفاعل بين القابلية والظروف يتم فى اطار قنوات جسمية معينة لها عملها وانفعالها، أى أن الاستعدادات والقابلية مركوزة فى الفطر الانسانية ولها نشاطها، كما أنها تتأثر بالظروف الطبيعية والثقافية المحيطة بها ، والتفاعل بين الظروف والقابلية يتم من خلال بدن له قنواته ، أو أن هذه الدوافع النفسية وحدها أو هى والظروف تؤثر فى البدن فيظهر من الآثار ما يدل على ما يجرى فى داخله ، والدوافع الفطرية وحدها أو هى مع الظروف أقوى العوامل المتحكمة فى السلوك العاقل للانسان (فالانسان لا يعيش ولا يتجاوب بجانب واحد من تكوينه الانسانى ، وانما هو وحده انسانية متكاملة فاذا قال فانما يقول بجسمه وعقله وعاطفته) وهو (أيضا يعيش مع الناس فى مجتمعاتهم بجسمه وادراكه لانفعاله) (٥) وهو ما يراه قبل ذلك الدكتور منصور فهمى . والى فكرة الدوافع الفطرية ، والتأثر بالبيئة والتربية والتعليم يأتى قوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء) وفى رواية مسلم (ما من مولود الا يولد على الفطرة ..)

---

(٥) د/ الهاشمى : علم النفس التكوينى : ٦٢ — ٦٣ د/ منصور فهمى : الانسان وصحته النفسية ٦ ، ٧

الجزء الأول من الحديث وهو (كل مولود يولد على الفطرة) يشير الى الدوافع المركوزة قبل تأثرها بالجو المحيط بها ، والجزء الثانى (فأبواه يهودانه أو ينصرانه) يفيد التأثر بالبيئة والتنشئة وحول معانى الفطرة فى اللغة ، وعندك رجال التفسير والحديث ، وما يطرأ عليها من تغيير يدور بحثنا فى هذا الفصل بتوفيق الله سبحانه •

الفطرة فى اللغــة

تدور معانى الكلمة فى اللغة حول الشق والابتداء :

أما المعانى الدائرة حول الشق فيقال القطر هو الشق ، وشيء من اللبن يحلب ساعتئذ ، وانما سمى الشيء من اللبن بالفطر لانشقاق الضرع عنه ، وفطر العنب اذا بدت رؤوسه وانشق عنها ما تحتها وفطر الشيء يفطره ويفطره شــقه فانفطر وتفطر ، ويقــال لناب البعــير اذا انشق عنه الجلد فطلع فطر فطرا وفطورا ، وسيف فطار كغراب فيه تشقق ، والأفاطر جمع أفطور بالضم وهو تشقق فى الأنف والوجه ، والكلأ المتفرق الذى يشبه الشيء المتشقق يقال له النفاطير ، ومن هــذا الاستعمال فى القرآن قوله تعالى (فارجع البصر هل ترى من فطور) (٥) **(تكاد السموات يتفطرن من فوقهن) (٦) (تكاد السموات ينفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا) (٧) •**

وهناك معان أخرى تدور حول البدء والخلق ، فيقال فطر اللــه الخلق خلقهم وبرأهم ، وفطر الأمر ابتدأه وأنشأه ، وفطر الصــائم ابتدأ الأكل بعــد أن كان ممنوعا أو غير موجود ، والفطــرة صــدقة الفطر ، والفطرة الخلقة التىخلق عليها المولود فى رحم أمه ، والفطارى الرجل الذى لا خير فيه ولا شر أى على حالة واستعداد وتهيئة وقابلية

---

(٥) الملك ٣
(٦) الشــــورى ٥
(٧) مريــم ٩٠

فحسب دون أن ينحاز الى الخير فيسلكه أو الشر فيقترفه ، والفطرة الدين ومنه قوله سبحانه (**السماء منفطر به كان وعده مفعولا**) (٨) (**الا الذى فطرنى فانه سيهدين**) (٩) (**فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا**) (١٠) (**فأن أقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم**) (١١).

دلالة الكلمة عنـــد العلماء :

لا نجـــد كلمة من الكلمات تداولتها الأذهان بالفهم ، وذهبت فى دلالتها مذاهب شتيتة مثل كلمة الفطرة ، فلو أحصينا بدقة ما قالوه فى معناها لوجدناه يربو على أربعة عشر فهما ، يقترب بعضها من الآخر ، وينفصل بعضها انفصالا بينا ، ولعل السر فى هذا التنوع الذى طرأ على معنى الكلمة هو ما نجـــده من تنوع لمعناها فى اللغة ، وما استعملت

---

(٨) المزمل ١٨

(٩) الزخـــرف ٢٧

(١٠) الشـــورى ١١

(١١) الروم ٣٠

وانظر : الأنعام ١٤ ، ٧٩ ، هود ٥١ ، يوسف ١٠١ ، ابراهيم ١٠ ، الاسراء ٥١ ، طـــه ٧٢

الأنبياء ٥٦ ، فاطـــر ١ ، يس ٢٢ ، الزمر ٤٦

وارجـــع الى :

لســـان العرب ح٢ ١١٠٨

ابن سيده المخصص ج ٤ مادة فطـــر

مختار الصحاح ٥٠٦

القاموس المحيط ح٢ ١٢٠

الابيـــارى الموسوعة القرآنية ح٣ ٢٥٣

الراغب : المفردات ٣٨٢

معجم الفاظ القرآن الكريم ح٢ ٣٣٨٠

محمد اسماعيل ابراهيم — معجم الألفـــاظ والأعلام القرآنية ٤٠٢

به فى الشرع من استعمالات متعـددة تحمل معان مختلفة ، وأيضـا ما لمسه العلماء من توجه الفطرة الانسـانية نحو معانى الخير والحق والاقرار بالألوهية ، والتمسـك بدين ما ، هـذه الدواعى اللغوية ، والشرعية ، والنفسية هى التى أثرت مفهوم الكلمة ، وأكسبتها معانى جمة ، وقذفت بها فى مفاهيم تقترب وتبتعد .

وخطتنا فى تناول هذه المعانى تعتمد على ذكر الفهوم التى تعتبر أصولا تضم فى طياتها مجموعة متشابهة من الآراء ، بحيث نكون فى النهاية قـد أتينا على المذكور فى تفسير الكلمة بلا حذف ولا سرد ممل، وفى النهاية نتحيز الى رأى معين نراه راجحا ومدعما بالحجج ، وتميل اليـه الأكثرية من العلماء ، ومن الجـدير بالذكر أن رجال التفسـير والحديث قـد أظهروا فهومهم المتعـددة حول قوله تعالى **(فطرة الله التى فطر الناس عليها)** وقوله صلى الله عليه وسلم **(كل مولود يولد** على الفطرة ...) الحديث .

أولا — هى الاسـلام

يذهب البعض الى أن الفطرة المذكورة فى القرآن والحديث يراد بها الاسلام ، وهـذا الرأى مأثور عن أبى هريرة رضى الله عنه وابن شهاب الزهرى ، والبخارى ، وقال ابن عبد البر : وهو المشهور عنـد أهل العلم بالتأويل وعامة المسـلمين ، واستدلوا على رأيهم هـذا بحديث عياض عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه قال **(انى خلقت عبادى حنفاء كلهم فاجتالتهم الشياطين عن دينهم) وفى** رواية بزيادة (حنفاء مسلمين) ، وفى حديث قال النبى صلوات اللـه عليه **(ثم أتيت باناء من خمر وأناء من لبن وأناء من عسل فأخذت اللبن فقال أى جبريل — هى الفطرة التى أنت عليها وأمتك)** وفى لفظ مسلم (اخترت الفطرة) .

ووجه الشبه بين اللبن والفطرة أنه أول شىء يدخل بطن المولود

ويشق أمعاءه ، ولا ينشأ عن تناوله مفسدة وكذلك الفطرة البشرية قبل التغير لا ينشأ عنها مفسدة .

وروى مسلم عن أنس قال (كان رسول الله يغير اذا طلع الفجر وكان يستمع الاذان فان سمع أذانا أمسك والا أغار فسمع رجلا يقول الله أكبر الله أكبر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : على الفطرة، ثم قال أشهد أن لا اله الا الله فقال رسول الله خرجت من النار فنظروا فاذا هو راعى معزى) ، وروى الدارمى فى مسنده قال (كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا أصبح قال : أصبحنا على فطرة الاسلام وكلمة الاخلاص ودين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وملة أبينا ابراهيم حنيفا مسلما) واذا أمسى قال مثل ذلك .

ويترتب على كون الفطرة بمعنى الاسلام أن الطفل يخلق سليما من الكفر ، واذا مات قبل أن يبلغ دخل الجنة سواء كان ولد المسلم أو الكافر ، ولما وصل العلماء الى هذا الحد فى تأويل الفطرة اضطر بعضهم أن يفند هذا الرأى أو يمحصه .

فذهب فريق المحصين الى أن هذا كان فى أول الاسلام ، ولقد سأل أبو عبيد محمد بن الحسين صاحب أبى حنيفة عن الفطرة المرادة فى الحديث فقال (كان هذا فى أول الاسلام قبل أن تنزل الفرائض وقبل الأمر بالجهاد) فلما فرضت الفرائض والجهاد صار حكم الطفل حكم أبويه ، وأشار محمد الى أنه لو صح موت الطفل على الاسلام بحكم أنه مات على الفطرة لجاز ألا يرثه أبواه ، والواقع أنهما يرثانه فدل على أنه لم يمت على الاسلام حقيقة ، ويضيف المفندون أنه لو كانت الفطرة بمعنى الاسلام لورثه المسلمون من ناحية كما قال محمد ولدفن فى مقابر المسلمين ، وما دام الأمر كذلك فليست الفطرة هى الاسلام المعروف لدينا .

ثانيا — الفطرة بمعنى السنة

ويتفق الخطابى والنووى فى بعض وجوه شرحه ، وابن حجر فى فتح البارى على أن المراد بالفطرة السنة ، ويستدلون بطائفة من الأحاديث التى وردت فيها كلمة الفطرة ، ويؤولونها بالسنة ، ومنها ما رواه البخارى عن البراء عن النبى صلى الله عليه وسلم قال (اذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قال : اللهم أسلمت وجهى اليك وفوضت أمرى اليك وألجأت ظهرى اليك رغبة ورهبة اليك لا ملجأ ولا منجى منك الا اليك ، اللهم آمنت بكتابك الذى أنزلت ، وبنبيك الذى أرسلت ، فان مت من ليلتك فأنت على الفطرة ، واجعلهن آخر ما تتكلم به) وروى النسائى عن أبى هريرة عن رسول الله قال (الفطرة خمس الاختتان والاستحداد ، وقص الشارب ، وتقليم الأظافر ، ونتف الابط) ولما رأى حذيفة رجلا يطفف صلاته سأله منذ كم تصلى هذه الصلاة ؟ فأجابه قائلا :منذ أربعين فقال حذيفة (ما صليت منذ أربعين سنة ولو مت وأنت تصلى هذه الصلاة لمت على غير فطرة محمد صلى الله عليه وسلم) ولقد فسروا الفطرة فى الأحاديث المذكورة بالسنة .

وقريب من هذا الفهم ما روى عن معاذ عندما سأله عمر : ما قوام هذه الأمة قال : (ثلاث وهن المنجيات الاخلاص وهو الفطرة، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، والصلاة وهى الملة ، والطاعة وهى العصمة) ، فقال عمر صدقت يا معاذ ، وذلك لأن من أهم السنن الاخلاص .

ثالثا — الفطرة ما طبع عليه من السعادة أو الشقاوة :

روى عن ابن المبارك والامام أحمد فى أحد أقواله أن الفطرة تعنى ما يولد عليه الطفل طبقا لما سيصير اليه من سعادة أو شقاوة ، فمن علم الله تعالى أنه يصير مسلما ولد على فطرة الاسلام ، ومن علم

أنه يصير كافرا ولد على الكفر ، أو يولد الطفل سليما على الفطرة ، وقد علم الله أنه سيكفر فلا بد أن يصير الى ما سبق له في أم الكتاب ، كما تولد البهيمة جمعاء ، وقد علم أنها ستجدع ، ويستدلون فى ذلك بقول النبى صلى الله عليه وسلم فى الغلام الذى قتله الخضر (طبع يوم طبع كافرا ، ولو ترك لأرهق أبويه طغيانا وكفرا ، ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن يموت من أطفال المشركين وهو صغير قال (الله أعلم بما كانوا عاملين) أى يعلم من يؤمن ومن يكفر لو بلغوا » وقريب من هذا الفهم ما يذهب اليه بعضهم من أن الفطرة الخلقة ، أى يولد الطفل سالما لا يعرف كفرا ولا ايمانا ثم يعتقد اذا بلغ التكليف ، ورجحه ابن عبد البر أيضا وقال : انه يطابق التمثيل بالبهيمة .

وقد رد هذا الرأى بشطريه لأنه لو كان كذلك لم يقتصر فى أحوال التبديل على ملل الكفر دون ملة الاسلام ، ولم يكن لاستشهاد أبى هريرة بالآية معنى فى الدلالة على أن الفطرة الاسلام .

رابعا : الفطرة استعداد لمعرفة الحق والدين :

يرفض القائلون بهذا الرأى أن تكون الفطرة اسلاما حقيقيا ، أو سنة ، أو حالة تقبل السعادة عند الاختيار والشقاء عند الميل اليه ، ويعترفون أن الفطرة حالة من الاستعداد والقبول والتمكن فطر الله الخلق عليها وأروع فيها من معرفة الحق وحبه ، والتمييز بين الخير والشر ، والنافع والضار ، والمحمود والمذموم ما يجعلها ميالة الى الأحسن عند سلامة الظروف ، والبعد عن التأثير عليها بعكس ما غرس الله فيها من جبلية ، ولو تركت الفطر على ما هى عليه لاستمرت على لزومها ، ولم يفارقها حب الحقيقة ومعرفة أصل الأشياء .

وتأهيل النفوس والقلوب لقبول الحق حالة تشبه قابلية العين للرؤية وابصار المرئيات ، وقابلية الأذن للسمع والمسموعات ، وهذه القابلية للحق والتدين ليست متساوية مع ضدها ولكنها جياشة نحو

معرفة الله والاقرار به ، واللتصديق بربوبيته ، بحيث لو خلى بينها وبين ميولهـا لاختارت الطريق الأقوم من التدين ومعرفة الصانع ، ولوصلت الى أدلة على وجوده تقيمها بالجبلية والسليقة المودعة فيها ، ويرون أن المشاهد من جميع الأطفال سلامة الطبع ، وسلاسة الانقياد ليس منهم فى ذلك عسر كما فى الكبار ، وهؤلاء الأطفـال يتمكنون من قبول الحق وادراكه ويطبعون عليه مثلما تجـد الأخرس يدرك أمر المعـاد ادراكا بينا ، وله فيه ملكة راسخة على حـد تعبير البقاعى ، ويستدلون مما ورد فى الحديث من قول الرسول صلى الله عليه وسلم (كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء) وقد شبه الفطرة بها ، ثم يقول صلوات الله عليه (هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها) أى أن الجدع والشق والوسم أمور طرأت بفعل من يملك البهيمة ، وكذلك التغير فى الطبائع والأفكار والملكات والأخلاق أحوال تطرأ بفعل من يعلم الانسان ويحوطه فى نشأته •

ومن المناسب هنا أن نعلم بأن الله سبحانه يخلق كل كائن على حالة من الاستعداد تتناسب مع المهمة المنوطة به ، وكل واحد من الموجودات يقوم بوظيفته طبقا لمـا أودع فيه ، ونحن لا نتوقع ظاهرة كونية من انسان ولا ظاهرة نفسية من جماد أو نبات ، ولا نرى سقوط الأمطار من الجبال ، ولا تستخرج المعادن من السحب وهكذا ، الأمر الذى يجعلنا نتأكد من وجود تخصصات فى الظواهر الكونية والنفسـية ، ونتيقن ضرورة من تحديد الأهداف المسـبقة للأفعال الصـادرة من الانسان أو الحادثة فى الكون •

وما دام الحال على هذا النحو فان طبائع الموجودات لا بد أن تخلق على نحو موافق لمهامها ورسالتها ووظيفتها ، والانسان بما هـو انسان مخلوق للعبادة والتقديس والتدين فمن الحكمة أن تخلق طبيعته مستعدة لقبول تلك الغاية ، وأن يولد مفطورا على مهمته الرئيسـية ، وأن يحمل نزوعا قويا نحو تلك الغاية التى تمثل العلة الرئيسـية من

وجوده ، وأن يحدوه شوق منبعث من داخله ، ومتجه صوب رسالته ومعبوده ، ولو طبع على عكس ذلك لكان من المستحيل قبوله للحق ، ولكان تكليفه بأمر لم يتهيـأ له عبثا وظلما ، وحاش جناب الحق أن يفعل ذلك .

وحتى حالة الطبع الفطرى على قبول الحق لا ينبغى أن تفهم على أنها الزام من الحق بصورة انسانية محـددة لا يحيد عنها الانسان الى غيرها ، ولكنها مجرد استعداد ودافع وتهيئـة ، والا لو كانت الزاما وطبعا كليا ما قبلت طبائعنا غير الايمان من العصيان أو الفسق أو الكفر، ولجاز أن نصـير بحالة الطبع الالزامى شـبيها مكررا للملائكة الذين طبعوا بالجبر على الطـاعة .

وكل ما فى الأمر أننا قـد خلقنا بطبيعة وفطرة صـالحة للتدين ومعرفة الله ، والاقرار بوحدانيته ، ومن الممكن أن نسـتمر على ذلك لو لم تغير طبائعنا ، ولكنها قابلة للتغيير بفعل يخرج عن ذواتها ، وبالبيئة المحيطة بها وبالتكيف مع الجو السائد من حولها .

والطبع على صـلاحية المعرفة الالهية ، والاقبـال على التدين والشعور بنزوع داخلى يحدونا الى صورة من التقديس أيا كان شكلها ، وقبول الخلقة البشرية للتغير بعوامل خارجية ، هذان الأمران ضروريان لكى يتجه الانسان بدوافع فطرية نحو الطاعة ، ولكى يتكيف مع البيئـة المحيطة به فيعمر الكون ، وان كان التكيف لا يتنافى مع الاستعداد لقبول الحق بل يتلاءم معه تمام الملاءمة .

ويمكن أن ترد حالة الفطرة فى قبولها للحق ، واستعدادها الوفـير لتلقيه ، ونزوعها نحو التدين بصفة عامة ، أو بصفة خاصة عندما تتوجه الى اللـه وحده ، والى دينه الحنيف ، ترد الى النفحة الربانية التى تلقاها الانسان من ربه ، وبحالة التعليم التى نالهـا منه سبحانه ،

وبالحديث الالهى أثناء أخذ العهد على بنى آدم وهم فى ظهر أبيهم (١٣) على حد ما يذهب اليه بعض المفسرين ، وأخير فلم لا تكون الفطرة بهذا المعنى هى الأنا الأعلى الذى يصادم « الهو بمعنى الغرائز والشهوات » كما يذهب كثير من علماء لنفس ؟

الفطـرة صبغة تدين وراثيـة :

فسر ابن جرير الطبرى الفطرة بأنها الصبغة ، وأشار القرآن الى الصبغة فى قوله تعالى : **(فان آمنوا بمثل ما أمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم فى شقاق فسيكفيكهم اللـه وهو السميع العليم ، صبغة اللـه ومن أحسن من اللـه صبغة ونحن له عابدون)** (١٤) ، فقد سمى الايمان صبغة .

قال ابن عطية (صبغة اللـه) شريعته وسنته وفطرته ، وقيل الصبغة الدين ، وسمى الدين صبغة استعارة من حيث تظهر أعماله وسمته على المتدين كما يظهر الصبغ فى الثوب وغيره ، ويرى الزمخشرى أن الصبغة الايمانية تطهر النفوس ، وقد صبغ اللـه عليها النفوس صبغة لا مثل صبغة البشر ، فلا صبغة أحسن من صبغته ، وقيل الصبغة الاسلام ، أو الدين أو الفطرة (١٥) .

وبهذا يكون اللـه سبحانه وتعالى قد فطرنا فى أصل الخلقة على التمكن من معرفته ، واللجوء اليـه ، وأضاف الى ذلك صبغة النفوس

---

(١٣) انظر كتابنا : الدعوة الى الله ١٩١ — ٢١٨ الطبعة المصورة .

(١٤) البقـرة ١٣٧ — ١٣٨

(١٥) ابن عطيـة : المحرر الوجيز ح١ ٥٠٥ ، وتفسير الكشاف ح ١ ٣١٥ — ٣١٦ ، وتفسير أبى السعود ح ١ ٢٧٠ ٢٧١ ، وفتح القدير ح ١ ١٤٨

على الايمـــان والاقرار زيادة تأكيد ، وتقوية للطبع ، وكل من حافظ على الجبلة والصبغة ولم يغيرهما بقى على توحيده ومعرفته •

ونظرا لأن النفوس خلقت من أمره ، والطباع بقدرته ، والأرواح من نفخته فانها تكون مجبولة على حب من أحسن اليها ، وميالة الى معرفة من أبدعها بحكم تأثير الابداع والمبدع فى الانسان المبدع ، ضرورة سريان تأثير الفـــاعل فى المفعول ، والمؤثر الحكيم فى الصنعة القابلة العاقلة ، وكما قبلت الخلقة البشرية من الخالق الحكيم طبيعة التعقل والعلم فقد قبلت الاستعداد لمعرفته ، والتمكن من ادراكه ، والانطباع على الخضوع له • •

يضاف الى ذلك ما يراه بعض المفسرين فى تأويل قوله تعـــالى : **(واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين)** (١٦) من أن الميثاق يعنى خطاب مباشر بالمقـــال للذرية وهى ما زالت فى ظهر أبيها آدم بكيفيـــة يعلمها اللـــه سبحانه ، وبهـــذا الخطاب أودع فى خلايا البشر وطبائعهم توحيده والدينونة له ، وحتى على رأى من يقول ان الخطاب طبع بالحـــال ، فان فطر البشرية قد استقرت على قبول الحق وانطبعت به ، وأشربت من خلاله الميل نحو التدين والخضوع للعظيم جل جلاله ، وعلى حد تعبير سيد قطب فانه على (أى من الحالين يخلص لنا أن هناك عهدا من اللـــه على فطـــرة البشر أن توحده ، وأن حقيقة التوحيد مركوزة فى هذه الفطرة ، يخرج بهـــا كل مولود الى الوجود ، فلا يميل عنها الا أن يفسد فطرته عامل خارجى عنها) (١٧) •

---

(١٦) الأعراف ١٧٢

(١٧) فى ظلال القـــرآن ح٣ ١٩١ — ١٣٩٤

وبهـذا تكون الفطر قد طبعت على التدين والتوحيـد ، ويكون الخطاب الالهى بالمقال أو بالحال قد صبغها على الايمان به سبحانه ، وتسرى تلك الفطـرة ، وتنتقل الصبغة من فرد الى فرد عن طـريق الوراثة ، فكما ترث الفروع كثيرا من صفات الأصول فى الخلقة والذكاء والغباوة كذلك ترث الميل والاستعداد لقبول الحق والتمييز بين الطيب والخبيث ، والتهيئة لمعرفة اللـه وتوحيده ، وفى هذا الصدد يقـرر الدكتور عبد العزيز القوصى أن علماء الحياة أثبتوا أن (بالخلية خيوطا فى شكل العصى اسمها الصبغيات ، أو الكروموسومات ، وأن هـذه الخيوط يمكن تقسيمها الى مناطق متعددة ، وافترضوا على ضـوء الحقائق العلمية أن على كل منطقة منها ما يسمى بالجينات ، وأثبت علماء الوراثة أن هذه الجينات هى عوامل الاستعدادات الوراثية)(١٨)، فما الذى يصرفنـا اذن عن القـول بأن التدين ومعرفة اللـه يورث ضـمن الموروثات ؟

ثم أليس الاسلام قد سبق العلم فى الاشارة الى فكرة الوراثة ، واستعمال المصطلح الذى يستعمله علماء النفس ، وهو كلمة الصبغة ، وسبق علماء الاجتماع فى تأثير البيئة وتغيير الاستعدادات الفطـرية لتتغلب عليها دوافع بيئية مكتسبة ؟ ؟ لقد سبق ، وسيظل يحوى من اليقين العلمى ما يكشف عنه العلم بين الحين والحين دون ما نهـاية للمعنى القرآنى فى مقابل النهاية والنسبية العلمية .

أعترافات متعددة بفطرية التدين :

لست من الذين يغرمون بدس المعارف التى يتوصل اليها الانسان فى ثنايا الحقائق الدينية المسلم بها لدى أربابها ومعتنقيها ، ولا من الذين يتباهون بجذب تلك المعارف من هنا وهنالك تحت أى تبرير ،

---

(١٨) اسس الصـحة النفسية: ١٥

ولكنى مغرم بالتمسك الأكيد بأهداب الدين وحقائقه ومنجهه ، ومولع في الوقت ذاته بأن نفتش جيدا بين النصوص الاسلامية فسوف نجد ردا على كل زعم ، وحلا لكل معضلة ، ولابد أن نستغرق مع النص ، وأن يستحوذ على تفكيرنا كى نستخرج منه المطلوب ، فان النظر العابر للنصوص سوف لا نكتشف معه جواهر النص وخفاياه .

ومع ميلى الشديد الى تلك الطريقة الدينية المستقلة لكنى أرانى أنا وغيرى مضطرين أحيانا الى أن نعرج على بعض الآراء العلمية المرتبطة بظاهرة دينية لا لتشد أزر النص أو تؤيده ، فهو بذاته أصلب عودا من أن يستند على قشة من فكر البشر ، ولكن لنثبت بطلان بعض الآراء العلمية بما يناقضها في نفس المجال ، وبنفس المنهج العلمى ذاته ، والقضايا العلمية اذا تناقضت تأرجحت وتساقطت ، وآذان البشر تميل حينا الى سماع آراء المعارضين لها اذا كان القائلون بها ينتمون الى طريقة الطرف الأول المستمع . وبالتالى فان سوق اعترافات العلماء بفطرية التدين ، وهى الفكرة التى معنا أو غيرها مما يتفق مع الحقائق الدينية لا أعتبره تدعيما لوجهة النظر الاسلامية بقدر مايكون اعترافا بتلك الحقيقة التى أقرها الاسلام .

وبالنسبة لما يخص موضوعنا فان الدراسات الدينية الحديثة المستمرة تثبت عدم انفراد العلمانية بالمجال العلمى وعدم سيطرتها سيطرة كاملة على عقول البشر الى حد أن الفكرة الدينية قد صارت منزوية فى ركن الاهمال أو مجرد الذكرى ، وبالعكس فحينما ذال الدين من مفكرى العلمانية قسطا كبيرا من الهدم حظى بتقدير عظيم لدى فريق آخر من النفسيين والاجتماعيين والعلميين والفلاسفة ، وبحث كل فريق من العلماء فى مجال تخصصه عن جذور الفكرة الدينية وأصولها النفسية أوالاجتماعية أوالأخلاقية أو الشعورية الفطرية أو الميتافيزيقية، واستخرجوا أدلة قوية يقاومون بها طغيان العلم وأنصاره ، واتسم الباحثون فى ميدان الدراسات الدينية بالدقة والاخلاص للفكرة الدينية

بصفة عامة ، ولقد دفعتهم فطرهم ، وأزكت حماسهم الى هذا اللون من الدراسة بجانب احساسهم بخطر الاعتماد على العلم وحده ، وما يحمل من تدمير للانسان يفوق أضعاف أضعاف ما يقدمه له من منفعة أو خدمة دنيـــوية .

وبجانب هــذا ، أو انبثاقا منه فان الدراسات الدينية الحديثــة التى أجراها العلماء قد أثبتت أن التدين صفة عامة لجميع البشر ، ولم تخل أمة قديما وحديثا من تلك النزعة بمظاهرها التنسكية والكهنوتية ، وأن فكرة اللــه فكرة فطرية وجدت فى عقل الانسان ، وأوجدها فينــا موجد أعلى وهو اللــه سبحانه ، ومن أشهر الذين اعتنقوا هذا الرأى العلامة الاسكتلندى « أندريه لنج » وقد قرر على ضوء تلك الفكرة العامة أن كل انسان يعمل فى نفسه « فكرة العلية » وهذه بدورها كافية لتكوين عقيدة دين بصانع للكون ، لأن كل صنعة لابد لهــا من صانع ، ولقد استقر الشــعور بوجود ذات عليا لدى القــدماء والمتوحشين فاعتقدوه فى أب أو سيد أو خالق ، ويرى (لنج) أن هذا الاعتقاد كان فى حالة من الطهــر والنقــاء عند البدائيين ثم تلاه ظهــور العنصر الأســطورى .

وممن زكى نظرية (لنج) هــذه فى أبحاثه الأستاذ (ليوبولد فون شرودر) الأستاذ بجامعة فيينا عندما درس الهنود الأوربيين ، وتوصل الى وجود فكرة الاله الأســمى ، ولكنه توقف فى القطع بأسبقية هــذا الاله الأسمى عن عبادة الطبيعة والموتى أو بتأخره ، ورأى (أن الأمر يحتاج الى مزيد بحث) ، ثم نشر الدكتور (كروبر) أبحاثا عن هنود كاليفورنيا أثبت فيها أنه عثر على الــه سام ، وجزم بأن هؤلاء الهنود عرفوا الخالق بواســطة موجود سام ، فما توقف فيه (شرودر) من أسبقية الاله الأسمى قطع به (لنج) و (كروبر) [١٩] ، وهو ما قررناه من أسبقية التوحيد على التعدد فى كتابنا الحكمة العربية .

---

(١٩) عفيفى عبد الفتاح طبارة : روح الدين الاســلامى ٨٠ — ٨١

كما أثبته (شمث) عالم الأجناس اذ قرر أن أقزام أفريقيا وهم أقدم الأجناس البشرية يؤمنون بوجود اله سام ، وأن كثيرا من القبائل الزنجية هـذه ، ومن القبائل الاسترالية الجنوبية الشرقية والقبـائل الهندية الأمريكية الشمالية عرفوا فكرة الوحدانية ، ولم ينتقلوا الى التعدد الا بعد أطوار من الثقافة ، وبعد أن تعقد الفكر الدينى وتشابك، وأيضا فان (رينان) قد ادعى أن الساميين موحدون بطبعهم ، وقـد بنى نظريته هذه على دراسته لآلهتهم ، تلك الآلهـة التى ترجع الى اله واحد هو (ايل) ثم حرف هـذا الاسم الى (يهو) أو (يهوه) و (ألوهيم) عند العبرانيين ، و (اللات) و (اللـه) و (الـه) عند العرب ، والأصل عند الجميع هو (ايل) (٢٠) •

وفى المجال العلمى الطبيعى يذكر الدكتور (بول كليرانس ابرسولد) أستاذ الطبيعة الحيوية : أن (الناس على اختلاف أديانهم وأجناسهم وأوطانهم قد عرفوا منذ القدم ، وبصورة تكاد تكون عادة مبلغ قصور الانسان عن ادراك كنه هـذا الكون المتسع ، كما عجزوا عن ادراك سر الحياة وطبيعتها فى هذا الوجود •

وقد لمس الناس عامة — سواء بطريقة فلسفية عقلية أو روحية — أن هناك قوة فكرية هائلة ، ونظاما معجزا فى هذا الكون يفوق ما يمكن تفسيره على أساس المصادفة أو الحوادث العشوائية التى تظهر أحيانا بين الأشياء غير الحية التى تتحرك وتسير على غير هدى •

ولا شك أن اتجاه الانسان وتطلعه الى البحث عن عقل أكبر من عقله ، وتدبير أحكم من تدبيره وأوسع لكى يستعين به على تفسـير هـذا الكون يعد فى ذاته دليـلا على وجود قوة أكبر وتدبير أعظم ، هى قول اللـه وتدبيره) ثم يقول :

---

(٢٠) نفسه : ٨١

(وقد لا يستطيع الانسان أن يسلم بوجود الخالق تسليما تاما على أساس الأدلة العلمية المادية وحدها ولكننا نصل الى الايمان الكامل بالله عندما نمزج بين الأدلة العلمية والأدلة الروحية ، أى عندما ندمج معلوماتنا عن هذا الكون المتسع الى أقصى حدود الاتساع المعقد الى أقصى حدود التعقيد مع احساسنا الداخلى والاستجابة الى نداء العاطفة والروح الذى ينبعث من أعماق نفوسنا ، ولو ذهبنا نحصى الأسباب والدوافع الداخلية التى تدعو ملايين الأذكياء من البشر الى الايمان بالله لوجدناها متنوعة لا يحصيها حصر ولا عد ، ولكنها قوية فى دلالتها على وجوده تعالى مؤدية الى الايمان به) (٢١) .

وفى المجال الفلسفى يطرح (بليز بسكال ١٦٢٣ — ١٦٦٢ م) الميتافيزيقا فى الاستدلال الدينى وينادى بالرجوع الى النفس والنظر فى حال الانسان كشفا لما فى الفطر من ميل دينى عميق ، ويرى (باروخ اسبينوزا ١٦٣٢ — ١٦٧٧ م) أن جوهر الشريعة الالهية يدركه الانسان فى نفسه فهى مشتركة بين جميع الناس ، وموضوع الدين عند (هيجل ١٧٧٠ — ١٨٣١ م) هو المثل الأعلى أو اللامتناهى مدركا فى الباطن ، والاحساس الدينى احساس أصيل يجده الانسان غير المتدين كما يجده أعلى الناس تفكيرا وأعظمهم حدسا ، حسبما يرى (ماكس نوردوه) (٢٢) .

ويقرر (هكنج المولود ١٨٣٢ م) أن (النفوس البشرية تعلم أنها ليست فى العالم وحدها وهذا أول علم ذوقى وضرورى نعلمه) وأن (الحياة الانسانية تواقة بطبيعتها الى معرفة — تلك الحقيقة — والحقيقة عالم فيه من ضروب الكمال ما لا حد له) ، ويبنى (توماس

---

(٢١) الله يتجلى فى عصر العلم : ٣٥ — ٣٦

(٢٢) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ٩٣ ، ١١٦ ، ٢٨٤ ، د/ محمد عبد الله دراز : الدين ٧٩ ، ٩٧ .

هل جرين ١٨٣٦ — ١٨٨٢ م) فلسفته على أساس من الشعور الانسانى العميق ، وكل فعل أو نشاط انسانى صادر من هـذا الشعور ، ويرفض تماما أن يكون هـذا الشعور وليد الطبيعة ، ولكنه جزء (من ذلك العقل الالهى) على حد تعبيره هو •

ويعتبر الذات الانسـانية باحساسها ، وبكونها ابداعا من الذات الالهية مصدرا ومنبعا لنزوعها الدينى ، فهذا التقدير الالهى (فى الانسان هو أصل الدين والأخلاق) والكائن البشرى بحكم أنه مخلوق ذو ارادة يعتبر (مظهرا من مظاهر الارادة المطلقة الالهية ، أو هو صوت يعبر عن معنى من معـانى هـذه الارادة) على حـد ما جـاء عن رويس ١٨٥٥ — ١٩١٦ م) الفيلسـوف الأمريكى ، وأما (ادوارد تيـلور الانجليزى المولود ١٨٦٩) فيقرر أن الله المسـتحق للعبادة وحـده (لم يدع قلوبنـا غفلا من آية تدل عليه من أجل ذلك نشعر بالافتقار الى) ذاته ، وهـذا الشعور دليل على وجود متعلقه (٢٣) •

وأخيرا فقـد جاء فى معجم (لاروس) ما نصه (ان الغـريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية ، وأقربها الى الحيـاة الحيوانية ••• وان الاهتمام بالمعنى الالهى ، وبما فوق الطبيعة هو احدى النزعات العالمية الخالدة للانسانية) (٢٤) •

هذه هى الاعترافات التى وردت على لسان بعض علماء الأجناس والاجتماع والنفس والطبيعة والحياة وبعض الفلاسفة والأخلاقيين ، وكلها تؤكد أصالة الدافع الشـعورى نحو التدين ، وتظهر بجلاء ميله الانسان الى الذات الالهية الواحدة ، وأن نزعة التوحيد قـد سبقته

---

(٢٣) ا — وولف فلسفة المحدثين والمعاصرين ترجمة أبو الـ... دار المعـارف ١٩٣٧ ص : ١٠٢ ، ٥٨ — ٦٠ ، ٩٦ — ٩٧ ، هـل جرين فيلسوف انجليزى •

(٢٤) دكتور دراز : الدين : ٨٤ •

التعدد ، وكل هـذه التقريرات اعتراف بحقيقة أكدها القرآن والسنة، وسبق علماء الاسلام هؤلاء جميعا فى بيان هذا الشعور الفطرى وأصالته ، واستفاضوا فيه كما رأينا ، وطبقا لما قرره الدين الحنيف فاذا ما جاء القرآن ليثير هذا الاحساس الجبلى نحو الألوهية الواحدة، وليزيل عنه غشاوة التقليد وحجاب البيئة والثقافة المحيطة فانه منطق يتمشى مع الطبيعة الانسانية فى تكوينها ، تلك الطبيعة التى ترسخ فيها الاستعداد والقبول لفكرة التدين ، وتصدر فى معظم تصرفاتها عنه ، وهى طبيعة ثابتة فى أغوار النفس البشرية وسابقة على كل علم وخبرة، أى أن الشعور الدينى ليس مكتسبا من الخبرة التى يمر بها الانسان ، ولكنه أصيل فى الفطرة قبل أن تحصل أى علم وأى خبرة ، والانسان بهـا حيوان متدين كما يقول علماء الاجتماع .

مدى الوضوح فى الدافع الدينى ؟

الدوافع الغريزية فى النفس البشرية تتكشف بوضوح من خلال احساس ظاهر متصـل بها فغريزة الجوع يحسبها الانســان بصورة واضحة جدا ، وعندما يحسها يبكى الطفل ، أو يصرخ الولد أو يهتف الكبير مناديا بالطعام ، وغريزة الدفاع يضطر اليها الانسان عند موقف معين يتهدد حياته بالخطر ، وغريزة الجنس تشعرنا بالحاجة اليه بشكل لا خفاء فيه ، فهل غريزة التدين ، أو فطرية الدافع الدينى على هـذا النحو من الوضوح الذى نجـده فى الغرائز الأخرى ؟

على ما يبدو فان الدوافع التى لها ارتباط بالبدن ، أو التى تتعامل مع مظاهر محسوسة ، ولـا أوعية بدنية أو أعضاء حسية تكون أقرب للانتقال من مكامنها النفسية الى الشعور بها والوعى بتحركاتها من تلك الدوافع التى لا ترتبط بأعضاء محسوسة ، والتى لا تتعامل عند اشباعها بظواهر حسـية أو مادية ، وذلك مثل غريزة التدين أو الدافع الدينى الذى معنا .

ان هذا الدافع كامن فى أعمـاق النفس مع غيره من الدوافع ، وليس له وعاء يتقلص للتعبير عنه كما تتقلص المعـدة مثلا للتعبير عن غريزة الجوع ، واذا كان القلب وعاء المشـاعر النبيلة ، والاحساس الدينى والتصديق العقدى فاننا لا نشعر له بحركة خاصـة تعبر عن رغبة فى موضوع معين يصدق به ، وتقودنا تلك الحركة الطارئة أوتدفعنا لاشباعها بمعبود خاص •

ولمـا كان حال الدافع الدينى على هذا النحو ، وأنه عندما يميل لا يجد عضوا محسوسا يقوم بوظيفة مستجيبا لميله ، وكذلك فانه فى دافعيته لا يتجه فى اشباعه الى ظواهر الكون ، وانما يتجه غالبا الى مطلوب مقدس ليس وجوده شبيها بهذه الحوادث وليس واحدا منها • وحتى لو تصوره الانسان واحدا من بين القوى المحسوسة فانه لا يقبله لاشباع دافعية دينه على الحالة الحسـية العادية التى يكون عليها ، وانما يرغمه الدافع على اضفاء روح القداسة والتسامى والاستعلاء على هـذا الكائن الحسى كى يرضى به الدافـع الدينى معبـودا ، أى أن الدافـع يتحـرك صـوب معبـود مقـدس ؛ فان وفـق الانسان فى الوصول الى الله مباشرة استراح الدافع وهدأ ، واذا ضل صاحبه الطريق للتعبير عن الغريزة الدينية وانتقى لهـا معبودا حسيا أرغمته تلك الفطرة على أن يجلل هذا المعبود بصفات القداسة المطلوبة كى يكون لائقا لسمو الشعور الدينى واشباعه •

ونظرا لطبيعة هذا الشعور ، وأنه معنى عميق ، وأن مطلوبه على الحقيقة ليس شبيها بهذه الموجودات وليس واحدا منها ، وليس متساويا معها فى الذاتية والصفاتية ، ونظرا لأن هـذا الشعور ليس له عضو وثيق الصلة به فى الوظيفة والتعبير فان غريزة التدين المستكنة فى النفس تكون أخفى بكثير من بقية الغرائز ذات الأعضاء المرتبطة بها ، والتى تتعامل مع الكون فى درجات الاشباع ، ويزيدها خفاء ما يعتريها من

التعكير ، وما يطرأ عليها من أطمار المؤثرات المحيطة بها ، ولنفس تلك الأسباب اعتبرها المودودى على جانب كبير من (الغموض والخفاء) ولذا يحتاج الانسان الأن يعيها ويدرك اشاراتها الى احساس بالغ النهاية فى الدقة والارهاف) (٢٥) .

ولما كانت كذلك من الخفوت والكمون تنوعت أحوال البشرية فى الشعور بها ، والاحساس بأصواتها الداخلية ، فهناك من هبط احساسه وفتر ، وهناك من تبلد وتجمد ولم يعد يستشعره فى نفسه فانقلب ماديا ، وهناك من رق حسه ، وصفت نفسه فهو يستمع اليه فى يقظته وجميع حركاته ، ويستولى الشعور الدينى على هؤلاء استيلاء باطنيا وظاهريا كما يرى (شوريه) مؤلف كبار الواصلين (٢٦) ، وأيضا فانه لما كانت طبيعة الفطرة على هذا النحو احتاجت الى من يثيرها ويحركها ويدفعها ، أى احتاجت الى الرسالات السماوية ، والى حديث الله يذكرها بسالف العهد ، وبسابق الصبغة ، ويزيل عنها ما ران عليها .

الاثارة لفطرة التدين :

ما دامت الدافعية الفطرية للتدين على هذا النحو من الخفاء فانها تحتاج الى من يحركها ، ويوقظها من ثباتها ، ويطرح عن كاهلها ركام الغفلات ، ويمهد الطريق أمامها للظهور بقوة وحماس من جديد ، واذا كانت الغرائز الأخرى تثيرها مواقف حسية من جنسها وملائمة لها فان دافعية التدين يثيرها الحديث عن الله فى ذاته وصفاته وأفعاله وإكرامه للبشر وامتننانه عليهم بشتى أنواع المنن ، ويثيرها التذكير بنسب الايجاد بين الله وخلقه ، وبين الحكيم وتلك الطبيعة البشرية المكرمة ، وعندما ترد هذه المثيرات تغلى النفس وتتحرك ، ويتبخر منها

---

(٢٥) أبو الأعلى المودودى : مفاهيم اسلامية .
(٢٦) مالك بن نبى : الظاهرة القرآنية ٨٣

علائقها الفاسدة ، وتتصفى الدوائع النقية فيبرز الدافع الفطرى الدينى ويصحو ، ويستفيق وينشط وينفعل مع الموقف المثير ويستجيب له ، فالاستثاره للدافع الدينى ضرورية للغاية ، وبمقـدار توفيقنا فى تنبيه هـذا الدافع تكون درجة الاستجابة •

والقرآن الكريم عندما يتحدث عن الفطرة فى آية الروم السابقة (**فطرت اللـه التى فطر الناس عليها**) والرسول صلى الله عليه وسلم اذ يتناولهـا بكثرة لا يهدف النص الدينى فى الكتاب أو السنة من وراء الفطرة جميع ما تحمله من دوافع حفظ البقاء أو النوع ، وانما يعنى أهم الدوافع المستقرة فى الذات البشرية ، وهو دافع التدين والميـل الى الاقرار بالصانع وعبادته وحده ، اذ هو الأصـل من وراء خلق الكائن البشرى كله •

هـذا ومن الجدير بالذكر أن مواقف الاثارة الفطرية تختلف عن مواقف الاستدلال ، فحديث الفطرة خطاب مباشر ومبين ومذكر لحقيقة طبعت عليها الفطرة ، وهو أشبه بحديث بين شخصين استوعبا حقيقة معينـة ، ثـم غفـل عنها أحدهما فقـام الآخـر يذكـره بهـا ، وبالطبـع لا يكون هـذا الآخـر فى حاجـة الى البرهنـة على الحقيقة المذكورة لسابق معرفتها وادراكها وتشربها ، بخلاف عمليـة الاستدلال فهى موجهة الى قواعد الادراك بغية الاقناع بنفس تلك الحقيقة التى غفلت عنها تماما الفطرة وتنكرت لها القوى الادراكية ، أو بحقائق أخرى جديدة •

تنوع المثيرات فى القرآن :

قلنـا ان الهدف من اثارة الفطرة تحريك الدافع الدينى الجبلى فى المقام الأول ، وعندما ننظر فى القرآن الكريم لنرى خطته للوصول الى تلك العاطفة الدينية نجـد أنه لم يخاطب الانسانية بأن تتـذكر ،

شعورها بالله واحساسها بوجوده ولم يقل لها اننى فطرتك على معرفتى فعودى الى ، وانما أثار فطرة التدين من خلال بقية الدوافع الأخرى ومن خلال الشعور الواعى ليصل منها ومنه الى الدافعية الفطرية المستكنة والى اللاوعى المستقر خلف موجات الشعور الهادرة ، ولذا نراه سبحانه يركز على الدوافع الهامة فى الانسان ، ويخاطبه على أنه هو الذى يملك مظاهر وطرق اشباعها ، وهو الذى أعد الأسباب لذلك ولولاه ما أشبعت غريزة البقاء ، وما وجد الانسان أصلا ، ولولا حفظه لهلك الانسان ، ولولا رزقه ما أشبعت غريزة حب التملك ، ولولا مواهبه ما أشبعت غريزة حفظ النوع والوالدية الى آخره .

وهكذا يريد سبحانه أن يوجه نظر الانسان الى ذاته وأنه مصدر الاشباع الحقيقى لمطالب الذات البشرية وعندما تهدأ تلك الذات بما يقدم لها تفسح الطريق الى الدافعية المنشودة ، وهى الميل النفسى الأصيل نحو المعبود الحقيقى ، فتنشط وتتحرك ، وتلح وتحفز فينتقل الانسان بارادته الى اشباعها بقبول الايمان والتصديق بذات مقدسة أبدية أزلية ، وقبل هدوء أو خمود الدوافع الأخرى تكون مجابا كثيفا على دافع التدين ، وذلك لارتباطها فى حالات الاشباع بالكون المحسوس ، فتظن فى بعض الأحيان أنه ليس وراءه شىء ، فاذا عدلت الفكرة هذه ، ونبه الانسان الى الوجهة الالهية قفز الدافع الدينى ومحرك الارادة نحو العزم على الايمان والتصديق بوجود الله .

وهاكم طرفا من النماذج الدالة على صحة ما نقول .

اثارة دافعية الخضوع والاستغاثة :

يظل الانسان لاهيا فى مغريات الحياة ، غافلا عن كثير من الحقائق العليا ، تطغيه نزواته وتنسيه طموحاته الدنيوية ، ويستمر غارقا فى طوفان نفسه ، لا يكتشف مثلها الفاضلة ولا يستبصر الطريق الأمثل ، ومهما دعوته الى تصحيح مساره ، وتقويم سلوكه لا تجد منه أذنا

صاغية ، أو عقلا مستوعبا ، ويظل كذلك حتى تدهمه بعض الكوارث ، أو تحل به بعض الأزمات فيلتفت حوله ، ويتصل بكل المحيطين به ، وطالما يجد لديهم معونة يواصل رحلة الاستعلاء والاستغراق في طيش ذاتيته ، الى أن تأتيه كارثة لا يجدى معها التفات الى الغير ولا يفيد معها أىَّ معونة من أقربائه أو المخلصين له ، وعندئذ يفتش الانسان فى داخله عن المخرج والمنقذ ، وتكون المحنة قد أثرت فيه تأثيرا قويا حتى أسقطت كثيرا من الغشاوات التى تحجبه ، وأزالت العوارض التى تحول دون اكتشاف الجوهر الأصيل ، واذا أزيلت تلك الغشاوات ، وهذه العوارض أبصرت الذات حقيقة مدفونة فى داخلها ، حقيقة لا تستنجد بمعينات حسية أو بشرية ، ولكنها تستغيث بقوة عليا تحسها فى أعماقها من داخلها •

وتثور فى الأعماق دافعية الخضوع والخلاص والاستغاثة من الموقف المتأزم ، وهى دوافع فطرية مشهورة عند علماء النفس (٢٧) ، ويتجه الانسان فى مظهر اعلانى واضح الى اللـه يجأر اليه بالدعاء لينقذه من هذا الضر الذى أصابه اصابة بالغة ، بحيث تعذرت الأسباب العادية والمألوفة أن تجد له من بينها مخرجا ، ولا شك أن دافعية المعرفة الالهية الفطرية هى التى ألهمت الانسان فى تلك الظروف طريق الاستغاثة ، ووسيلة الخلاص ، ودلته على الذات القادرة التى تستطيع بحولها أن تفرج أزمة نفسية حادة أو مستعصية ، والتى تسبب فيها الموقف الصعب الناشىء ، أو تكشف ضرا أنت له النفس بمجرد مسه •

وتكون الأزمة النفسية هذه بمثابة الاكتشاف لطاقات النفس وخباياها ، واستشعار الضعف والعجز أمام ظروف تتقاصر عنها المألوفات ، كما تكون ضوءا يشع فى الأعماق مبصرا شيئا مطمورا فى

---

(٢٧) اسس الصحة النفسية : ٦٩ — ٧٠

زاوية نفسية بعيدة ، وهو فى حقيقة الأمر أعظم شىء يحمله الانسان فى جوانيته ، كما أنه من وجهة نظر بعض الروحيين دليـل حى على وجود الحياة الروحية ، وبرهان ساطع على عمق الشعور الدينى ، واحساسه بذات أبدية واحدة ، يغفل عنها أحيانا ولكننا ندركها بفطرنا فى لحظات معينة ، ونفزع اليها فى أوقات المحن والشدائد حسبما يرى (رودلف أيكن الفيلسوف الألمـانى ١٨٤٦ — ١٩٢٩) (٢٨) .

ويسوق القرآن الكريم لفظة دقيقة للاعلان عن هـذا الشعور ، يستخدمها الانسان فى استغاثته باللـه ، وخلاصه من الموقف باللجوء اليه سبحانه ، تلك اللفظة هى (جـأر) وتدل من ناحية اللغـة على رفع الصوت بالدعاء والتضرع والاستغاثة تعبيرا عن جيشان النفس الكثير (٢٩) ، ويقول الراغب (جأر اذا أفرط فى الدعاء والتضرع تشبيها بجؤار الوحشيات كالظبـاء ونحوها) (٣٠) .

وطبقا لهـذا المعنى فان اللفظة تأتى على لسان البشر عنـدما يرون عذاب الدنيا والآخرة ، ويكثر الانسان منها مستغيثا باللـه أن يرفع بلاءه أو كربه ، يقـول سبحانه (**وله ما فى السموات والأرض وله الدين واصبا أفغير اللـه تتقون ، وما بكم من نعمة فمن اللـه ، ثم اذا مسكم الضر فاليه تجأرون**) (٣١) . أى للـه كل ما فى السموات والأرض مما يعقل وما لا يعقل ، وله الدين المستمر مع ما فيه من تعب ونصب ومشقة ، ومهما غفل العبد عند تلك الحقيقة فانه يكتشفها فى ذاته عند أول مس من الضر يصيبه كمـرض أو غيره (لكون الانسان الجاهل يحس فيها قدر الحاجة الى لطف اللـه) وان كان الشـأن

---

(٢٨) وولف فلسفة المحدثين والمعاصرين ١٣٨ .
(٢٩) الفيروز ابادى القاموس المحيط ح١ ٣٨٤
(٣٠) المفردات ١٠٣ .
(٣١) النحـل ٥٢ — ٥٣ .

لدى العقلاء أن يحسوا هذا الاحساس فى كل وقت من أوقات النعماء والضراء (٣٢) •

ويتضح من الآية أن الضجيج بالدعاء وبالمسألة يندفع من العبد لأول مس من الضر ، وبمجـرد الاحساس به ، وهـذا يعنى أن الدافع الفطرى ، والاحساس بأن اللـه هو المنقذ عميق وقوى الى حد أن يثيره أدنى مس من البـلاء ، فلا يشترط أن يكون البـلاء شـديدا قاسيا أو دائمـا متصـلا •

واذا ضج العبد بالدعاء لمجرد مس من عذاب الدنيا فما بالنـا بما يلاقيه المترفون والكافرون من عذاب الآخرة ، وكيف يكون جؤارهم واستغاثتهم باللـه ؟ انه جؤار فظيع ، واذا صح أن اللـه يرفع بلاءه فى الدنيا ليختبر العبد هل يستمر على لجوئه اليه أو ينكس اذا كشف الضر ، فان عذاب الآخرة لا يرفـع بل يستمر ويتأبد على الكافرين لانقضاء وقت التكليف والاختبار ، ومهما جأروا فيقال لهم **(لا تجأروا اليـوم انكم منا لا تنصرون)** ٦٤ المؤمنون •

التركيز القرآنى على اثارة تلك الدوافع :

ان من يتتبع القرآن الكريم يجد أنه أعطى أهمية كبـيرة لتلك النقطة ، وركز عليها بصورة ملفتة للنظر ، ووردت كثير من الآيات تدل على أن اللـه جل جلاله أراد أن يثير فينـا دائما شـعور الخضوع والافتقار الى ذاته ، وأن يبين أن هـذا الشعور يندفع من أعمـاق الانسان فى تلقائيـة واضحة ، وتثيره مواقف الشـدة والبأساء ، ولا بأس أن نعرض معا لحديث القرآن الذى يتناول الطبيعة البشرية فى لجوئها الى اللـه سبحانه مثل قوله جل شأنه :

---

(٣٢) تفسير ابن عطية ج٨ ٤٣٨ — ٤٤٣ ، وتفسير أبى السعود ج٣ ٢٧١ — ٢٧٢ ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة ٢٤٣ •

(قل أرأيتكم ان أتاكم عذاب اللـــه ، أو أتتكم الساعة أغير اللـــه تدعون ان كنتم صادقين ، بل اياه تدعون فيكشف ما تدعون اليـــه ان شاء وتنسون ما تشركون) ٤٠ — ٤١ الأنعام **(قـــل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخيفة لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين قل اللـــه ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون)** ٦٣ — ٦٤ الأنعام **(وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون ، فمـــا كان دعواهم اذ جاءهم بأســـنا الا أن قالوا انا كنـــا ظالمـــين)** ٤ — ٥ الأعراف **(واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبـــه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون)** ١٢ يونس •

(هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا اللـــه مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين فلما أنجاهم اذا هم يبغون فى الأرض بغـــير الحـــق) ٢٢ — ٢٣ يونس **(واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه فلما نجاكم الى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا)** ٦٧ الاسراء **(واذا غشيهم موج كالظلل دعوا اللـــه مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد ، وما يجحد بآياتنا الا كل ختار كفـــور)** ٣٢ لقمـــان •

وينبغى أن نعلم أن اللـــه سبحانه وتعالى يصف الطبيعة البشرية فى هذه النصوص ، ويبين ما هى عليه فى جبلتها وفطـــرتها ، ولذا جاء حديثه عنها حكاية عن حالها فى الدعاء ساعة المحن ، ولم يطلب منهم انشاء تذلل واستغاثة ، وأيضا فان آيات القرآن وهى تصف البشر فى لجوئهم تتناول هـــذه الحالة كأنهـــا ظاهرة بشرية متكررة ، وانهـــا لكذلك ، وبالطبع فان جذور تلك الظاهرة التى تنطلق منها لا توجد خارج الانسان بل فى داخله ذاته ، فأساس الظاهرة وتكرارها فطرى نفسى •

وتأكيدا على ثبوت الظاهرة ، وتكرارها مع الظروف المشابهة يتحداهم الحق أن يخرقوها بدعوة غير الحق فى مواقف الشدة ان ان صدقوا فى أن لهم معبودا غير اللـه ، ولكنهم قد أفعموا بدافع الألوهية ، وقد ملك عليهم قوامهم ومشاعرهم ، ونسوا فى جنبه كل ما يشركون من دونه ، وأقبلوا عليه وحده يدعونه فى تضرع ومذلة وخفية ، ونلحظ من خلال السياق أن اللـه كثيرا ما يتوجه بالخطاب المباشر الى هؤلاء الذين يقرون به ساعات الضراء والشدائد ، وخطابه لهم على هذا النحو من باب استرقاق قلوبهم وجذبهم الى الحق ، ومواصلة اليقين والثبات عليه .

وأثناء هذا الخطاب يأتى البيان القرآنى معبرا عن حالهم كما قلنا ، أو واصفا لما عليه فطرهم ، وأحيانا يسوق القرآن صورة حية مؤثرة يحاصر فيها النفس البشرية حصارا شديدا ، ويضيق على بعض النفوس شديدة النفور الخناق ، ويفقدها الاختيار بين أمور معينة ، [illegible] مشهد واقعى يجرى كثيرا فى الحياة ولا يمت الى الخيال بصلة وفى مثل هذا المشهد تكون النفس البشرية محاصرة بظروف [illegible] حصارا محكما ، حصارا تتساقط فيه الخيارات والحرية فى التصرف ، واختراع البدائل للانفكاك من الموقف ، وتضطر النفس فى تلك الحالة لأن تغوص فى أعماقها لتتحثث مخرجا من الأمر ، وتهتز من أعماقها ، وتضطرب اضطرابا شديدا ، وفجأة يبرق لها من داخلها الدافع الفطرى ، والأمل المنقذ فتناجى اللـه فى ضراعة واستكانة ، وهذا المشهد ما نجده فى قوله سبحانه (**هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى اذا كنتم فى الفلك** ...) يونس وقد سبقت الآية .

وفى مثل هذه الحالة يتوقف العقل الواعى على حد تعبير علماء النفس ويتبلد الشعور وتعمل الحوادث الشديدة الطارئة عمل الغيبة فلا يكون للوعى والشعور العاقل نشاط يذكر ، ويتحرك اللاوعى الذى هو عبارة عن مجموعة الوراثات والدوافع الفطرية ، والميول

والنزعات والاستعدادات والأذواق والتطلعات (٣٣) ، ويعيد الينا ما لديه من جبلية مستكنة تحت تأثير الانطباعات الراهنة والمواقف المثيرة ، ويمد النفس بالطاقة الدافعة التى تتولد باندفاعها مختلف أنواع الولع ومن أهمها الولع والشوق الى منقذ قوى يخرج الانسان من هذا الظرف الحرج ، ثم هو بعد ذلك يضع تحت تصرف الوجدان الواعى مختلف العفويات التى يحتاج اليها لتنفيذ الأعمال والمقررات المناسبة لكل ظرف على حدة ، فيحيل الوعى احساس الولع بمنقذ الى لغة ناطقة في استغاثة مفهومة ، ويصوغ العفويات اللاشعورية الى ضراعات مقصورة ، وأدعيات موجهة الى اللـه من دافع تملاه الثقة فى تأييده وعونه .

وبعبارة أوضح وأوجز ، يصير للظروف الشديدة التى حاصرت النفس تأثير على الوعى والشعور ، بحيث تبدو جميع الحيل المكتسبة بالعلم والخبرة أمام العقل الواعى عاجزة عن أن تخلص صاحبها من الموقف الذى أحيط به ، فينزوى هـذا الوعى ، ويضمحل النشـاط الشعورى ، ويتيح الفرصة أمام اللا وعى لكى يقـذف من مطبوعاته استعدادا معينا وملائما يمكن أن يتعامل مع الظرف ، وعندما يثار هذا الاستعداد المعين يعطى اشاراته الداخلية للوعى من جديد ، فيقـدم الوعى بصياغة أسلوب خاص للتعبير عن الاستعداد الداخلى ، وموجه الى المقصود الذى يسـاعد على انفراج الأزمة ، فتكون الضراعات والدعوات الصادقة من العبد لربه أن ينجيه من هول هذا المشهد . وأن يخرجه من أزمته الطاحنـة التى لا مفر ستودى به لولا أن تتداركه عناية اللـه وحده .

وتتلخص النتيجة من وراء تلك العملية برمتها فى احياء الشعور الدينى الذى يفتقر الى الله بعد خموده بفعل عوامل خارجية ، وتذكيره

---

(٣٣) عبداللطيف شرارة : دائرة المعارف السيكولوجية ح١ ١٣٦ــ١٣٧.

وايقاظه من جديد ، وأيضا تصـحيح ما فسد من تصـور العقل ازاء الألوهية ، واستنطاق الانسان من داخله بألوهية ولحدة لهـا السلطان الكامل ، والحول والقوة دون ما سـواه •

تحريك بقيـة الدوافع الهامة لايقاظ الشعور الدينى :

يمكننا أن نتابع الرحلة القرآنية بتوفيق اللـه للكشف عن مثيرات أخرى من شأنها أن توقظ الفطرية الدينية وتحركها من مكانها ، ولكننا سنكتفى فى مجال التفصيل بما سبق كدلالة على الاتجاه القرآنى •

ونشير هنا اشارات مجملة الى أن اللـه سبحانه أراد أن يحيى الضمير الدينى فى الانسان ، وأن يبعثه بعثا من رقدته خلف أسـتار الغفلة ، وأن يثير أشجانه الى معروفه الأسمى وهو الحق جل جلاله فما كان من المولى عز وجل الا أنه حدث الانسان عن ايجاده وأنه هو الذى خلقه وسواه الى آخره ليدله على أنه مدين فى أصل وجـوده وبقائه للـه وحده ، كما أنه مدين فى دافع حفظ النوع اليه سبحانه فهو الذى وهب له الذرية ، وأعطى من يشاء الذكور ، ومن يشاء الاناث **(أو يزوجهم ذكرانا واناثا ويجعل من يشاء عقيما انه عليم قدير)** [٣٤]، وبذا أثار دافع حب البقاء وحفظ النوع •

وفى مجال الدافعية نحو الملكية والميل اليها يبين القرآن أنه خلق الكون كلـه للانسان ككل ، ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، ويمد البشرية بوسائل الملكية من مياه وأنهار ، ويضع تحت أيديهم الأموال والجنان ويمكن لهم فى الأرض ، ويعـد المؤمنين بملك أبدى آخر يتمتع فيـه الانسان بما لا يتصوره عقله أو يخطر على خياله ، وذلك ليثير فيـه غريز الملكية ، وبين له أن اشباعها بالاقتدار الالهى لا بالجهد البشرى

---

(٣٤) الشورى ٤٩ — ٥٠

وحده مهما بذل المخلوق وشق على نفسه ، وحتى عملية تحويل الرزق الى مطعوم يستفيد منه الكيان المادى البشرى فانه يرجع الى الله وحده (وهو يطعم ولا يطعم) (٣٥) .

واشباع الغريزة الجنسية راجع الى آية من آيات الله ، وفيها خلق لنا من أنفسنا زوجة ، وأباح لنا معاشرتها بحقها ، ورخص فى التعدد بشرائط الاسلام ، وأطلق العنان للانسان يأتيها ان شاء بالكيفيات الشرعية وأوصى الرجل بالمرأة ، وألزمها الطاعة له والخضوع الى غير ذلك مما يتعلق بالدافع الجنسى وحقوقه وحدوده وسننه .

وفى كل مثير من هذه المثيرات ينبه القرآن الى اللازم من ورائه وهو تحريك الشعور الدينى والعاطفة المؤمنة المنبثة فى الكيان الانسان ، ويهدف الى أن تهب تلك العاطفة المشحونة بمعرفة الله ، والمصبوغة بالتصديق بواحدانيته منذ خلقها الله سبحانه ، كما بينا سلفا (٣٦) .

---

(٣٥) الانعام من الآية ١٤.

(٣٦) انظر فى هذا الفصل المراجع الآتية :

١ — تفسير الكشاف ح ٣ ٢٢٢

٢ — ابراهيم الابيارى : الموسوعة القرآنية ح ٣ ٢٥٣ .

٣ — معجم الفاظ القرآن الكريم « مجمع اللغة العربية » ح٢ ٣٣٨ .

٤ — محمد اسماعيل ابراهيم : معجم الألفاظ والأعلام القرآنية٢٠٤ .

٥ — برهان الدين أبو الحسن ابراهيم بن عمر البقاعى :
كتاب نظم الدر فى تناسب الآيات والسور ح١٥ ص ٨٣ — ٩٠
مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر اباد الهند ١٤٠٠—١٩٨٠

٦ — أبو جعفر أحمد بن محمد بن اسماعيل النحاس (٣٣٨ هـ) :
كتاب القطع والائتلاف — تحقيق د/ أحمد خطاب العمر — طبعة بغداد ١٣٩٨ — ١٩٧٨ .

٧ — تفسير الثعالبى — ح٣ ص ٢٠٢ — ٢٠٣ .

٨ — أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى :
جامع البيان فى تفسير القرآن — ص ١٣٢٨ — بولاق تصوير بيروت عن الطبعة الثانية — التصوير عام ١٣٩٢ — ١٩٧٢ — المجلد العاشر — ح ٢١ — ص ٢ — ٢٧ .

• • • • • • • • • • • • • • • •

٩ — نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمى النيسابورى — ط ثانية ١٣٩٢ — ١٩٧٢ — الأميرية مصر .
غرائب القرآن ورغائب الفرقان — هامش الطبرى — المجلد العاشر — ح ٢١ — ص ٢٧ .
١٠ — أبو عبد الله محمد بن احمد الأنصارى القرطبى :
الجامع لأحكام القرآن — وزارة الثقافة المصرية — دار الكاتب العربى — ١٩٦٧ — ١٣٨٧ — المجلد الرابع عشر ص ٢٤—٣٠
١١ — أبو الفدا اسماعيل بن كثير الدمشقى :
تفسير القرآن العظيم — ح ٣ — ص ٤٣٢ .
١٢ — أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن على الجوزى القرشى البغدادى : المكتب الاسلامى للطباعة والنشر .
زاد المسير فى علم التفسير — ح ٦ — ص ٣٠٠ — ٣٠١ .
١٣ — جلال الدين السيوطى :
الدر المنثور — ح ٥ — ص ١٥٥ .
١٤ — علاء الدين على بن ابراهيم البغدادى الشهير بالخازن :
لباب التأويل فى معانى التنزيل — ح ٤ — ص ٢٠٨ — ٢٠٩ .
١٥ — أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوى :
هامش لباب التأويل للخازن — ح ٤ — ص ٢٠٨ .
١٦ — ابن حجر فتح البارى :
ح ١ — ٣٥٧ — ٣٥٨ ، ح ٢ — ٢٧٥ — ح ٣ — ٢٤٨ — ٢٥٠ ،
ح ٧ — ٢٠٢ ، ٢١٥ — ح ٨ — ٥١٢ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ .
١٧ — مسلم بشرح النووى : ح ٤ — ٨٤ ، ح ١٦ ٢٠٧ — ٢٠٩ .
١٨ — سنن أبى داود : ح ١ ١١٤ ، ح ٤ ٢٣٠ .
١٩ — سنن النسائى بشرح السيوطى — ح ٣ ٥٨ — ٥٩ ، ح ١ ١٤، ١٦
٢٠ — سنن الدارمى : ح ٢ — ٢٠٢ .
٢١ — ابن تيمية : مجموع الفتاوى :
ح ٢ ٦ ، ح ٤ ٣٠ — ٣٢ ، ٢٤٥ — ٢٤٧ ، ح ٥ ٢٥٩ — ٢٦٠،
٢٧٠ ، ح ٦ ٧٢ — ٧٣ ، ح ٧ ٢٥ — ٢٧ ، ٥٢٨ — ٥٢٩ ،
ح ٨ ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ح ١ ١٤٦ — ١٤٨ ، ١٣٤ ، ١٣٥ .

ملحوظة :
لقد رجعت الى هذه المراجع فى مادة فطر وما جاء فيها من آيات واحاديث خاصة آية الروم .

الباب الثاني

نظـرة المنهج الى التكوين الانساني

مدخـــل :

تناولنا فى الباب السابق النظرات المتعلقـــة بالمنهـــاج وخطواته وخصائصه ، ثم قلنـــا انه لم يـــرم البشرية بوابل من الأدلة قبل أن يختبر طويتهم بالبلاغ ، فألقى عليهم مطلوب الدين فى صورة بلاغيـــة خاليـــة من أسلوب الجـــدل والبرهنـــة ونقض الآراء السائدة ، ومن الطعن فى تفكير المخاطبين ، وطرائق ادراكهم والصوارف التى تحجب رؤية عقولهم عن ادراك الحق ووضوحه ، ثم بعد هذا عرضنا لمسألة الفطرة ، وكيف أنها كانت أسلوبا منهجيا لأن القرآن الكريم أراد به أن يخاطب أعماق البشرية المنطوية على الاعتراف والاستعداد لقبـــول الحق ، وأن يثيرها اثارة تتوجه فيها الى الحقيقة التى تعارفت الفطر عليها منذ أن حلت بالبدن الانسانى وأودعت فيه •

ولكننا بعد ذلك نتصـــور أنه فى حالة ما اذا لم تستجب البشرية الى البلاغ واثارة الفطر سوف تقذف بما لديها من أفكار وشبه فى وجه من يدعوها ، ويحاول جذبها الى الطريقة المستقيمة ، وعندئذ تظهـــر طوائف المعارضين وعلل انكارهم ، وتبدو طبيعة تفكيرهم ، وأسلوبه ، والأغراض التى يتجمعون حولها ، والشبه التى يثيرونها ، وفى هـــــذه الحالة تتضـــح النفوس المنكرة ، وما تختزنه من أفكار اتضاحا يؤهل الداعى الى التعامل معها بالحكمة والجدل المشروعين •

ونلاحظ أن المنهاج القـــرآنى لا يسلك مسالك المفكرين من البشر الذين يتفحصون شبه الخصـــوم أو دعاويهم ، وينظمونها ثم يردون عليها واحدة تلو الأخرى دون نظر الى النفس الانسانية المخاطبة • وانما يرسى المنهاج قواعد بناء وهدم ، أما البناء فانه يتعلق بالذات البشرية التى تهدمت بفعل العوامل والنزوات الشريرة التى ســـيطرت عليها ، وتحت تأثير الأفكار التى عششت فى كهفها ، وأفسدت تصوراتها

فيقدم المنهاج القرآنى طريقة جديدة فى احياء تلك النفس ، واعادة الروح لهـا ، وتبصيرها بعيوبها ، ولفت نظرها الى الطريق الصحيح فى التفكير والمنطق ، ويستبدل الذى هو خير بالذى هو أدنى ، فيسوق قواعد التفكير السليمة ، والأهداف السامية ، ويدل الانسان على مجموعة من الأفكار الصائبة التى تفيده فى ذاته ودنياه وآخرته .

فتكون عمليـة البناء شاملة للذات البشرية والشخصية الانسانية من حيث اعادة صياغتها فى ضوء القواعد والأحكام التى جاءت فى القرآن والسنة ، وطـرد الخبائث والنزوات الضارة العالقة بها ، ان عمليـة البناء فى هـذا الجانب الذاتى ما هى الا تصحيح لوضع نفسى فاسد ، واعادة الفطرة الانسانية الى صفائها ونقائها ، والبنـاء يشمل كذلك سوق ضوابط والأسس والأحكام التى تسير عليها تلك الذات الجديدة وتهتدى بهديها ، وتلتزم بها التزاما كليـا .

وأما عمليـة الهدم فانها تقضى على عيوب النفس البشرية ، وعلى ما فيها من شهوة أو نزوة ، وتخلص الفرد من الأمراض الشخصية التى تصيب الانسان فتحطم فيه شعوره بذاته ، وتصيبه بأمراض الاضطراب ونقدان الثقة ، كما تحارب فيه نزعات الأنانية وحب النفس واحتقار الغير ، وصفات الشح والبخل وبغض الآخرين والنظر اليهم على أنهم أعداء لطبيعته ورغبـاته .

وفى عبارة واحدة : الهـدم ازالة للعيوب والأمراض النفسـية والشخصية ، وحرب على الأفكار الفاسدة ، والظنون الخاطئة .

ومما هو جدير بالذكر أن العملية بشطريها لا تنفصل ، فاذا تحققت الأولى كانت الثانية ، واذا أدت الثانية نتائجها وجدت الأولى بالضرورة ، ويمكن كذلك أن نعتبر الشطرين وجهين لحقيقة واحدة فالذى يرسـم المنجيات يهـدم المهلكات ، والذى يوضـح المهلكات ويبين أخطارها يقود الناس الى المنجيات تبعا لمـا هو سائر فيه .

واعتمد المنهج القرآنى — حسب تصورنا — فى تلك العملية على خطة محكمة دقيقة تقوم على ركائز هامة : منها أنه لم يقدم توجيهات مفصلة فى كل مسألة يتبعهـا الانسان سواء فهمها واستوعبها أم لا ، ولم يقدم براهين متعددة ليقنع بها أجيال البشرية ، وانما نظـر الى الانسان من حيث هو انسان فيه الاستعداد والقابلية للتفكير الجيـد والمثمر ، وفيه أهلية لبنـاء نفسه وشخصيته بنـاء سليما فأراد أن يصوغ الانسان فى كيانه الذاتى والادراكى والانفعالى صياغة مثلى يعود فيها هـذا الكائن الى حقيقة وضعه ، والى الحـالة التى خلقه اللـه عليها من صفاء النفس وسلامة الطبع وجودة التفكير ، وحسن الروية ، وأن يتأهب بهذه الصياغة الجديدة لفهم ذاته ، ووعيه بكيـانه الداخلى ، وللتعاون النقى ، والتكيف النزيه مع الآخرين وللاقبال على الكون فاحصا ومتأملا ومعتبرا وعاملا ، وفوق هذا كله يستوعب افتقاره الى اللـه وحاجته اليه ولجوءه اليه فى كل أمر ، دق أو خطر ، ولا شك أن الانسان بفهمه لذاته ، ووعيه بكيانه سوف يدرك عنصر الافتقار هذا ادراكا جيـدا ، وسـوف يعلم مدى نقص البشر وحاجة النقص الى الكمال الالهى .

ومن بين تلك الركائز التى اعتمد عليها المنهج فى بنائه للانسـان وادراكه ووعيه بذاته ما نراه من حديث القرآن المستفيض عن الأدوات التى يحقق بها الانسان معرفته ، ويجمع بها علمه ، وينمى عن طريقها قدراته وخبراته ، ولقـد تتبع الكتاب الكريم أدوات الادراك الحسى والعقلى والقلبى تتبعا فيه استقصاء لنشاطها وعملها ، وآثارها بشكل ملحوظ ، وربط بين الانسانية العليا وبين سلامة هذه القوى فى عملها ، كما ربط بين التدنى الانسانى وبين اهمال هذه القوى وفساد عملها ، ووصف هـذا التدنى بأنه حيوانية هابطة على الرغم من أنها تحمـل أجهزة يمكن أن تدرك ، وبات واضـحا من سياق الحديث القرآنى عن قوى ووسائل الادراك أنها هى الطريق الوحيد الذى يمكن معه للانسان أن يبصر نفسه ويستبطنها ويقاوم نزعاتها الشريرة ، وفى الوقت نفسه

هى الوسائل الكفيلة لتحقيق المعرفة اللازمة لبناء الشخصية الكاملة فى أفكارها ، وعقائدها ، ومبادئها ، وأخلاقها ، وعلاقاتها بالكون والآخرين ونشاطها الدنيوى والأخروى •

وأخيرا يرتكز المنهاج القرآنى على قواعد استدلالية هامة ، فهو ان لم يقدم ثبتا من البرهنة مفصلا فقد قدم جملا برهانية تعتبر أساسا قويما لكل عمل برهانى ، كما تعتبر حجة واضحة فى الغرض الذى سيقت من أجله ، وتميزت طائفة الأدلة التى وردت فى القرآن الكريم — وهى كثيرة ومتنوعة — بمميزات فنية سوف نشير اليها فى حينها ان شاء الله •

وبذا تكون الخطة المنهجية فى بناء الشخصية الانسانية قائمة على ركائز ثلاث :

الأولى : بناء الانسان وشخصيته •

الثانية : اثارة القوى الحاسة والعاقلة وتنشيطها •

الثالثة : الاستدلال ومميزاته وبعض صوره •

ولطول هذه الركائز سوف نقسمها بين أبواب ثلاثة قادمة كل باب يعالج ركيزة منها ، والله الموفق •

الفصل الأول

ضرورة المصدر الدينى فى اعداد الشخصية

تمهيـــــد :

نعنى بمصدر التكوين الانسانى دراسة المنبع الذى يجب أن نعتمد عليه فى عملية الصياغة التى ينبغى أن تكون عليها النفس الانسانية ، والكيان الانســـانى كله ، وهل فى مقدور المبادىء الانســـانية أن تلم بجوانب النفس الداخلية كى تقـــدم لها علاجا ناجعا ، وكى ترسم خطا لتكوينها تكوينا سليما ؟ أو أن تلك المبادىء لم تصـــل بعد الى أغوار تلك النفس ، ولم تدرك حقيقتها ادراكا يمكنها من وضع اطار صحيح لاعدادها وتربيتها ، والوصول بها الى الكمال الانسانى المنشـــود ، وإذا لم يكن فى مقدورها ذلك فماذا يجب أن نلجأ اليه ؟

الحقيقة أنه يلزم لدراسة هذه المشكلة أن نعرض للتســـمية التى اختارها علمـــاء النفس مصطلحا حديثا لتلك العملية ، وهـــو مصطلح الشخصية ، ثم نبين وجهة النظر القرآنية فى هذا ، وما هى الألفاظالتى استخدمت للدلالة على المطلوب هنا ؟ ، وما دقتها ؟ ثم نبين أى المنـــابع أسلم وأقوى فى اعـــداد النفس وتكوينها ، وتربية الذاتالانســـانية وبنائها ، وأخيرا نعرض لأبر جوانب البناء والتكوين لصياغة الانسانية المثـــلى .

معنى الشخصية لغويا :

الشخصية لفظة تستعمل غالبا للتعبير عن مكونات فرد ما ، ومايمكن أن نتعرف عليها من خلال صفاته البارزة ، أو تصرفاته التى نشاهدها ، أوسلوكه الخلقى ، أوعلاقته بالآخرين ، أو أسلوبه فى التفكير ، وطريقته فى الفهم والادراك ، وقــد جرت اللفظة على السنتنا جميعا ، فنقول عن واحد ما بعينه : « هــذا شخص نبيل » أو « شخصية جذابة » أو « شخص عبقرى » أو « شخصية خدومة » الى آخره •

وقــد جرت عادة المشتغلين بعلم النفس من الشرقيين عنــدما يتناولون تلك الكلمة أن يعتبروها مصطلحا مأخوذا من اللغات الأوربية (Persanality) أى برسوناليتى بالانجليزية ، أو Persanolite بالفرنسية (برسوناليتيه) أو (Personlichreit) بالألمــانية ، وكلهــا مشتق من الأصل اللاتينى (Persona) (برسونا) الذى يعنى (القناع) وسبب وضعه أن الممثلين اليونانيين والرومانيين فى العصور القديمة اعتاذوا أن يرتدوا أقنعــة على وجوههم لكى يعطوا انطباعا معينا عن الدور الذى يقومون به ، ويختفون وراء القناع أيضا ، وبمرور الزمن انتقلت الكلمة من القناع الى الممثل نفسه ، ثم على الأفراد الآخرين أحيانا[١] ، والباحثون الشرقيون يجارون فى ذلك المؤلفين الغربيين تماما•

والواقع أنهم لم يكلفوا أنفسهم جهــد البحث للكشف عن الكلمة فى اللسان العربى ، ولو أنهم قــد فعلوا لاتضح لديهم أن الكلمة أدل على مقصود علمهم فى اللغة العربية منها فى اللاتينية وما اشتق منها ، وذلك لأنها فى الأصل الأوربى تعنى القنــاع ، والقناع الذى يرتد به الممثل أو الشخص ليس هو سواد الانسان ، ولا حقيقة أو نفســه ،

---

(١) د/ سيد محمد غنيم : سيكولوجية الشخصية ٤٢ نقلا عن (جور دون البورت) فى كتابه « الشخصية » ١٩٣٧ •

أى ليس بدن الانسان ، ولا جوهره الصفاتى ، وبالتالى فليست قريبة الدلالة على ما يهدف اليـــه علم النفس من دراسة شخصية الفرد من جانبها الذاتى ، أو فى جانب علاقتها بالكون والبيئة ، وتأثير الذات فى الآخرين ، أو تأثرها بالجو المحيط بها •

أما فى اللغة العربية فان المتأمل فى كلمة (الشخص) يجد أنها تدور حول الانسان فى بدنه ، أو بصره ، أو حركته ومسيرته وذهابه ، أوكلامه ومنطقـــه ، كما تدور حوله فى نفســـه وانفعالاته وتأثيره بالأجـــواء المحيطة به •

فيقال (الشخص) سواد الانسان تراه من بعد ، **وشخص بصره** فتح عينيه لا يطرف ، **وشخص بصره رفعه** ، وشخص من بلد الى بلد ذهب وسار فى ارتفاع ، وشخص الجرح انتبر وورم ، وشخصت الكلمة من الفم ارتفعت نحو الحنك الأعلى ، وشخص مثل كرم بدن وضخم ، والشخيص الجسيم والسيد والشخصية مؤنث كذلك ، وأغلب ماتستعمل تلك المـــادة مع الانسان فى الجوانب السابقة ، وقـــد تستخدم مع غيره بعض المعانى السابقة على وجه نادر ، فيقال شخص الســـهم أو النجم بمعنى ارتفع كما يقال عن ســـواد أى شىء (شخصه) ، وهـــذا عن استعمالها مع الانسان فى بدنه ، أو حركته ، أو منطقه أو بصره •

وأما عن استعمالها فى الجانب النفسى فيقال **شخص به كعنى أتاه** أمراً قلقـــه وأزعجه ، **وأشخصه أزعجه** والمتشاخص المتفاوت والمختلف والمتجهم أيضا (٢) •

---

(٢) القاموس المحيط ح ٢ ٣٠٦٢ •

دلالة الوضع العربى :

لو وازنت بين الكلمة فى اللسان الأوربى والعربى لتبين لك عـــدة حقائق :

أحدهما : أنها أخذت فى الأصل الأوربى من القناع ، والقناع جزء من الثوب يســـتعار لاخفاء الشخصية الحقيقية لا لاظهارها والكشف عنها ، وقـــد نقلت من هـــذا المعنى الى الشخص ذاته ، بينمـــا هى فى اللسان العربى وضعت أساسا للدلالة على الانسان مباشرة ، وبطريقة أصـــلية .

ثانيها : ان الكلمة تدل فى الوضع العربى على سواد الانسان ، والسواد عين تشخصه ، وبه يرى من بعد ويعرف ، ويدل على الكثرة ، وعلى عامة الناس ، وعلى خاصتهم ، وعلى القلب ، فيقال سواد الناس أى عامتهم ، وسواد القلب كحبته (٣) ، كما تدل كلمة التشخص على كثير من أفعال الانسان التى تصدر منه (ديناميا) بلا ارادة مثل شخص بصره صار مفتوحا لا يطرف ، وشخص مثل بدن ، وعلى أفعال أخرى ارادية ترتبط بالبدن ارتباطا وثيقا مثل شـــخص من بلد الى بلد ذهب وسار فى ارتفاع ، وشخصت الكلمة من الفم ارتفعت نحو الحنك الأعلى.

وارتباطها بالانسان من تلك الزاوية البدنية والعضوية يصـــلح أساسا لمن يرى أن كلمة الشخصية بالمعنى الاصطلاحى تعنى الدينامية الجسمية التى تظهر الفرد بطابع خاص ، ولو أن الباحثين الشرقيين انتبهوا لوضع الكلمة لأدركوا العلاقة القائمة بين النظرية الدينامية وبين أصل الوضع لكلمة شخصية باعتبارها علما على بدن عضوى لكائن ما .

ثالثها : ان من معانى تلك الكلمة الشخصية وهى تعنى الجســـم والســـيد ، ومن معانيها ســـواد القلب أى حبته ، وللسيد تأثيره فى

---

(٣) نفسه ح ١، ٣٠٤ .

الآخــرين ، وللقلب نشاطه المؤثر فى البدن كلــه ، وهــذه المعــانى الوضعية تشير الى النظرية التى ترى فى معنى الشخصية ضرورة التأثير فى الآخرين ، ويطلق عليها نظرية (المثير) فليست هناك سيادة بدون بروز ، وليس هناك بروز يخلو من تأثير فى الغير واعجاب به ، والقلب الخالى من النشاط والدفق والحيوية لا معنى له ولا وجود •

رابعها : ومن المعانى التى تتناولها الكلمة شخص به كعنى أتاه أمر أزعجه وأقلقه ، وأشخصه والمتشاخص المتفاوت والمختلف والمتهجم ، والازعاج والقلق والتفاوت والتهجم نتيجة أمر خارج عن الانســان يعتبر بلا أدنى شك أساسا للقائلين بأن الشخصية هى استجابة لمؤثرات أجنبية ، أو لعادات وتقاليد وثقافة تحيط بالانسان ، وتدعى بنظــرية (الاستجابة) •

وهكذا نرى أن جذر الكلمة فى اللسان العــربى يتسع ليشــمل اتجاهات الباحثين المعاصرين ازاء المراد من الشخصية •

مشكلة تعريف الشخصية :

هذه الكلمة تشيع كثيرا على ألسنة الناس والكاتبين ، وقلما يجهلها أحد ، أو يسأل عن تعريفها ، فهى تبدو ســهلة بسيطة لا تحتاج الى تعريف ، والأمر يختلف اذا انتقلنا الى مجال العلم ، فاننا لا نعثر على تعريف دقيق لهــذه اللفظة — شأنها شأن غيرها من مصطلحات علم علم النفس — ولم يتفق العلماء على تعريف واحد يحدد المراد منها •

وكانت النتيجة ازاء الرغبة الملحة التى تقتضيها ضرورة الوقوف على تعريف اصطلاحى للفظة واسعة الانتشار والتى تفرضها ظروف البحث العلمى ذاته ، وأيضا فان هذا المصطلح صار عنوانا على موضوع أساسى فى مجال علم النفس ، وله علاقة كبرى بعلم الاجتماع ونظرية المعرفة ، نقول كانت النتيجة أن اتجهت أنظار الباحثين الى الكلمــة

ليحددوها تعريفا وايضاحا ، ويعينوا المراد منها ، ونظرا لأن هؤلاء الباحثين قد أطلوا على الكلمة من منظور خاص كل يراها من وجهته هو، فأصحاب نظرية الدوافع يرونها من منظور الاستعدادات والدوافع الفطرية والمكتسبة ، والمكونات الذاتية • وأنصار مدرسة الأفعال الشرطية يحملونها فكرة التكيف ، ويقررون أنها ترجع الى التأثير البيئى فى الانسان ومدى استجابة الشخص معه ، والذين يميلون الى ربط الجانب النفسى بالعضوى (الفسيولوجى) فى الانسان يذهبون الى أنها وحدة دينامية ذات أشكال مختلفة ، لذا فقد اختلفوا حول المراد منها اختلافا بينا ، ولم يتفقوا على صيغة اصطلاحية جامعة •

وحتى هذه التعريفات الكثيرة التى صدرت عن كل فريق من هنا ومن هناك فان أحدا لم يقل انها قطعية ، وانما اعتبروها مسألة افتراضية بحتة ، ولم يسلم من هذا الافتراض تعريف واحد تجاوز حد الفرض الى القطع (٤) •

حول التعريفات الاصطلاحية :

كما قلنا فان كل فريق من المدارس النفسية عرفها من وجهة النظر التى ينتمى اليها ، وسنسوق طرفا من تلك التعريفات ازاء كل مدرسة صدرت عنها •

أولا : يعرفها أنصار مدرسة الدوافع النفسية بأنها (طبيعة الفرد — من الاستعدادات الجسمية والغدية والانفعالية — بعد أن يحورها التفاعل الاجتماعى) وبعبارة أخرى (مجموع ما لدى الفرد من استعدادات ودوافع ونزعات وشهوات وغرائز فطرية — ومكتسبة — وبيولوجية) وهى لدى (كمف ١٩١٩) (أسلوب التوافق العادى

---

(٤) سيد غنيم : سيكولوجية الشخصية : ٤١ .

الذى يتخذه الفرد بين دوافعه الذاتية المركزة ومطالب البيئة) وربمـا قيل انها (مجموع ما يحدثه الفـرد من تأثير فى المجتمع) أو (العادات والتقاليد والأفعال التى تحدث أثرها فى الآخرين) •

ومن الملاحظ على هذه التعريفات أن أصحابها ينظرون بعين الاعتبار الأول الى الاستعدادات والدوافع الفردية ومع ذلك لا ينكرون العلاقة بين هذه الدوافع والبيئة ، وأن هذه التعريفات تشير الى أجزاء معينـة من النمط الفردى وحيويته وقدرته على التعبير والتأثير فى الآخـرين ، وتهمل مع هـذا التكوين الداخلى للشخصية من حيث هى ذات لهـا حقيقة لا تفارقها ولو كان الانسان فى جزيرة نائية بعيدة عن هؤلاء الآخرين ، ثم ان النظر الى قـوة التأثير فى الغير تجعل الفرد الواحد عددا غير محدد من الشخصيات المحيطين به ، والذين يفترض أنه سوف يؤثر فيهم ، وأيضا فان الأثر الذى يحدثه الفـرد قد يرفع من شخصيات آخرين أدنى مستوى بكثير من غيرهم ، فالممثلون والصحفيون الذين يتاح لهم الاتصال بالجمهور يكونون أكثر منزلة بين الجمهور من مفكرين ذوى مواهب قيمة مثل أساتذة الجامعات وكبار المؤلفين والعباقرة •

ثانيا : وتعرف عند أصحاب المدرسة الشرطية أو السلوكية بأنها (استجابات الفـرد المميزة للمثيرات الاجتماعية ، وكيفية توافقو مع المظاهر الاجتماعية فى البيئة) أو هى (العادات ونظام العادات ذات الأهميـة الاجتماعية والتى تكون ثابتة وتقاوم التغير) ومع أن مثل هـذه التعريفات تغطى جوانب أكثر لأن الفـرد الواحد ازاء مثير واحد قد تعدد استجاباته ، وقد تتحـد استجابات أفراد متعددين ، والتمسك بفكرة الاستجابة مع المثيرات الخارجية يهمل جوهر الشخصية وتنظيمها الداخلى •

ثالثـا : ويرى أنصـار المدرسـة البيولوجيـة والدينامية أن الشخصية هى (محصلة تفاعل عوامل بيولوجية مع عوامل اجتماعيـة

وثقافية بوجه عام) أو هى (وحدة دينامية متعددة الأشكال) أو انها (التنظيم العقلى الكامل للكائن الحى فى أية مرحلة من مراحل نموه ، وهى تتضمن كل مظهر من مظاهر الشخصية الانسانية : عقله ومزاجه ومهارته وخلقه وكل اتجاه كونه خلال حياته) وقد يقال بأنها (التنظيم الأكثر أو الأقل ثباتا واستمرار لخلق الفرد ومزاجه وعقله وجسمه والذى يحدد توافقه للبيئة التى يعيش فيها) .

ولا شك أن التكوين الداخلى لا يمكن اخضاعه للدراسة العلمية فنحن لا يمكننا أن نعرف الوحدة الدينامية المتعددة الأشكال ، والتى نقول عنها انها توجد حقيقة ، وعلى هذا فالتكوين الداخلى على فرض صحة وجوده لا يمكن دراسته مباشرة .

رابعا : والاتجاه الشمولى لا ينظر الى الشخصية باعتبارها مثيرا ، ولا مستجيبا ، ولا تنظيما ديناميا ولا تكوينا بيولوجيا ولكن ينظر اليها على أنها كل ذلك تقريبا ، ويفهم أنصاره الشخصية على أنها وحدة مميزة خاصة بالفرد حتى ولو كانت هناك سمات مشتركة بينه وبين غيره من الأفراد ، وعلى أنها تنظيم وتكامل حتى ولو لم يتحقق هذا التكامل فهو هدف يسعى الفرد دائما لتحقيقه ، والشخصية تتضمن فكرة الزمن ، فلها تاريخ مضى وحاضر ومستقبل ، وهى فى النهاية مكون افتراضى داخلى متميز فى الجانب العقلى والانفعالى والمواهب .

وطبقا لهذا التصور الشمولى فانهم يعرفونها بأنها (ذلك التنظيم، أو تلك الصورة المميزة التى تأخذها جميع أجهزة الفرد المسئولة عند سلوكه خلال حياته) أو هى (ذلك التنظيم الدينامى الذى يكمن بداخل الفرد ، والذى ينظم كل الأجهزة النفسية والجسمية التى تملى على الفرد طابعه الخاص فى السلوك والتفكير) وهذه التعريفات ربما تسلم من النقود الى حد ما ، وتتجنب الصعوبات التى واجهت التعريفات السابقة ولكنها تظل بلا سند من اجماع المتخصصين (٥) .

---

(٥) انظر د/ مصطفى فهمى : الانسان وصحته النفسية ، ٤١ — ٤٢ ، د/ سيد غنيم سيكولوجية الشخصية ٤١ — ٥٤ .

الاستخدام فى القرآن والحديث ومغزاه :

لم يستخدم القرآن الكريم تلك اللفظة بأى معنى من المعانى التى ذهب اليهـا النفسيون على اختـلاف وجهاتهم وانما استخدم بعض مشتقات المـادة مرتين : واحـدة تشخص ، وأخرى شاخصة (٦) ، وجاءت بمعنى انفتاح الأبصار فلا تطرف ، وهما بعيدتان عن المـراد من كلمـة الشخصية كما ترى .

وأما الحديث فقد دارت مشتقات الكلمة حول المعنى اللغـوى مثل شخص البصر وشخص ببصره ، ولم يشخص رأسه أى يرفعها ، وبمعنى الاقامة فى سبيل اللـه ، وبمعنى سواء الشىء ، وجاءت كلمة الشخص بمعنى الذات .

ولعل عدم الدقة التى منيت بها كلمـة الشخصية فى الدلالة على المحتوى الذاتى للانسان وراء اعراض النص الدينى فى القـرآن أو الحديث عند استخدامها بنفس المعنى الشائع على ألسنة النـاس أو المثقفين أو المتخصصين ، ولقد بقيت فى الدائرة اللغـوية داخـل حدود الكتـاب والسنة .

وأقرب الألفـاظ التى استخدمت فى النص الاسلامى قريبا من دلالة الشخصية عند علماء النفس هى لفظة الانسان والناس ، واللفظتان عند النظرة العـابرة يوهمان أنهما يشتركان فى الحديث عن الكائن البشرى وتكوينه وصفاته وسلوكه وتصرفاته وعلاقاته بربه وبالآخرين ، ولكن النظرة المتأنيـة تدل على أن كل لفظـة سلكت مسلكا خاصا ، واختصت بالحديث عن البشر فى جانب معين ، وقد انفردت احداهما بالحديث عن الانسان فى ذاته ، والأخرى عنه فى اجتماعه .

---

(٦) (انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ٤٢ ابراهيم) (واقترب الوعد الحق فاذا هى شاخصة ابصار الذين كفروا) ٩٧ الانبياء .

أما التي تناولت الحديث عنه في ذاته فهي لفظة الانسان •

وعند قراءة القرآن الكريم يتضح لنا بشكل مبين أن الآيات التي وردت فيها لفظة الانسان تحدثت عن طبيعة خلقه ، وأنه خلق من سلالة من طين وصلصال وفخار ، وخلق من نطفة ، ومن علق وفي أحسن تقويم ، وفي كبد الى آخره ، وقد أمر أن يبر والديه لكونهما سببا في وجوده ، وبينت الآيات ، وأيضا فقد أبرزت الآيات طبيعته النفسية ومزاجه وتقلبه ، ونكوصه عن حالة الشكر الى حالة الكفران ، وكونه خلق ضعيفا وهلوعا وجدلا وخصيما وكنودا وقتورا وكادحا وفي كبد وعجل وخسر وظلوم وكفور وجهول •

ونظرا لأن الآيات التي وردت فيها كلمة انسان تتحدث عن الطبيعة الذاتية والتكوين النفسي للانسان فقد جاءت علاقة الشيطان بالانسان بين ثنايا هذه النصوص ، وذلك لأن تلك العلاقة لا تتسم بالظهور والعلانية ، وانما تحمل طابع الخفاء ، والشيطان اذ يوسوس للانسان يفعل ذلك في جوانيته فهي حديث منه لذات الكائن البشري في أعماقه وبين مجاري دمه (**ان الشيطان للانسان عدو مبين**) (٧) •

وكذلك فان تلك الآيات التي حملت كلمة انسان تناولت هذا المخلوق في أهدافه وأمانيه وأحلامه وأغراضه وكلها أمور انعقدت عليها النوايا ، واستقرت بين الحنايا ، (**أم للانسان ما تمنى**) (٨) كما تحدثت عن درجة الالزام والمسئولية تجاه أفعاله وسلوكه ، ونواياه وأفكاره ووعيه ، والمسئولية شعور أولي يكون سابقا عن وقوع الفعل ، وعليه يتحمل الانسان تبعة أعماله ، ومحله القلب والخاطر والارادة (**وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه**) (٩) •

---

(٧) يوسف ٥ •
(٨) النجم ٢٤ •
(٩) الاسراء ١٣ •

ونبهت النصـوص الى استعدادات الكائن البشرى وقابليته ، وتهيئته للتعلم (**خلق الانسان علمه البيان**) (١٠) (**علم الانسـان ما لـم يعـلم**) (١١) ·

وهكذا يتجمع لدينا عن الكائن البشرى معارف دقيقة ومحددة ، وتصل الينا من خلال النصوص التى وردت كلمة انسان بين ثناياها ، ونستطيع أن نتبين بوضوح التكوين الداخلى للانسان من حيث هو على الحقيقة ، ومن حيث جوهره ومحتواه الذاتى العام ، هـذا المحتوى الذى يأخذ كل فرد من أفراد البشرية منه بنصيب ، فتتولد الفروق بين الأفراد بسببه ، ولقد حصلنا على بيان يقينى عن هذا التكوين فى الوقت الذى يعترف فيه علماء النفس بأنهم عاجزون عن الوصول اليه بواسطة المعامل والتجارب النفسية •

ونحن لا نستطيع البناء المنشود للنموذج الانسانى المثالى بدون معرفة واضحة عن طبيعته الذاتيـة كى نستثمر عناصر الخـير فيـه ، ونقتلع منه جذور الشر ونوازعه •

والآن حان وقت الحديث عن الانسان فى اجتماعه بعد الحـديث عنه فى ذاته •

والكلمة التى تناولت الآدمى فى الاجتماع وما يتطلب من قواعد وضوابط هى كلمـة النـاس •

لقد جاء القـرآن يصف الجانب الاجتماعى لدى الآدمى ، ويصور البشرية فى حالة اجتماعها ، وما هم عليه ، وللقرآن ميزانه الخـاص الذى يزن به تلك الحالة الاجتماعية ، وله مصطلحه الذى يعمـق فى

---

(١٠) الرحمن ٣ ، ٤ •

(١١) العلق : ٥ . راجع المعجم المفهرس بدقة وتأن .

الاستخدام ، أما الميزان فهو ميزان الهداية والايمان ، وهو الميزان الذى يحكم فى ضوئه على أحوال البشر أثناء حركتهم الاجتماعية وأما المصطلح فهو لفظة الناس •

وبحكمة هذا الميزان ، وبدقة المصطلح يحدثنا اللـه سبحانه أن الناس ازاء المعيار الاجتماعى أصناف منهم المؤمن ، والكافر ، والمنافق ، وأن المؤمنين منهم هم أهل العدل والبر والتصدق والاحسان وهم الأمة الوسط الذين يشهدون على بقية الأمم ، والذين استفادوا من آيات اللـه المتلوة والكونية فاهتدوا بهديها • ودعوا الى الهدى وقالوا للناس حسنا ، فلهم الامامة على غيرهم •

وأن ما سوى المؤمنين قد أصيبوا بأمراض اجتماعية مثل حب الذات دون الغير ، ومخالفة الفعل القول والحرص على منفعتهم دون الآخرين ، وقد جاروا وظلموا وبغوا وحسدوا وبغضوا ما دونهم ، وربما لجأ فريق منهم الى ايذاء الآدميين بالسحر أو القتل أو الفساد، أو كتمان الحق والخير ، ولولا أن اللـه يدفع هؤلاء المفسدين من الناس لفسد الاجتماع والأرض معا •

واللـه سبحانه لكى يقوم هؤلاء الناس الذين يفسدون اجتماع البشر ، ولكى يضبط النظام الاجتماعى على الحق والعدل والاستقامة فقد توجه الى عموم الناس آمرا لهم أن يعبدوه ، ومبينا لهم أنه ما أنزل القرآن الا هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان لذواتهم ولاجتماعهم ، فلن يصلح المجتمع كله ما لم ينصلح على هدى اللـه أفراده ، من ثم كانت الحكمة الالهية قاضية أن يتوجه اللـه بأمره التكليفى الى الناس الذين يمثلون القوة البشرية صانعة الاجتماع ، وأن يحذرهم جميعا من نار وقودها الناس والحجارة ، وأن يذكروا فضل اللـه ونعمه على الناس (١٢) •

---

(١٢) للتأكد من أن لفظة الناس ذات طابع اجتماعى انظر استخداماتها فى المعجم المفهرس ••

وبذا تكون كلمة الناس هى المصطلح المستخدم للتعبير عن الجانب الاجتماعى للكائن البشرى ، وللقرآن كما قلنا دقته فى الاستخدام ، وللحق جل جلاله تقديره واحاطته ، وتحت هذا المصطلح وبين ثناياه تناول القرآن أوضاع البشر الاجتماعية ، ومذاهبهم فى الايمان والكفر والنفاق ، وأحوال كل ، والأمراض النفسية الاجتماعية ، وحقوق البعض على البعض ، ودفع البعض عن البعض ، والقواعد التى يجب أن يتبعها الأفراد لكى ينصلحوا نفسا واجتماعا ، وقد سبقت تلك القواعد فى صورة أوامر شرعية يلزم الله أفراد المجتمع البشرى القيام بها ، كما يخاطب كل طائفة بعد ذلك بالوصف الغالب عليها فيخاطب المؤمنين بسمتهم ، والكفار بكفرهم وهكذا •

واذا انصاع البشر الى الأوامر التكليفية وجدت الانسانية المثالية والشخصية الاجتماعية الكاملة وبدون هذا الانصياع ستظل البشرية ترزح تحت نير الاختلاف والاضطراب ، والكيد والحنق ولن يجر ذلك الا الخراب والدمار على بنى البشر ولقد حدث فعلا وما زال •

تعبيران عن حقيقة واحـدة أولى :

رأيت فى العرض السابق أن كلمة انسان اذا ذكرت انصرفت الى الحقائق الذاتيـة ، والاستعدادات ، والتكوين الداخلى للانسان ، واذا ذكـرت كلمـة الناس اتجهت بالانسان الى ساحات الاجتماع والعلاقات البشرية المتعددة ، ومنه نفهم أن اللفظتين تعبير عن حقيقة الآدمى فى شطرين هامين من وجوده : أحدهما أصل وهو الجانب الذاتى الذى لا يقوم الاجتماع الا به ، والآخر ضرورى وحيوى ، وبدونه لا يكون للكائن البشرى معنى الا عند قيامه بوجوه النشاط المتعددة طبقا للقواعد المشار اليها •

واتجاه القـرآن الى استخدام مصطلحين للتعبير عن الجـانبين ليس عجزا عن استخدام لفظة واحدة تصلح لهما معا ، وانما هو دقـة

فى الاطلاق تعطى لكل مهمة عنوانها الملائم لهـا ، ولكل مرحلة اسمها الذى يخصها ، وسندنا فى هـذا ما لحظنـاه من الاهتمام بالتكوين الانسانى فى الآيات التى ذكـرت فيها كلمة انسان ، وما نجده لدى الزمخشرى فى تفسـيره لكلمة الناس فيقول (ناس وأناس وأناسى ، وأنسى سموا لظهورهم وأنهم يؤنسون أن يبصرون (١٣)) والظهـور والمؤانسة والبصر أمور اجتماعية • وعلماء النفس اذ يتجاوزون تلك الدقة ، ويحاولون اطلاق لفظة الشخصية على المكون الافتراضى للذات وانفعالها بالبيئة وأحداثها ، والتكيف معها يقعون فى أخطاء تلزمهم ، وأخرى يعترفون بها ، ويدركونها بأنفسهم •

أما الأخطاء التى تلزمهم فهى أنهم يقولون ان لفظـة الشخصية تنصرف أول ما تنصرف الى الذات فى أخص صفات الفردية ، وأنهـا تهتم بالانسان من حيث هو فـرد بعينه لا من حيث هو نوع البشرية جمعاء ، وعندما ينظرون تلك النظرة يقولون : الفرد يشبه كل الناس من جهة التكوين العضوى والبيئة والطبيعة ، ويشبه بعضهم فى أمور مثل اشتراك أصحاب المهن فى طباع وعادات معينة ، ولا يشبه أحـدا لوجود مميزات وفروق لدى كل واحد فى طرائق الادراك والشـعور والسلوك ، والتى تطبعه بطابع مميز لا يتكرر مع بقية أفراد النـوع البشرى ، ويذهبون الى أن هـذا التمييز يتم بالتدريج أثنـاء حالات النمو والتكوين ، ويبدأ من البساطة الى التعقيد ، ومن الرأس الى القدم ، ويكون النمو متسلسلا ومنظما ، كل مرحلة تأتى نتيجة لمـا سبقها ، وكل مرحلة لهـا ظروفها التى لا تتساوى فيها مع سابقتها ، والتى تختلف من فرد الى فرد آخر (١٤) •

يقولون ان الشخصية تنصرف الى الذات الفردية ومع ذلك تتجه الأكثرية الى اعتبار الشخصية نتيجة التكيف مع المحيط الخـارجى ،

---

(١٣) تفسير الكشاف ج١ ٦٦١.

(١٤) د/ محمد الهاشمى : علم النفس التكوينى ٦٤ — ٦٨.

أو ثمــرة مكونة من استعدادات داخلية ومؤثرات خارجيــة ، وعامل الاستجابة للمؤثرات الخارجية ، أو عنصر الاشتراك بين الاستعدادات المركوزة والمؤثرات الخارجية لا يجعــل التركيز على فهم الشخصية محدودا بحدود الذات وحدها بلا أى اعتبار غيرها ، ويبدو أن صعوبة فهم الذات فى عمقها الداخلى ، وعدم جدوى أى آلة تجريبية للوصول الى عالم النفس العجيب قد اضــطرهم للجــوء الى عامل المؤثــرات الخارجية ليروا تأثيرها فى النفس ، وانفعال الذات بها ، ومن ثم يصلون الى حكم ما حول الشخصية التى يلاحظونها ، والمهم أنهم تجاوزوا هدف البحث عن الشخصية فى استقلالها التام ، وتخلوا عن المهمة الرئيسية التى تكمن وراء اثارة موضــوع الشخصــية الانسانيــة ، وضرورة دراســتها •

وأما الأخطاء التى يعترفون بها فتظهر فى صعوبة التعريف كما سبق ، وفى نقد أى تعريف يصدر عن أنصار مدرسة معينة ، وأخــيرا يقولون انها تعريفات افتراضية •

لهــذا كله يكون مصطلح الشخصية شائعا وليس دقيقا ، وأنه لم يصور عمق الذات البشرية تصويرا حسب ما هى عليه ، والأصــل أنه لم يوضع لحالة الذات البشرية مع الجو المحيط بها ، فلندرك عظمة القــرآن فى تعبيره ، ودقتــه فى مصطلحاته (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) •

منابع التكوين اجمــالا :

على أى أساس تبنى ذات الانسان ، وتتكون جوانبه تكوينــا يتحكم فى ســلوكه ؟

كثير من الباحثين يؤثرون الانتقال المفاجىء للاجابة على هــذا السؤال الى رحاب الدين ، ويأخذون فى بيان المزايا التى يتمتع بهــا العلاج الدينى ، وفى سرد درجات الأفضلية التى يتفوق بها المنبــع الروحى ، دون أى اعتبار للنظرات العارضة •

ولكننا لن نسلك هـذا المسلك قبل أن نقف وقفة مناسبة مع أولئك الذين يعتمدون فى انمـاء الانسان وتكوينه على أسس فكرية مختلفـة أو على مصادر دنيوية كما يحلو للبعض أن يسميها •

ففى الجانب الفلسفى نجد (هيجل) يعتمد الجانب السياسى ، ويركن (جان جاك روسو) الى الأساس الاجتماعى ، ويتمسك الماديون بالجانب الدينامى والاقتصادى كما ذهب ماركس (١٥) ، ويفتش علمـاء النفس فى أغوار الطبيعة البشرية ، ويبنون تربيتهم للشخصة الانسانية على ركائز من اشباع الدوافع ، وتنمية القـدرات ، وتربية الوجدان ، والعمل على احداث التوافق بين الطبيعة البشرية والمحيط الاجتماعى ، وضرورة افادة الأولى من البيئة والثقافة الذائعة (١٦) •

وهنـاك أنصار المصـدر الدينى الذين يفضلونه عما سـواه بحماس ووعى •

فأى المنابع أولى بالاتباع ، وأفضل أن تسود وتسيطر على اعداد الانسان وصياغته ؟

لكى نميز منبعا على منبع سنؤثر الجانب النقـدى ، ونسـتمع بالذات الى اتباع المدارس النفسية عما يعانيه تخصصهم من قصور ، وما يفضلونه فى تربية النفس وتكوينها ، ثم بعد ذلك نتجه سويا الى أختيار المنبع الأفضل ، والذى لا يمكن فى دراسة النفس واعدادها وعلاجها أن يصير الأمر الى غيره •

---

(١٥) هذه نماذج سيقت على سبيل المثال لا السرد ، والا فكل انصار مذهب يرون الفكرة المذهبية لديهم هى المنبع الاصيل الذى تتربى عليـه الشخصية ، فلو سالت مفكرا مثاليا عقليا لأجابك بان تكوين الشخصية وتربية الانسان يعتمد على انماء العقل والمعرفة الكلية لا الحسية ، وبالعكس يرى الحسيون الى آخره

(١٦) د/ مصطفى فهمى : الانسان وصحته النفسية ٨٥ .

لا تأثير للمنابع الدنيوية على النفس المؤمنة :

ان الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية قد تساعد على انماء النفس فى حالة اعتدال تلك الظروف واتساقها ، وقد تؤرق النفس ، وتخلق فيها عقدا واضطرابا ، وتؤثر بشكل حاد على الأفراد • وربما تولد صراعا محتدما بين الجماعة ، ولكنها على أى حال لا تعصف بنفوس الأسوياء من البشر ، ولا تهز كيان الموقنين أو المطمئنين ، وكم من الظروف السياسية الصعبة ، والاقتصادية القاسية ، والاجتماعية المعقدة التى اجتازها أرباب النفوس الكبيرة بهمة فائقة ، وقلوب راسخة وارادة فولاذية ، وأحيانا يستشعرون اللذة والسعادة فى تلك الشدائد أيا كان لونها ، وقد تكون هى الأسلوب الأمثل للتربية والتمحيص ، ونتذكر فى ذلك مواقف التعذيب لأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فى مكة ، وألوان الاضطهاد والتنكيل ، ومشكلة المقاطعة وصحيفتا وما قاسى بسببها الصحابة من جوع وألم بدنى ، وساعات الحرج الشديدة فى بدر واحد والأحزاب وحنين ، وما انفرجت عنه تلك الأزمات من قوة روحية ونفسية وشخصية لا تبارى •

كما نتذكر الأزمة الشعورية والسياسية والدينية والاجتماعية التى واجهت المسلمين ابان انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى واختلاف المسلمين حول الخلافة وارتداد الكثير عن الاسلام ومنع الزكاة الى آخره ، وكيف واجهت النفس المؤمنة ، والشخصيات الكاملة تلك الظروف فى شجاعة منقطعة النظير ولم تعصف بها تلك العواصف ، ولقد مرت أزمات متعددة الأشكال والألوان لم تحدث اضطرابا ولا عقدا الا عند أرباب النفوس التى لم يتملكها الايمان ، ولم تتهذب على أحكام الاسلام تهذيبا يحفظها أمام تلك المحن •

ولاترجع حالة الاتزان فى ساعة الشدائد الى التواكلية التى تسمح بمرور الموقف الصعب بعيدا عن تيار النفس ومجرى الشعور ، وانما تعود تلك الحالة التى تبدو فيها النفس ثابتة مطمئنة على الرغم من

العواصف العاتية الى وعى الذات المؤمنة ونضجها ، والى درجة الثبات النفسى واليقين الراسخ التى تتميز بها ، والى نظرتها للغايات والأهداف ومدى تقــدمها صوب ما تبغى ، وبالطبع لا يؤلها الجانب الاقتصادى ، ولا يؤثر فيها ظرف سياسى أو اجتماعى طالمـــا أنها تعرف سبيلا الى غاياتها المثلى وتقوم بواجباتها ، وتأخذ فى أسباب التحقيق اللازمة لها ، فقــد ضربت ببصرها ونظرها بعيدا عن الجو المحيط بها ، وتعلقت بآمال أبعــد من أمانى الحياة المحــدودة ، ثم ان العبادة ، ودرجة التصفية النفسية هذبت من تلك الذات وعالجت جوانبها فلم يعــد يؤرقها ظرف طارىء مهما كانت حدته أو نوعيته .

وأعطى الأنبياء تلك الحالة أهمية قصوى ، وأهلوا النفس البشرية لملاقاة الصعاب ، وأخبروها أنها سوف نجد على طريق حياتها وجهادها محنا قاسية تبلى فيها النفس وتختبر ، ويفتن بها المؤمنون ، ولن يجتاز شدتها الا أرباب اليقين والصدق والصبر والعلم بقانون الصراع بين الحق والباطل ، وما يقتضيه من شجاعة ومثالية ايمانية فائقة .

ولقــد أعجبنى تعليق لــ (هـ . ا أوفرستريت) على مسـألة الصلب لسيدنا عيسى ، وطبعا هذا من وجهة نظر المعلق وهو مسيحى يؤمن بالصلب على عكس ما نؤمن به نحن المسلمين ، قال فى تعليقــه (وقــد نقل عن السيد المسيح عليه السلام أنه عندما صلب تفوه بأنضج ما يمكن أن يتفوه به انسان معذب فبينما كانت آلامه تجعل من آخــر لحظات حياته جحيما لم يكن ثمة ما يسوغه كان يتجه الى ربه داعيا : « يا أبتاه اغفر لهم انهم لا يعلمون ماذا يفعلون ») [١٧] .

ووجه اعجابى بهذا التعليق منحصر فى جانب واحد وهو الاشارة الى أن الايمان والوعى والنضج النفسى المنبثق منه لا يجعــل نفس

---

(١٧) هـ ا اوفر ستريت : العقل الناضج ترجمه د/ عبدالعزيز القوصى، السيد محمد عثمان (ط الثانية ١٩٦٣) ١١٠ مطبعة مصر .

المؤمن فى حالة من الرضــا السلبى ازاء المواقف الصعبة وأصحابها ، وانما يغمسه فى رضا ايجابى لا يجزع ولا يتأثر تأثيرا يصيب اعتدال نفسه واتزانها ، أو يبعث فيهــا القلق والاضطراب بل يثبت ويرضى ويدعو لمن يؤذيه ، ويلتمس لهم العــذر فى أنهم يجهلون ما يقدمون عليه، فهو شر بالنسبة لايمانى وادراكى ونضجى خير من وجهة نظرهم القاصرة ووعيهم الفج •

واذا كانت تلك الحادثة التى سبق بصددها التعليق محل شــك وانكار فان نظيرتها عند النبى صلى الله عليه يوم ضرب فى ثقيف وجاءه الملك يسأله ان كان يريد الانتقام فقال قولته الذائعة (اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون عسى أن يخرج من ظهورهم من يعبــد الله وحده) هــذه الحادثة ليست محل شك على أى نحو من الأنحاء •

وقصة أصحاب الأخدود وهم يلقون فى النار بثبات ويقين ، وقصة بلال وعمار وأمه وأبيه ، وخبيب بن عدى وهو ينشد قبيل استشهاده بدقائق قائلا •

ولست أبالى حين أقتل مســلما على أى جنب كان فى الله مصرعى

كل هذا ليؤكد تأكيدا قويا أن الأزمات السياســية والاجتماعية والاقتصادية لا تؤثر فى الرجال الذين تربوا تربية دينية سليمة •

عجز الوسائل الحديثة عن فهم النفس وتكوينها :

بعــد أن بينا أن الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية لا تنهض بمفردها لتكون منابع تتربى عليها النفس ، كما أنها لا تؤثر بالأمراض أو التعقيد فى نفوس المؤمنين ، وهى لا تفعل ذلك الا بالنسبة لنفوس الدنيويين فحسب ، نأتى الآن الى علماء النفس لننظر هل فى مقدورهم بما توصلوا اليــه من مختبرات ومعامل نفسية أن يسبروا

أغوار النفس ، وأن يتولوا بالتكوين والاعداد ثم العلاج ان مرضت أو أصابها صائب ؟

وفى البداية نسمعهم وهم يهمسون بين الحين والحين داخل أروقة معاملم أن النفس عالم ملىء بالأعاجيب والغرابة ، ومما يظهر أن العصر الذى كانت فيه النفس داخل الاطار الفلسفى قبل أن يؤسس العالمان الألمانيان (فخنر ١٨٠١ — ١٨٧٧ ، وفنت ١٨٣٢ — ١٩٢٠) معاملهما التجريبية ، كان الفلاسفة أجرأ على اقتحام النفس واصدار الأحكام ، وكانوا لا يتصورون النفس بهذه السعة والضخامة ، والعمق والتعقيد ، وكنا نظن أن انسلاخ النفس من الميدان الفلسفى النظرى ودخولها فى اطار العلوم الترجيبية سوف يحل كثيرا من ألغازها ، ويكشف فيضا من أسرارها ، وسوف تتوارى عبارات الحيرة والذهول، وتنضب من الأفواه ألفاظ الشدة بعالم النفس الرحب .

ولكن الأمر جاء على غير ما ننتظر ، لقد اكتشفوا تحت ضوء معاملهم صعوبة الوصول الى متاهات النفس وخفاياها ، وبدلا من أنها تضع تلك الذات أمام بصر المجرب فينظر فى خيولها من أولها الى آخرها، ويتجول فى جنباتا محصيا وعادا ، ثم عارفا أن ملما تبين لهم بوسائل العلم أن النفس الانسانية أفسح رحابة منتلك الآلات ، وأن ما ابتكروه من علاجات لا تتفق وما عليه النفس .

ولندلل على ما نقول بمثال واحد ، شغل علماء النفس بالعلاقة بين العمر النفسى العقلى والعمر الزمنى ، وأدركوا أن تلك العلاقة ليست مضطردة ، فابن عشر سنوات قد يكون عمره النفسى فى سن الخامسة أو العكس ، وابن الخمسين قد يكون عمره الانفعالى فى سن العشرين والعكس ، ولأن تلك العلاقة ليست مضطردة ، والحال أننا مضطرون الى التعامل على أساس معين فقد رضى البشر أن يتعاملوا بالعمر الزمنى غير عابئين بالعمر النفسى مع أنه هو الأجدر بالتعامل .

والمهم أنه لبيان تلك العلاقة ولقياس العمر النفسى اكتشف (الفرد بينية) فى أواخر القرن الماضى وأوائل الحاضر مقياسا لمعرفة العمر النفسى ودرجة الذكاء ، ومنذ ذلك الحين والعلماء يجرون تعديلات على مقياس العالم الفرنسى (بينيه) ومع ذلك كله يقول (أوفرستريت) الفيلسوف والعالم النفسى والتربوى الأمريكى المعاصر (ان فكرة العمر النفسى تكشف لنا عن جوانب فى النفس البشرية على درجة من الخصوبة والتعقيد لم نكن لندركها من قبل) ويضيف : أن كشوفنا لمعرفة نفوسنا وتصرفاتها الفجة ما زالت فى بداية الطريق ، ويقول مرة ثالثة (ان الطريقة العلمية لا تعتبر فى العادة نفاذا الى الطبيعة البشرية) وعن مدى ما وصل اليه العلم من معرفة بتلك الطبيعة يؤكد بأننا (مازلنا بعيدين كل البعد عن أستكمال معرفتنا بالطبيعة البشرية) [١٨].

واذا وصل الحال الى ما نرى وما نسمع فلا يعقل أن ندع أمر التكوين النفسى الى العلم ، وشأنه فى معرفة النفس والالمام بها ما زال فى أول الطريق ، وشكواه من سعتها وتعقيدها تملأ الآذان ، واقراره بأن الطريقة العلمية فى التجريب لا يعتد بها منفذا صحيحا وملائما لكشف الحقيقة التى تنطوى عليها طبيعة البشر .

قصور العلاج النفسى بالطرق الحديثة :

يترتب على غموض النفس ، وعدم القدرة على اكتشافها بالمختبرات والمعامل العصرية قصور ملحوظ فى طرق العلاج المقترحة أو المتبعة ، وكما شكا علماء النفس من تعقيدها وعجزهم عن سير أغوارها فقد شكوا من سبل العلاج وأدركوا عجزها عن تحقيق قدر مناسب من الراحة ، واعادة الاتزان للنفس التى فقدت اعتدالها ، واختلت قواها ، وليس هذا فحسب بل انهم عجزوا عن ايقاف المد العصابى الذى يصيب البشرية فى أفضل ممتلكاتها وهى النفس والعقل ، وأصبحت الأمراض النفسية

---

(١٨) العقل الناضج ١٦ ، ١٩ ، ١٤٣ ، ٧٨

من أوسع الأمراض الانسانية انتشارا ، وتقع في مقدمتها كلها ، بل وصار معدل المرض مساويا لجميع الأمراض العضوية كلها .

ونجد هذه اللهجة بحقائقها على ألسن كبار المختصين النفسيين ، فقد استعرض الدكتور مصطفى فهمى طرق العلاج فى القديم والحديث، وتابعها من بداية السحر والشعوذة والتمائم حتى العصور الوسطى الى التنويم المغناطيسى فى نهاية القرن الثامن عشر ، الى التحليل النفسى فى القرن التاسع عشر على أيدى (فرويد) ، الى العلاج بالكهرباء والصدمات ، الى العلاج بالكيماويات والعقاقير فى السنين الأخيرة ، ثم بعد ذلك فقد أبرزها وأهمها رواجا وذيوعا فقال :

ان التحليل النفسى عملية شاقة طويلة تحتاج الى جهد وصبر كبيرين من المحلل والمريض ، ولابد لمن يقوم به من خبرة نظرية واسعة بالنفس البشرية ، ومن تدريب عملى طويل ، أضف الى ذلك أن التحليل يكلف المريض تكاليف باهظة لا طاقة للغالبية العظمى من المرضى على احتمالها ..) مما يجعل الكثير منهم يترك العلاج قبل اتمامه بسبب عجزهم المادى ، واذ اعترفوا سلفا بالعجز عن ادراك السعة النفسية فأنى لهم بالخبرة النظرية بتلك النفس ، وأنى لهم بعد ذلك بالخبرة العملية طالما أن الجانب النظرى التى يمد رجال الخبرة بالارشاد والقواعد مفقود ؟

ويقرر أن العلاج بالكهرباء على الرغم من شيوعه فى المحافل الطبية (الا أنه ما زالت هناك علامات استفهام كثيرة حوله) والبعض يقبله ، والبعض يرفضه ، وبعض الدول توقفت تماما عن استعماله .

وأما استخدام الكيمياء والعقاقير فى التداوى فانه مع التقدم الكبير فى استعمالها (الا أن استخدامها ما زال مبنيا على أساس من الخبرة فقط بحيث انه لم يعرف حتى الآن كيف تؤدى هذه العقاقير دورها فى العلاج بالضبط) أى أن النقص فى الجانب النظرى النفسى

يتبعه فقـدان المعرفة بالعلاقة المباشرة ، والتأثير الفعال للدواء على المرض ، والدورة العلاجية التى يقوم بها العقار داخل النفس ويحدث من خلالها اعتدالا وانسجاما فى النشاط النفسى ، وبات أمر العلاج بالعقاقير مبنيا على قاعدة الصواب والخطأ ، وملاحظة الحالات الايجابية له مع المرضى الذين تتشابه أعراضهم ، وحتى هذه فغير مأمونة لأن التشابه فى الأغراض لا يعنى وحدة الداء ، وبالتالى لا يعنى وحـدة الدواء •

ثم يصدر الدكتور مصطفى فهمى أحكامه الكلية قائلا (ان فرص الشفاء فى العلاجات الحالية لاستئصال المرض قليلة ، وان كل ما تنعمه الأساليب العلاجية على مستوياتا المختلفة لا تخرج عن كونها مسكنات تعمل على التقليل من الآلام شأنها فى ذلك شأن قرص الاسبيرين الذى يخفف من شدة آلام الصداع ولكنه لا يزيل هذه الآلام) •

ويقول من باب دفع التهمة عن نفسه ، وازالة اللبس (ان نتـائج العلاج النفسى المعاصر غير مؤكدة ، ولسنا فيما نقول من المتجنين على المعرفة العلمية ، فقـد مهد لهذا الاتجاه مجموعة من الخبراء أصحاب التخصصات المختلفة فى علوم النفس والاجتماع والطب والدين والأخلاق والتربية ، اجتمع هؤلاء جميعا فى عام ١٩٥٥ فى صورة حلقة دينية بناء على دعوة الجمعية الأمريكية للطب النفسى) وكان من أهم نتائج هذه الجمهرة من العلماء أن قرروا ما يلى :

- ان العلاج النفسى فى الوقت الحاضر فى حالة تشبه تلك التى كانت عليه منذ أكثر من مائتى عام ، اننا فى هذه المرحلة كنا نحارب بعضنا ، بعضا ليحصل كل منا على مكان مرموق فى هـذا المضمار ، أو بعبـارة أخرى ليجلس على العرش ، وفاتنـا جميعا أن أمثال هذه العروش من النوع غير الثابت (المهتز) مثلها فى ذلك مثل مقعد بثلاثة أرجل ، وسرعان ما ينقلب رأسا على عقب) •

ويستطرد قائلا (نحن الآن فى أزمة ، كنا نقول فى الماضى للمواطن الذى يعانى من قسوة الاضطراب إنك تحتاج الى علاج نفسى ، ولكننا اليوم ندرك أن وسائل العلاج السائد فى الوقت الحاضر تحتاج هى نفسها الى علاج نفسى لأنها أصبحت قليلة الأثر فى النفوس المضطربة من جهة ، كما أن أعداد المرضى أخذت تتضاعف وتتكاثر من جهة أخرى بشكل يدعو الى الدهشة ، والى ضرورة اعادة النظر فى هذه الأساليب العلاجية للكشف عن طريق جديد للخلاص) •

واذا ظل أطباء النفس يقولون ان كل ما يحتاجه المريض هو مزيد من العناية فان مثل هذا الاتجاه سوف يجعل العلاج النفس يدور فى حلقة مفرغة ، تؤدى الى انحدار المريض وتعاسته •

ويسوق تأكيدا على ما يذهب اليه بعض نتائج الاحصاءات عن الحالة الصحية للنفس البشرية ، ومدى ما أصابها من اضطراب وعلل ، وتدل تلك الاحصاءات أن المرضى النفسانيين يعيشون فى الوقت الحاضر فى عالم مظلم كئيب تحطمهم عوامل القلق والخوف والاكتئاب ، ولقد تفشت تلك الامراض بين أبناء القرن العشرين بصورة مفزعة ، حتى استرعت انتباه الباحثين ، كما ظهر من خلال الاحصاءات والبحوث التى أجريت فى أمريكا على سبيل المثال أن أكثر من ٦٪ من السكان يعانون نوعا من سوء التوافق • وأن واحدا من كل عشرة من السكان يحتاج الى معونة الطبيب النفسى ان عاجلا أو آجلا ، وأن واحدا من كل ثمانية عشر شخصا يقضى بعض الوقت فى مستشفى عقلى ، وأن عدد من يدخلون هذه المشافى فى كل عام يساوي عدد من يتخرجون من الجامعات ، وأن المصابين بأمراض عقلية أى الجنون يشغلون من أسرة المشافى أكثر مما يشغله جميع المرضى بكافة الأمراض الأخرى ، وأن نصف من يترددون على أطباء البدن بعلل جسمية يعانون فى الواقع من اضطرابات نفسية انفعالية ، واذا تجاوزنا تقارير أمريكا الى بقية العالم

وجدنا أن ربع سكان العالم يعانى من الأمراض العصابية [١٩] .

وما فعله الدكتور مصطفى فهمى موجزا بسطه الدكتور سيد غنيم مطولا حيث تناول مدارس العلاج النفسى واحدة تلك الأخرى ، ثم أردفها بجوانب النقص الذريع التى تتسم بها كل نظرية [٢٠] .

الحل الدينى هو أساس التكوين :

بعـد أن عرفنا أن النفس البشرية كائن غريب ما زلنـا نجهل حقيقته ، ونحن نعرف بعض مظاهرها السوية والمريضة ولا نستطيع علاج إنحرافها ، والعلاج التجريبى تقدم قليلا ، ولكن تقدمه كشف له كثير من أوجه الغموض فى النفس ، وأوضح فى الوقت ذاته أنه عاجز عن توصيف الحالات المرضية توصـيفا دقيقا ، وترتب على الغموض والعجز عن المعرفة النظرية والتشخيصية عدم الافادة من وسائل العلاج الحديث ! بعـد هذا كله ارتفعت الأصوات فى الشرق والغرب تنـادى بالبديل ، وتتساءل عن الحل ؟ وبدأ المعالجون النفسيون يلحون فى (أن شيئا ما يجب أن يعمل)

وجاءت الاجابات الدقيقة تشير الى الحل الدينى بصراحة واضحة ، ويلخص الدكتور مصطفى فهمى تلك الوجهة وما ذهب اليه دعاتها هنا وهناك فيقول : ان الدين هو المنبع الحقيقى للتكوين والعلاج معا .

أما أنه هو أساس التكوين الذاتى والاجتماعى للانسـان فاننا اذا سعينا الى اعداد الانسان المؤمن الذى يعرف دينه ويعرف ربه ... الانسان صاحب الارادة والعقيدة .. الانسان المستقل الحر فى دائرة

---

(١٩) د/ مصطفى فهمى : الانسان وصحته النفسـية ١٩ ، ١٢٠ ، ١٧٢ ، ٢٦٢ ، وما بعـدها .

(٢٠) سيكولوجية الشخصية ٢ — ٤٠

المجموع ... الانسان الذى يسعى الى فتح الباب واسعا أمام التطور الانسانى : الاجتماعى والثقافى والفكرى ... الانسان الذى تسيطر عليه فكرة حب المجموع ، والغاء الحروب والقضاء على الاستغلال فان هذه الصفات الايجابية (لا يمكن أن تكون عن طريق التداعى الحر فى التنويم المغناطيسى — أو تفسير الأحلام ، أو الكشف عن كوامن النفس اللاشعورى ، أو عن طريق الصدمات الكهربائية ، أو المسكنات والمهدئات أى عن طريق الكيمياء) وانما تكون عن طريق الدين ، والدين وحده ، (وذلك لأن الدين أولا وأخيرا هو رسالة انسانية تسهم فى بناء الانسان كفرد له شخصية معينة) .

والدين هو الطريق الى العقل والقلب ، وهو الذى يحدث نوعا من تطهير المخ للفرد ، وهو أيضا الطريق الى بقاء ودوام القيم الانسانية التى تعتبر اطارا مرجعيا لسلوك الفرد وتصرفاته وأسلوب حياته .

وأما أنه أساس لعلاج الانسان مما يعتريه فان الكائن البشرى تجتاحه فى حياته بصفة عامة ، وعصره الحاضر بصفة خاصة أزمات متعددة ، منها ما هو نفسى صرف ، أو سياسى أو اقتصادى ، أو اجتماعى ولن يقضي على تلك الأزمات بوسائل فكرية أو وضعية ، ولا بمنابع انسانية ، وانما بالمنبع الدينى والروحى فحسب .

لقد تحمس كثيرا (أرنولد توينبى) فى كتابه « دراسة فى التاريخ » للمنبع الروحى قائلا : ان الانسان بما (هو فعل وحرية مسئولة ، وايمان ومحبة ، وبما هو فى جوهر انسانيته تلك الطاقة الروحية الخلاقة القادرة أن تؤكد وأن تسخر بالتالى جميع ما ينبثق عنها من النشاطات العقلية والمادية فى سبيل تحقيق الغاية المثلى من وجودها هو المسئول ، وهو المستطيع أن ينتصر على الأزمة — وكل أزمة — وأن يخرج منها أقوى وأكمل) قال هذا بعد أن فند كل أساس سياسى أو اقتصادى ،

أو اجتماعى يدعيه بعضهم لتكوين شخصية الانسان ، وقرر أن الجانب الدينى والروحى هو المنبع الحقيقى لهذا التكوين وهو العلاج الحاسم لكل أزمة تعترى الكائن البشرى .

أما الدكتور مصطفى فهمى فيرى أن (الدين من العوامل المعينة للانسان للتغلب على التوترات والصراعات التى يتعرض لها ، فقد ساعد الأفراد على ممر العصور والأزمنة على مواجهة قوى الظلم والاستبداد ، من أجل هذا كله ظهرت محاولات عدة لصياغة الكثير من القواعد والمبادىء الدينية فى قوالب نفسية) تسمى عند (مورر) علم النفس الدينى ، ويتمسك بها كثير من علماء النفس قائلين (ان هذه المحاولات النفسية ذات الأصول الدينية سوف تنقذ البشرية) (٢١) وسوف لا نبحث عن راحتنا النفسية بعيدا عن قلوبنا أو بعيدا عن اسلامنا وايماننا .

النظرية الدينية العامة فى التكوين الانسانى

لا نستطيع بأى حال من الأحوال أن نقف على نظرية واحدة ذات طابع انسانى فى اعداد الشخصية الانسانية ، وذلك لسبب بسيط وهو أن كل مدرسة من المدارس التى تعرضت لهذا الجانب ادعت أن فكرتها الرئيسية هى المبدأ الأول الذى يحكم سلوك الانسان ويخضعه لمعاييره ، وبمقدار قرب الانسان من هذا المبدأ والتزامه به تكون قوة الشخصية وكمالها من وجهة نظر كل فريق ، واذا ، نأت الشخصية بعبدا عن الأساس الأول لدى هؤلاء أو هؤلاء اعتبروها شخصية غير سوية أو شخصية مريضة .

وأود أن أقول فى هذا الصدد ان النظريات الانسانية أو الدنيوية تتكاثر على نفسها بشكل ملحوظ فعلى الرغم من أنه يمكن حصرها فى عدة

---

(٢١) د. مصطفى فهمى : الانسان وصحته النفسية ٨٥ ، ١٧١ ، ٢٦٤ — ٢٦٥ .

نظريات عامة الا أن الذين ينتمون الى تلك النظريات العامة يفرعون منها نظريات خاصة ، وتكون النتيجة مجموعة من المبادىء والأفكار تتوالد يوما بعد يوم ومن مفكر أو عالم الى آخر •

وعلى سبيل المثال فنجد داخل نظرية الدوافع فكرة التحليل النفسى عند (فرويد) وفكرة العقد اللاشعورية وضرورة البحث عنها بالتحليل، فنجد تلاميذه قد انقسموا عليه ، كما نجد له (مكدوجل) رأيا آخر يخالف هذا وذاك ، وبالبحث والتقصى نجد هذا التفرق عند علماء النفس الذين يرون أن سلوك الانسان وشخصيته لا تحددهما دوافع ذاتية وراثية أو مكتسبة وانما تحددها عوامل اجتماعية تحبط به ، كما نجد التنازع بين العلماء الذين ينظرون الى الانسان على أنه كائن دينامى وأن تصرفاته خاضعة للجانب العضوى الفسيولوجى ، كل هؤلاء بنظرياتهم المتعددة ينقسمون فيما بينهم كل أتباع نظرية يذهبون مذاهب شتى على أنفسهم ، هذا فضلا عن اختلافهم على غيرهم من أرباب النظريات المخالفة ، والمحصلة عدم وجود نظرية واحدة فى تفسير السلوك واعداد الشخصية وتكوينها ، وتحديد الهدف السليم من وجود الكائن البشرى •

ويرجع هذا الى عدم الالمام بالنفس الانسانية وفهمها ، الأمر الذى لم يجمعهم على نظرية واحدة ، فمنهم من اعتبر الانسان ، غرائز يتصرف بمحض القوى الدافعة المحركة ، فأما أن يشبعها أو تستنكفه على الاعتدال ، ويختل مزاجها ، لا آخرون يجعلونه كائنا مستقبلا ومستجيبا لضغوط محيطة ، وفريق ثالث ينظرون اليه على أنه حيوان حى تحركه وظائفه العضوية •

والمنهج القرآنى لم ينظر الى الانسان نظرة متفرقة انما اعتبره كائنا يحوى مجموعة من الدوافع تثير وظائف عضوية يحيا بها ، ووسطا اجتماعيا يتحرى من خلاله يفيده ويستفيد منه ، ويؤثر فيه ويتأثر به ،

وتقوم النظرية الدينية فى القرآن على مراعاة هـذه الجوانب الثلاثة واعتبارها لكن لا على أنا صـلب المبدأ الأساسى الذى جاء من أجـله الانسان الى الكون بـ لعلى أنها ضرورات لتطبيق المبدأ ، وأما النظرة الرئيسـية التى هـى مناط وجود هـذا الكائن المتميز فهى منحصرة فى تحقيق العبودية لله وحده ، عبودية يخضع فيها العبـد لله خضـوعا كاملا ، ويتبع أوامره وتكاليفه ويستجيب لحكمه وارشاده ، عبودية تؤمن بوجود اله واحد يستحق العبادة والطاعة ، ويخضع الانسان فى سلوكه لتوجيه الحق سـبحانه ، ويتوافق توافقا كاملا فى عقيدته وأخلاقه ، ويستقيم استقامة صرفة على حكم الله فى أعماله كى يكون عمله مقبولا وصالحا •

فصـلب النظرية الدينيـة يقوم على الجانب الروحى وتنميته وتزكيته واعتبار كل جانب آخر عضوى أو نفسى دائرا فى اطار الجانب الروحى وتابعا له والتوافق الحقيقى ، والتكيف السليم هو العمل على انتصار هذا المبدأعلى ما سواه ، وعلى الانسان أن يتأهب دائما لعملية الصراع التى سوف يجرى رحاها داخل نفسه بين الخير والشر ، بين النور والظلام ، بين الحق والبـاطل ، بين عواطف الايمان وأخلاقه ونزوات النفس وأغواء الشـيطان ، بين الحقائق البينة والشهوات المزينة ، وسـوف يحتدم هذا الصراع بين قطبى النفس : الأمارة من طرف ، واللوامة حينا أو المطمئنه حينا من طرف آخر ، وبمقدار وعى الانسـان وانتباهه الجيـد لمـا يجرى فى أعماقه ، ومعرفته بذاته ، واستبطانه لنفسه ، وانتصاره الارادى والشعورى للمبـدأ الروحى ، ولمبدأ تحقيق العبودية سوف تسمو روحه ، وتتفوق قوى الخير ودوافعه فى أعماقه ، ويستقيم خلقه ، ويعتدل سلوكه ، وتصلح أعماله ، ويتوافق نفسا ، ويعتدل مزاجا ، ويطيب داخليا ، ويتكيف خارجا ، بل ويصح بدنـــا •

والمنج القرآنى يوضـح باستمرار للانسان كيف يحقق الراحة

النفسية ، والسلام العقلى والادراكى القائمين على غلبة الروح وسموها وكيف ينمى القوى البناءة فى النفس الانسانية لتتفوق على غيرها من القوى الهادمة ، وليتسامى الجانب الروحى باستمرار ويتزايد ، يقول الراغب الأصفهانى فى هذا الصدد مبينا صلب هذه النظرية المتسامية بالنفس الانسانية .

واعلم أنه قبيح بذى العقل أن يكون بهيمة ، وقــد أمكنه أن يكون انسانا ، أو انسانا وقــد أمكنه أن يكون ملكا ، وأن يرضى بقنية معارة وحياة مستردة ولا أن يتخذ قنية مخلدة وحياة أبدية مؤيدة) وتمثــل قول أبى تمام .

فــلم يــر فى عيوب النــاس شىء كنقص القادرين على التمام(٢٢)

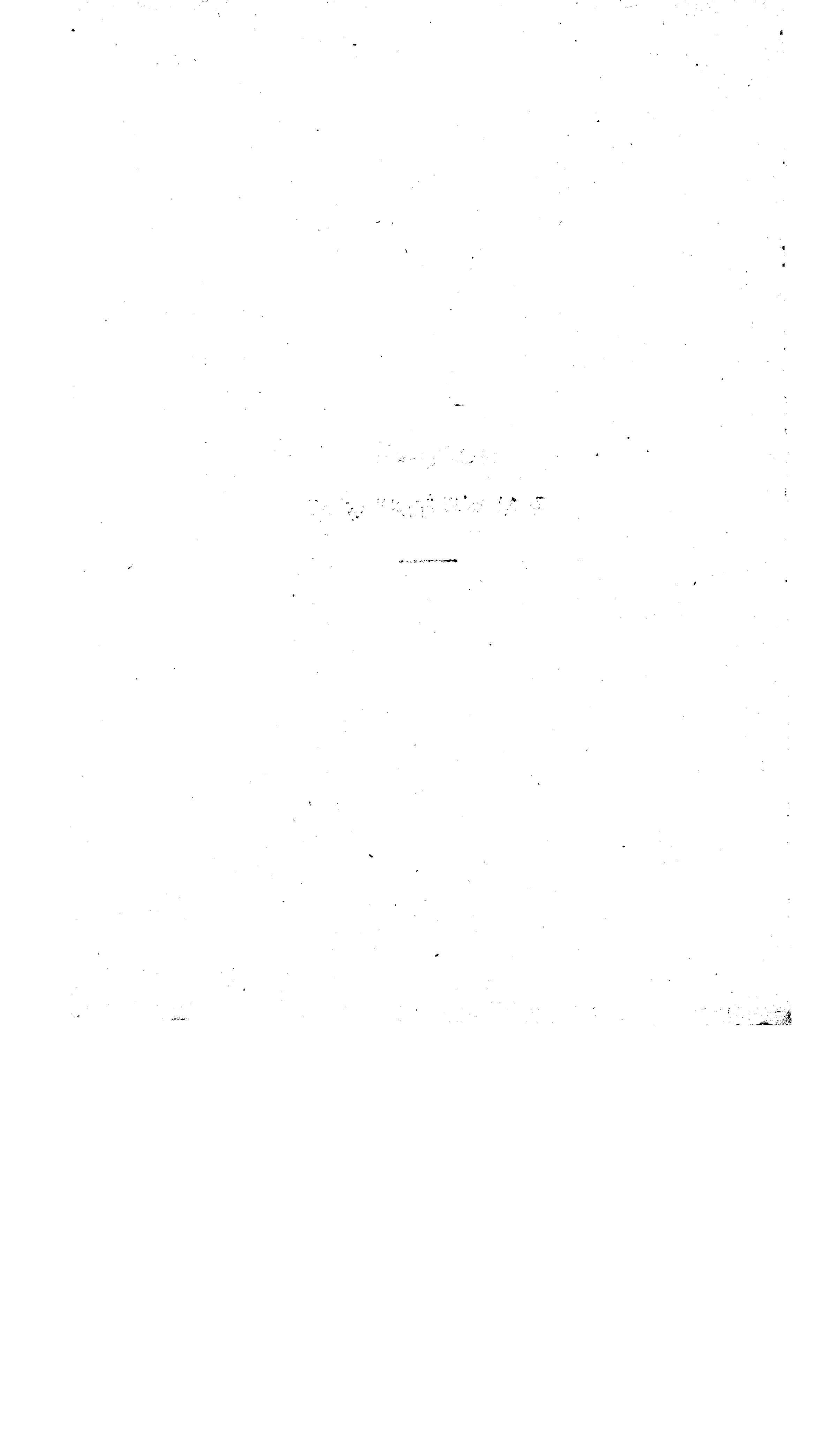
ومن الجــدير بالذكر أن كثيرا من المنصفين « اعترفوا بأن علم النفس أفاد فائدة كبرى من القرآن الكريم وحديثه عن أصناف النفس » وصفاتها ومظاهرها وسلوكها ، ولا قيمة لتلك الشهادة مع وفرة النصوص فى الكتاب والسنة التى تتناول النفس الانسانية ، وكانت مجالا رحبا أمام أرباب القول والنظر بمعارف جمــة عن تلك القوة ، ومن يقرأ أقوال الصحابة فى النفس ودقائقها ، والتحذير منها ، ويتابع توسع التابعين وتابعيهم وشغلهم بهذا الموضوع ، أويقرأ مؤلفات المحاسبى وأبى طالب المكى وابن حزم ، والراغب الأصفهانى ، والغزالى يتأكد من أن القرآن والحديث أنشأ هذا العلم بين المسلمين كما أنشأ بقية العلوم الشرعية ، وكما أنشأ القرآن علم التاريخ ، وفى الحقيقة لايخلو مؤلف من مؤلفات المسلمين ، أو ترجمــات لأعلامهم الا وفيها حديث وفير عن النفس ، ويختلف طابع الحديث عنها لدى العلماء الذين لم يتأثروا بالفلسفة عما يوجد فى مؤلفات الكندى والفارابى وابن سينا الذين سايروا الاغريق فى كثير من أفكارهم النفسية .

---

(٢٢) الراغب الأصفهانى : الذريعة الى مكارم الشريعــة ٦١ تحقيق د. أبو يزيد العجمى .

الفصل الثانى

الجوانب التكوينية للذات البشرية



جوانب التكوين النفسى فى القرآن :

لم يسلك القرآن مسلك الدنيويين الذين ينظرون الى الانسان وشخصيته نظرة محدودة ، تعتمد على جانب واحد من الجوانب الانسانية : الغرائزية ، أو الجسمية ، أو العقلية ، أو الاجتماعية ، وانما نظر اليه نظرة شاملة ، جمعت بين تربية النفس الانسانية تبصيرها بذاتها وبالجو المحيط بها (١) ، وتوجيهما توجيها ربانيا نحو مبدأ أعلى وغاية واحدة عليا .

فكل ما يقوم به المنهج القرآنى من بناء وتقويم للبشرية يهدف الى اعداد الانسان للقيام بغايته المنوطة به من معرفة الله وطاعته ، وفى هذا الصدد يركز القرآن على جوانب ثلاثة هامة .

يركز على معرفة الذات ، ومعرفة امكانات النفس البشرية من ادراك ووعي ونفخة ربانية ، ويزكى الروح المعرفية لدى هذا المخلوق ، ويثير انتباهه الى الفهم والعلم واكتساب الخبرات ، ويلفت نظره الى ضرورة تحويل الجانب المعرفى الى احساس وشعور وانفعال وتطبيق فلا يكفى العلم أو القول بدون عمل ، كما يبصره بعنصر الخير والشر فى داخله وأهمية أن ينتصر الخير على الشر ، وأن يجاهد الانسان ، نزوات الشر وشهواتها مجاهدة تحقق سيادة الأول على الثانى ، وتقضى على أحدى القوى الخبيثة التى تصارع القوة الطيبة الحميدة ، وبذا تهدأ النفس وتطمئن ، وتسلك طريقها نحو هدفها بلا عقبات داخلية من ذاتها .

وأيضا يركز القرآن على علاقة العبد بربه ، ومعرفته به معرفة قائمة على التأمل والتدبر والتعقل ، معرفة تتحكم فى سلوك الانسان فلا يفعل فعلا مخالفا لما تقتضيه تلك المعرفة ، ولا يترك أمرا تحث عليه وتأمر به ومن هنا يتحلى الانسان فى داخله باليقين الايمانى ،

---

(١) انظر : محمد قطب منهج التربية الاسلامية ح ١ ١٨ — ٣٤ .

ويستقيم فى ظاهره على العمل الصالح والأخلاق الفاضلة النبيلة ، وكل من العمل والأخلاق نابعان من العلاقة الايمانية التى خضع فيها الانسان لاله واحد وطبقا لتشريع محكم .

وكذلك فان القرآن الكريم يوضح علاقات المؤمن بالكون ، وعمرانه ووعيه به ، وعلاقته بالآخرين من أصناف البشر الذين يختلفون فى عقائدهم واتجاهاتهم ، وما ينبغى أن يكون عليه فى أخلاقه مع كل صنف ، وماذا يمكن أخذه من الجو المحيط به ، وما لا يجوز التأثر به أو تشربه .

وبهذه الجوانب الثلاثة تكتمل شخصية الانسان وينضج وعيه ، ويرقى من مجرد الحيوانية الى الانسانية الى الكمال الانسانى المنشود ، الى التسامى الملائكى ، الى درجة الربانية ، ويتحقق له — بفضل الله — نعيما أبديا دائما ، وقنية مخلدة مؤبدة كما أوضح الأصفهانى فى نصه السابق .

وفى تعليق مجمل على هذه الجوانب التكوينية يقول مالك بن نبى : (لم يصنع الرسول صلى الله عليه وسلم نفوسا مؤمنة تقية فحسب ، وانما صنع عقولا مستنيرة ، وطرق ارادات فولازية ، انه ينمى الشعور بالمسئولية ، ويشجع المبادأة فى كل انسان ، ويعظم الفضيلة فى أبسط صورها ، دان التأسى والمسارعة لهما رائدا كل عضو فى الجماعة اذ يرى نفسه فى سباق الى الخير بحسب أمر القرآن (٢) وتوجيهه .

وسوف نقوم بتفصيل مناسب لتلك الجوانب الثلاثة :

الجانب الأول : معرفة الذات أو النفس :

تحدث القرآن الكريم عن الانسان بأسلوبين مختلفين : أحدهما يتعلق ببدايته وخلقه ، وكيف وجد بعد أن لم يكن شيئا ، وقد تناولنا هذا الجانب فى كتابنا « الدعوة الى الله » والآخر يتصل بالطبيعة

---

(٢) الظاهرة القرآنية ١٣٤ .

البشرية وما هى عليه فى تكوينها ، وحال النفس واستعدادها ونزعاتها وأقسامها ومسئولياتها الى آخره ، وهذا هو محل الحديث الآن .

وبالأسلوبين معا يكون الانسان قد حصل على معرفة واسعة عن بدايته ، وتكوينه الخلقى ومراحل هذا التكوين وعن طبيعته النفسية ونشاطها الادراكى ، وعناصر الخير والشر بها ، واستعدادها وقابليتها ، وليس لدينا الى الآن وسيلة معرفية نستطيع الكشف بها عن هاتين الحالتين : بداية الانسان ، ونشاطه النفسى ، ولقد استمعنا الى طرف من اعترافات علماء النفس بذلك فى الفصل السابق ، وحصلنا مع هذا على اقرار آخر بمدى الافادة التى كسبها علم النفس من رحاب القرآن فيما يتصل بالطبيعة البشرية ، ووصلت الينا عبارات الشكوى من طرق العلاج الحديثة وفشلها فى تحقيق الطمأنينة النفسية ، وأخيرا قرروا أن المعرفة النفسية ، واكتشاف خبايا هذا الجانب ، وعلاجه كل ذلك يكمن فى الدين ، والدين وحده .

ومن الملاحظات العامة التى نتبينها من خلال حديث القرآن عن الطبيعة البشرية وهى النفس أنه أحيانا يستعمل كلمة النفس استعمالا حقيقيا للدلالة على دوافعها ونزعاتها وطرق مجاهدتها ، وأحيانا أخرى تستعمل استعمالا مجازيا للدلالة على أمر يتورع عن ذكره مثل قوله تعالى (**وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه**) (٣) وقوله سبحانه (**والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء**) (٤) قال ابن عطية (عن نفسه : كناية عن غرض المواقعة) (٥) ، والتربص بالنفس يعنى الانتظار لمدة ثلاثة أطهار أو حيضات حسب اختلاف الفقهاء .

---

(٣) يوسف ٢٣ وكذا فى الآيات ٣٠ ، ٣٢ ، ٥١ من نفس السورة

(٤) البقرة ٢٢٨ .

(٥) المحرر الوجيز ح٧ ٤٢٧ وتفسير ابى السعود ح٣ ١٢٥—١٢٧ .

أهمية معرفتنا بأنفسنا :

ان الخبرة التى حصلنا عليها فى المجال النفسى جاءت الينا من بعض ملاحظاتنا لأنفسنا ولمظاهر السلوك عنـد غيرنا ولم ترد الينا بواسطة المشاهدة لمـا يجرى فى داخلنـا ، أو الوصـول الى ماهيـة النفس وحقيقتها ، فهذا ما يبـدو الى الآن بعيدا كل البعد ، ولذا لم نعثر على تعريف محدد يبين تلك المـاهية على وجه مسلم به .

ونظرا لأننا فى حاجة ماسة الى أن نعرف شيئا عن ذواتنا ، وعن قدراتنا ، ومناطق قوتنا ، وضـعفنا ، وعن سير النشـاط الداخلى بين أجسامنا ، واحساسنا وانفعالنـا كى ندرك من نكون أولا ؟ ثم نحـدد الكيفية التى نحن عليها ، ونقوم أنفسـنا ونعدها اعـدادا صحيحا ، ونوجهها التوجيه اللازم ، وننظم مسيرتنا الذاتية ، ونكون بذلك مدركين لأنفسنا واعين لها ، نقول نظرا لهـذا كله فان القرآن قـد أمدنا بطائفة جمة من المعرفة النفسية جاءت فى سياق الحديث عن النفس البشرية ، ولو أمعنا النظر فى قرابة الثلاثمائة آية التى جاءت كلمة النفس فيها لأدركنا السعة العلمية التى كشف القرآن عنها فى هذا المضمار .

ولأهمية تلك المعرفة بالنسبة لنـا ، وبالنسـبة لتوجيه وتقويم سـلوكنا فاننى قـد قدمت جانب معرفة الذات على غيره من الجانبين الآخرين لكونه أساسا لمـا سواه ، ولا شك أن فكرة الشخص عن نفسه هى النواة الرئيسية التى تقوم عليها الشخصية[٦] وجميع علاعاته الكونية والاجتماعية ، والذات المدركة حقا هى التى تعرف نفسها أولا، ثم تعرف غيرها فى ضوء معرفتها لنفسـها ، فلا غرو بعد ذلك أن نجـد القرآن الكريم يلفت الأنظار الى تلك المعرفة وينبه اليها ، كما ينبه الى المعرفة الكونية فيسوقها معا فى قوله سبحانه (**وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون**) ٢٠ ، ٢١ الذاريات .

---

(٦) د. مصطفى فهمى : الانسان وصحته النفسية ١٦٣ .

وفى الآيتين يستحث الله سبحانه الانسان على أن يتفكر فى العالمين: الكون والنفس ، فيتــأمل الكون بفجاجه ومظاهره ، ويتــأمل النفس، ولطيف صنع الله فيها ، وبديع حكمته فى تكوينها ، وبواطنها وظواهرها، وعجيب فطرتها ، وما تحمل من عقل وقلب وحس وبدن وأعضاء وجوارح .

واذا كان الكائن البشرى باعتباره انسانا لايكون كذلك الا بالنفس، فهى حقيقتــه وجوهره ، وباعتباره كائنا حيا لا تكون حيــاته وبقاؤه الا بالكون يعيش فيه وعلى ما يخرج منه فقــد لزم ضرورة أن يفهم الانسان نفسه ، وأن يعى حقيقته ، وأن يدرك ماهيته ، وأن يتفكر فى الكون الذى يحيط به ، وأظن أن هذه العلة تكمن وراء ازدواج الأمر بالتفــكر فى الكون والنفس فى الآيتين المشــار اليهما ، وكذلك فى قوله سبحانه :

(أو لم يتفكروا فى أنفســهم ما خلق الله الســموات والأرض وما بينهما الا بالحق وأجــل مسمى وان كثيرا من النــاس بلقاء ربهم لكافرون) ٨ الروم وقوله جل شأنه **(سنريهم آياتنــا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)** ٥٣ فصلت .

فعلى البشرية أن تتفكر فى النفس بالبصر البــاطنى ، وفى الكون بالسير والنظر ، وسوف نكشف كثيرا من الحقائق والآيات ، وســوف ينكشف لهــا أكثر وأكثر مع تقــدم الزمن وتطور البحث العــلمى ، وسيطلعهم اللــه (على تلك الآيات زمانا فزمانا ، ويزيدهم وقوفا على حقائقها يوما فيوما) (٧) على حد تعبير العلامة أبى السعود ، ولقــد صدق الله فالآيات فى النفس والآفاق تتكشف أمام الانســان اليوم ، وان كان لا ينبغى أن نقول ان حلقة الاكتشاف قد اكتملت ولا مزيد بعد ذلك ، فما يدرينا لعله يأتى يوم أو عصور يقول فيها من بعدنا لقــد خطا

---

(٧) تفسير أبى السعود ج ٤ ٣٥٠ — ٣٥١ ، ج ٥ ٥٣ .

الأولون خطوات بطيئة علي طريق الكشف ، وعلينا أن نواصل الرحلة فأمامنا جهـد شاق ، ولعل ما يعرفونه في عصورهم يفوق بكثير ما نعرفه في أيامنا هذه .

وسنتابع معا أهم المعارف التى يمكن أن نحصـل عليها من سياق الآيات التى وردت فيها كلمة النفس .

النفس والذات :

تطلق النفس في القرآن ويراد بها القوة المدركة أو المفـكرة أو المسئولة ، أو الشهوانية ، أو المكلفة ، وقـد تطلق ويراد بها المجموع المكون من تلك القوى ومن البـدن معا ، وتكون مماثلة لكلمـة الذات أو الفرد ، ويلاحظ أنه في تلك الحالة لا يمكن فصـل النفس كقوة عن البدن ، أو العكس من هنا قلنـا انها أكثر وأوسع من معنى القوة المدبرة والمحركة الكامنة خلف البدن ووراء أستاره .

ومن أمثلة استعمالها بمعنى القوة والبدن قوله تعالى (**واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون**) ٧٢ البقرة وكذا كل آية سيقت تتحدث عن موت النفس أو قتلها أو أجلها مثل (**ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق**) ١٥١ الأنعام (**كل نفس ذائقة الموت**) ٣٥ الأنبياء (**ولن يؤخر الله نفسا اذا جاء أجلها**) ١١ المنافقون ، وذلك لأن القتل أو الموت أو الأجل لا يعترى النفس وحدها دون البـدن ، ولا يقع عليها دون الهيكل الذى تسـكنه ، فالأولى أن يقال ان النفس تعنى الذات في جانب القوة النفسية والبدنية معا .

ومن أمثلة ورودها بمعنى الذات قوله تعالى (**تعـلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك**) ١١٦ المـائدة (**واذكر ربك فى نفسـك تضرعا وخيفة**) ٢٠٥ الأعراف (**فقل تعـالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونسـاءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين**)

٦٤ آل عمران ، فهذه الآيات ونظائرها وهى كثيرة تعطى للنفس معنى أوسع من كونها قوة مدبرة أو شهوانية ، ولا تنفصل حوادث الآيات عن الجانب البدنى أو المـادى وانما عبر بالنفس هنا لكونا أهم جزءى الذات ، وأنها القوة المؤثرة •

علاقة النفس بالبـدن

الذى يتأمل الخطاب القرآنى مع الانسان يجـده لا يلزم طريقة واحدة ، فلا يخاطب النفس وحدها باعتبارها القوة الواعية والمسئولة ، وانما يجـده ينوع الخطاب ، فمرة يحدث تلك القوة المدبرة للبدن ، ويثيرها نحو التفكر والتـأمل والتذكر الى آخره ، ويمنيها بالثواب ، أو بتوعدها بالعقاب ، ومرة ثانية يبنى الخطاب على تكاليف شرعية تنصب على البـدن وحـده مثل الغسل والوضوء وطهارة البدن وسنن الفطرة، أو يرغب البدن فى الجنـة وما فيها من مطعـومات ومشروبات وسرر وأرائك تتطلبها أمانى الكائن البشرى المـادية ، أو يرهبه بعذاب تبدل فيه الجلود وبطعام من زقوم ، وبشراب من حميم ، وقد ينصب الخطاب على أعضاء هامة فى البدن مثل الفرج والعين والسمع واللسان وضرورة ضبطها واحكامها وحفظها ، وكذا اليد والرجل لكونهما أداتين للفعل والسير والحركة •

فما معنى هذا التنوع وما مغزاه ؟

ان التنوع يعنى حقيقة هامة مؤداها انه على الرغم مما قيل من سبق النفس على البدن أو خلودها وبقائها بعد فنائه ثم عودتها اليه عند البعث الا أنها لا تقوم الا به ، وتـ تظهر نشـاطها الا من خلاله ، ولا تنفذ ارادتها الا بأعضائه ، فالجوارح والاعضاء ، والأجهزة البدنية كلها سـبل اتصـال النفس بالعالم الخارجى ، ونحن لا نعرف النفس الا بما يبدو على البدن من فعل أو لون أو قول ، وكل تفكير صامت لها يثبت وجودها ولكننا نظل نجهله لدى الشخص المفكر حتى يخرج لنـا

فى صورة من الصور ، وأهواؤها وأمانيها وأحلامها وخطراتها وانفعالاتها تظل حركة سرية ما لم يقم البدن ينقلها الى العالم الخارجى عبر خطوط اتصاله المتخصصة ، وحتى تلك اللحظة التى تفكر فيها بصمت ، أو تقوم بأى نشاط سرى فالمجال الحيوى لهـا هو البدن ، ولو لم يكن هـذا الوعاء ما سمع لهـا صوت ولا كان لها حس ، وما درى أحـد بوجودها حتى هذا الشخص الذى تنتمى اليه وتحمل أو يحمل اسمها .

والبدن بهذا الاعتبار جهاز تنفيذى يقوم بفعل ما دبره جهـاز التخطيط النفسى الداخلى ، وهـو اذ يعلن ذلك يلتزم بحيثيات الخطة وأهدافها ، ويضطر لبذل الجهد المناسب لها حسب القواعد والآمال ، وقـد يجوع ويتحمل أشق المصاعب والآلام البدنية والعضوية لأن خطته الداخلية أملت عليه ذلك ، وفرضت عليه ضربا من ضروب العمل الشاق بغية تحقيق أهداف دنيوية أو أخروية ، ولكل عملها وطبيعـة نشاطها ، والنفس هى التى وضعت خطتها طبقا لقواعد تراها أو تهواها أو تؤمن بها ، وهى التى تحـدد الأهداف وترسمها ، ثم تدفع البدن الى التنفيـذ ، وتحمله عبء الفعل ، وتجنى هى بعـد ذلك ثمار الخطة ، ونتائج الفعل والسلوك .

ومن الصفات النفسية ما يكتسب ، ويضاف الى الرصيد النفسى من خلال جهد البدن وبذله وتحمله كالصبر وتحمل الأذى ، والعفو عن ظلم وقع على البدن كالضرب وخلافه ، ومثل هـذه الصفات وان نشأت من ظروف بدنية الا أن الدافع الحقيقى عليها كان نفسيا بحتا ، فماتحمل البدن آلام الجوع فى الصوم ، ومشاق الحج والجهاد الا لأن الخطة النفسية الداخلية وضعت فى اعتبارها هذا طبقا لايمانها ، وألزمت النفس البدن بالتحمل ، ثم جنت بعض صفاتها من وراء ذلك كله **(ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين)** (٨) **(ماكان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا**

---

(٨) البقـرة ١٥٥ .

عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عــدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح ان الله لا يضيع أجر المحسنين ، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا الا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) (٩) •

والقول بأن الجانب النفسى حركة ناتجة من الوظائف العضــوية للبدن تنقضه نظريات أخرى لعلم النفس تنكر ذلك بشدة مثل نظرية الدوافع أو المثــير ، والنظرية الاجتماعية ، كما تنقضــه تلك الأفكار المجردة ، والمشاعر السامية ، والخواطر النبيلة التى لا تتبع جهــازا وظيفيا من أجهزة النفس البشرية ، فالبدن وحــده ليس هو المؤثر فى النفس ، وليست وليدة لنسيجه العضوى وجهازه الوظيفى ، ولســنا نجــد آية واحدة ألقت التبعة والمسئولية السلوكية على البدن وحده ، ولو أخذنا بفكرة الديناميه أو الوظيفية العضوية وتأثيرها على النفس ما استطعنا أن نحاسب انسانا على فعل صدر منه ، اذ كيف نحاســبه على فعل وظيفى عضوى أو دنيامى لا سلطان له عليه ، ولا ارادة له فى ادارته أو تحريكه ، لأن أجهزة البــدن تدار بدون هيمنة منا عليهــا أو تحكم فيها ، خاصة تلك التى تستقر خلف جلودنا •

وأما مغزى التنوع فاننا ينبغى أن نتذكر ونعى جيدا من أن الانسان انسان بما يحمل من طاقة نفسية تتحول عبر البدن الى فعل وسلوك ، وبما يحمل من بدن يحوى بين شبكاته الوفيرة طاقة دافعة ، وأنه لا حياة للطاقة بدون الكم البدنى ، ولا حركة للكم بدون تأثير الطاقة فيــه ، فالحيوية النابضة للنفس ، والحركة البــارزة للبدن ، ومن مجموعهما يتكون الانسان ، وبهما معا ينتج من تصرف وتدبير ، ويلقى عليه ما يلقى من تكاليف وأعباء ، ووجبات وفرائض •

---

(٩) البقــرة ١٢٠ — ١٢١ •

الاستعداد والقابلية النفسية :

هل خلقت نفوسنا مطبوعة على الخير وحده ، أو على الشر فحسب؟ هل خلقنا مستعدين للسير على طريق واحد أو لاجتياز عدة طرق ؟ هل لنفوسنا وجه واحد أو عدة وجوه ؟ هل تقبل الشىء وضده ؟ واذا كانت كذلك فما وسيلة ترجيح الخير على الشر ؟ هل هى من ذاتها أو هى كذلك ومن غيرها ، وهل تملك سلطة ذاتية تقاوم بها اغراء الباطل وبريق الشر ؟ ويأتيها شعاع مضىء من سلطة عليا يعينها على تخطى عقبات النفس واغرائها ؟ حول مدى الاستعداد النفسى وسعته أو محدوديته سنقف مع القرآن وهو يفصح بيقين جلى عن تلك الطبيعة الغامضة التى تستقر فى أعماقنا ، ولسنا نذوق طعم الوجود بدونها ، انه يكشف عن هذا الغموض ، ويزيل اللبس الذى يكتنف النفس من هذا الجانب : يقول سبحانه :

« والشمس وضحاها ، والقمر اذا تلاها ، والنهار اذا جلاها ، والليل اذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفس ما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » (١) .

فى هذا القسم المتنوع ، يبدو نسيج الوحدة بارزا بين صور المقسم به من شمس وقمر ونهار وليل وسماء وأرض ونفس انسانية ، انه قسم جمع بين أعظم المظاهر الكونية والانسانية ، بين الشمس فى أبهى رونقها واشراقها وقت الضحى والقمر حين يتلوها فى ضوئه السارى الخافت الذى يحدث القلوب بحديث ندى ، ويوحى اليها بسرى المعانى ، والنهار اذا عمق وقته واتسع فيجلى ضوء الشمس ويبسطها ، والليل اذا أقبل يجر وراءه المظلم ليكسو به صفحة الشمس فيغشى ضوءها

---

(١) الشمس ١ — ١٠ .

ويذهبه ، وتتوارى الشمس خلاله وراء الأفاق ، حيث تلف بأثواب الليل، وتظل كذلك حتى تنفض عن نفسها عناء الكرى وتنهض من جديد فى ضوء مشرق ذهبى يستحيل الى أسلاك فضية بيضاء ، والسماء وشموخها ودقتها وتماسكها ودلالتها على القوى القادر الذى بناها ، ورفع سمكها فسواها ، والأرض وبسطها ودحوها ومهادها واشاراتها البينة الدالة على العظيم الذى فرش ودحا ، والنفس وكيف سواها خالقها فجعلها قابلية الألوان من التقـوى ، وصنوف من الفجور وهى نفس واحـدة مستعدة لأن تتجه نحو الخير وتستمسك به وتتطهر عليه وتتزكى ، ولأن تنحو نحو الشر فتتخبط فى ظلماته ودياجيره •

ووحدة القسم هذه ترينا مدى الترابط بين مظاهر الكون وأصوله وحركاته وبين الحقائق النفسية وتسويتها واستعدادها كما تطلعنا على أن الحقيقة النفسية شبيهة بما يجرى فى الكون ، واذا كان هـذا العالم العجيب لا يثبت على حالة واحدة من النهار أو الليل ، من الضوء أو الظلام فكذلك النفس ليست مشرقة أبدا ولا مظلمة شريرة على طول الخط ، والعالم يحمل ثوابت مستقرة الى حد ما كالسماء المبنية والأرض المدحوة، ويحوى متغيرات ظاهرة كتحول الشمس فى اليوم الواحد الى أحوال متعددة ، والليل كذلك ، والنفس الانسانية هى الأخرى لهـا حال من الثبات والاستقرار والفطرية المركوزة ، ويعتريها تقلب بين الخير والشر، والحق والباطل ، وبقاء العالم وتحقيق الغايات المنوطة به مرتبطة بدرجة الثبات لبعض مظاهره وسننه ، وبحالات التغير والتطور المستمرة فيه ، والنفس الانسانية لا تحيا بدون مركوزات فطرت عليها ، وأصول جبلت على معرفتها ، وبدون هـذا التغير الذى يحقق لها العيش والحياة ، أى أنه من الضرورى أن تكون النفس قـد جبلت على أمور مستقرة متميزة مثل معرفة العدل من الظلم ، والتفريق بين حب الأول وبغض الثانى ، والميل الى الجميل والنفور من القبيح ، وأن تكون فى الوقت ذاته حاملة لميول أخرى تستجيب فيها لمطالب البدن ونزواته ، فلو تصورنا نفسا

خيرة أبدا صافية تماما ، عابدة راهبة ماعمرت الحياة أو انتعش الاجتماع الانسانى ، والعبرة فى النهاية بغلبة جانب على جانب ، فقد أفلح من تزكى ، وقد خسر من تدسس .

والآيات السابقة مع قوله تعالى **(ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين)** (١١) ، وقوله جل شأنه **(انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ، انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا)** (١٢) تطلعنا على عدة حقائق :

أهمها أن النفس البشرية الخاصة بآدم أو بعموم الانسانية خلقت مستعدة لقبول الخير والشر ، ولديها قابلية لكل منهما ، وبحكم هذا الاستعداد تختلف اتجاهات البشر ومسالكهم ، ولو لم تكن كذلك للزمت الانسانية حالة واحدة لا تتجاوزها ، وأيضا فانه يوجد لدى الآدمى قوة كامنة فى كيانه يستطيع بها ادارة شئون نفسه ، وتوجيهها وجهة نافعة خيرة ، ويضبط بها رغبات تلك النفس ، ويحكم زمامها لو أراد ، وتتسمى تلك القوة بالالهام أو الهداية ، وتعنى الافهام والاعقال والتعريف والتوفيق والتبيين والتعليم ، وهذه كلها شروح واردة لدى المفسرين فى معنى الالهام والهداية (١٣) .

ووردت أدوات الادراك من سمع وبصر أو عينين ولسان بين هذه الآيات ليبين الحق جل جلاله أن تلك القوة الضابطة لاتجاهات النفس تعتمد على التفكر والعقل ووسائل المعرفة بأنواعها ، فالعقل هو المميز والمرجح لاتجاه على اتجاه ، واذا خلق الله النفس على هذا النحو المشار اليه من الاستعدادات والقابليات المختلفة فانه جعل لها حكما

---

(١١) البلد ٨ — ١٠ .

(١٢) الانسان ٢ ، ٣ .

(١٣) انظر تفسير الزمخشرى ج ٤ ٢٥٦ — ٢٥٨ ، وتفسير ابى السعود ج ٥ ، ٥٣٨ ، وفتح القدير ج ٥ ، ٤٥٩ ، وفى ظلال القرآن ج ٦ ص ٣٩١٦ — ٣٩١٨ .

منها ومن ذاتها يحكم عليها ، ويقودها الى الطريق السوى ، وليس هذا فقط بل أمدها بمعايير للحقائق ثابتة ، وبموازين مستقيمة ترجع اليها ، وتضىء للعقل طريق السير ، وتجلى له ما لا يستطيع ادراكه أو الوصول اليه ، وتكمن تلك المعايير وهـذه الموازين فى الشرع الذى ارتضاه اللـه لعبـاده عصرا بعد عصر حتى استقر الأمر على شرع اللـه فى كتابه المجيد الذى أنزله على رسوله محمد صلى اللـه عليه وسلم ، ولعلم اللـه سبحانه بأن العقل لا يستطيع الانتصار وحده على نزوات النفس والزامها فقد جعـل الشرع هاديا للعقـل ومهـذبا للنفس ومقـوما لهـا .

ولمـا وضع اللـه أمام الانسان نورانيـة الشرع وحاكميته ، وقوة التمييز العقلية ترك له الحرية فى أن يختار أى الطريقين أوالنجدين أو السبيلين ، وابتـلاه بهـذا القدر من الحرية والاختيار لينظر هل يكفر أو يشكر ؟ واستنفر همته نحو التزكية النفسية ، وأناط بهـا الفلاح ، ونفره من اهمالها والانحدار بها فى مهاوى الهلاك والشهوة ، وربط بين هـذا الانحدار والخسران فى الدنيا والآخرة ، وسوف نعود الى مسألة الحرية والمسئولية والمجاهدة بتوسع ملائم ان شاء اللـه .

أقسام النفس بحسب اتجاهاتها :

اذا قسمنا النفس ، أو رأينا بعض الباحثين يتناولوها بالتقسيم فلا ينبغى أن نفهم سويا أن نفس الانسان كفـرد أو نفس البشرية باعتبار المجموع هى نفوس متعددة ، بحيث يقال ان هذا يحمل نفسا من نوع كذا ولا يستطيع تبديلها أو الانتقال الى غيرها ، أو يقال ان هـذا الفصيل من البشر ينتمون الى القسـم الفلانى من النفس وليس فى مقدورهم التحول الى قسم آخر ، بل ما يجب ادراكه هو أن النفس البشرية واحدة من حيث الحقيقة والتكوين ، مختلفة من حيث الطبائع والاتجاهات ، والميول والرغبات ، ولا تتنوع الا من تلك الجهة وحدها ،

ولذا يتفق الجميع على واحدية النفس ، وأنها تتلون بحسب الوجهة التى تميل اليها ، وهى قادرة على التبدل والتحول من الخير الى الشر ، أو العودة من الشر الى الخير ، وأنها بحكم هذا التلون تنقسم على نفسها ، وبحكم قابليتها للتبدل والعودة يصلح معها العلاج ، وتجدى معها المجاهدة ، ويستقيم حال العاصى بعد فجوره ، ويكون للتربيــة ثمارها المجــدية •

وبغير هــذا الفهم لطبيعة النفس نضــطر الى تصنيف نفوس البشر ، وقد تعجزنا عن حصرها ، ونضطر مع هذا الى وضع وســائل علاجية وطرق تربية حسب كل تصنيف عام لكل مجموعة متشابهــة ، والى وضع وسيلة وطريقة معينة حسب قدرات الأفــراد داخل كل تصنيف معين ، وهذا ما يجعل أى سبيل الى دراسة النفس وتهذيبها أو علاجها أمرا غير ممكن •

ولــا كان أمر النفس كما فهمنا فاننا قد أشرنا الى أن التقسيم هو بحسب الاتجاهات النفسية لا بحسب حقيقتها وتكوينها الأساسى ، وسنسلك فى هـــذا التقسيم مسلك القرآن الكريم ، لأنه باعتراف المختصين فى علم النفس قد ساق (معانى كثيرة للنفس كانت مثار الكثير من الدراسلت النفسية فى مجالى علم النفس الاجتماعى ، وعلم النفس الاكلينيكى) (١٤) وقد أثرى القرآن تلك الدراسات اثراء قعدت دونه — وستظل — أشهر النظريات الحديثة فى الاطار النفسى •

وهاكم هــذا التقسيم مع ما يشمله كل قسم من ميول ونزوات :

---

(١٤) د. مصطفى فهمى : الانسان وصحته النفسية ٢٣٦ .

أولا — النفس الأمارة :

أخذت هـــذه التسمية من الآية التى وردت فى ســورة يوسف **(وما أبرىء نفسى ان النفس لأمارة بالســوء الا ما رحم ربى ان ربى لغفـــور رحيم)** (١٥) ، والآية كما ترى تؤكد على أن النفس تأمر كثيرا بالسوء ، ويرى المفسرون أن المراد بالنفس هنا ليست هى نفس المتحدث فى السياق القرآنى سيدنا يوسف أو غيره بل النفوس جميعا التى من جملتها نفس القائل ، يقول أبو الســعود شارحا الآية (ان النفس البشرية التى من جملتهــا نفسى فى حد ذاتها لأمارة بالســوء مائلة الى الشهوات مستعملة للقوى والآلات فى تحصيلها) (١٦) ٠

وانما تصير النفس كذلك اذا فقــدت ميزان الشرع ، والاحتكام اليه ، والخضوع لأوامره ، والتزكى به ، وفقدت معه حكمة العقــل ورشده وتوجيهه ، عندئذ تتحول الى وجهها الشهوانى الفاسد ، والمائل عن الحق وتتبع أعملها من هذا الوجه ، ومعلوم أنها لا تفتقد القــوة العاقلة بالكلية ، انما تتوارى عمليــة الضبط العقلى الصحيح ، والتمييز بين الخير والشر والميل الى الأول بعد الركون اليه ، ويبقى لديها من العقل ما تدبر به شئونها على الوجه الذى تحولت اليه ، فيسخر العقل حال فساد النفس فى كل ما يخدم هذا الفساد وهذه الحال التى صارت اليها ، ويعنى هذا أن العقل ان استخدم على وجه صحيح ضبط النفس وألزمها حدودها ، والا انطلقت النفس فى شهواتها واستخدمت العقل لاشباع هذه الشهوات ، حتى أنه ليصبح هو الآمر بالفساد والسوء دون النفس التى لا تستطيع اصدار حكم بدونه ، وهى ان أمرت بشر ، أو دعت الى رزيلة ، أو اتجهت الى باطل فكل ذلك من تدبير العقــل وتخطيطه ، والنفس فى تلك الحالة السيئة تسخر العقل لكى يرســم

---

(١٥) يوسف : ٥٣ ٠

(١٦) تفسير ابى السعود ج ٣ ١٥٨ ٠

خطط فسادها وانحرافها ، بل ان المسألة اذا فهمت على الوجه الصحيح تبينا أن تلك النفس الأمارة ما هى الا العقل فى صورته الفاسدة التى زل فيها طريق التفكير والحكم الصحيحين ، كما أن النفس الخيرة ما هى الا العقل فى وجهه المشرق الذى استقام تفكيرا وحكما ، والى هـذه النقطة يشير ابن عطية فى تفسيره اشارة موجزة فيقول (المراد بالنفس النفـــوس ، اذ النفس تجرى صـــفة لمن يعقل كالعـين والسمع) (١٧) .

فاذا قيل النفس تأمر بالسوء فالمراد القوة العاقلة الآمرة كمـا نقول العين ترى والأذن تسمع مع أن الرؤية والسماع يكونان للقـوة الحاسة فيهما لا للأداتين : العين والأذن ، وانتبه العلامة أبو السعود لهـذا فقـرر أن النفس تستعمل القوى العقلية والحسية لخـدمة شهواتها ، وليست قادرة على ذلك الا بهما حسبما ذكر فى النص السابق.

وبوضع المسألة فى صورة أكثر دقة نقول : ان العقل اذا التزم طريق التفكير والتمييز الصحيحين استطاع الزام النفس حد الاعتدال ، أو اذا استنار فى تفكيره بنـور الشرع استقامت النفس معه وتهذبت وتصفت ، واذا انحرف العقل فلم يستنر بالشرع ، ولم يميز التمييز الجاد خرجت النفس عن حدود الاعتدال واختلت قواها ، ومالت الى الشهوة ، وتحكمت فيها نزعات الشر ، وطالبت العقل برسم السبل التى تتبعها لاشباع ذلك ، فالعقـل مستنير مميز هاد وحاكم فى الصـورة الخيرة ، وهو ضال منحرف حائد عن الجادة آمر بالفساد والسوء فى الجهة الثانية ، وفى تلك اللحظة التى تتعاون النفس والبدن معا على انزال العقل من سلطانه العـادل واخضاعه لمطالبهما نقول ان العقـل ما قبل النزول ، ولا خضع لأصواتهما الا لضعف فيه أو خلل فى طرائق

(١٧) المحرر الوجيز ح ٨ ٢ — ٣ .

حكمه وتدبيره ، وما تسنى للنفس أن تطغى وأن تتآمر عليه مع البـدن
وقد يكون نابعا منها ملازما لها (١٩) ، وعلى الأول يكون التدبير العقلى
والخسران ، وقد يكون السفه من قبل الانسان فيتعدى الى النفس ،
الأمور الدنيوية والأخروية ، وهو يستدرج النفس ليوقعها فى الهـلاك
سفه نفســه) (١٨) ، والسفه خفــة وجهل فى الرأى والخلق ، وفى
فيذكر أنها نفس ترغب عن الملة المستقيمة وعن الحنيفية الصحيحة
لسفه وطيش بها يقــول سبحانه **(ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من**
والقرآن الكريم يلقى كثيرا من الأضواء على سمات النفس الأمارة

الا من تلك الجهة ذاتها ، أعنى الضعف والخلل •
الفاسد هو الذى أذل النفس واستمهنها واستخف بها وأوبقها ، وعلى
الثانى يكون قد سفه نفسه أى ضل من قبلها وخالف النفوس العاقلة
المؤمنــة •

واذا كانت النفس أمارة وبها طيش ونزق وسفه فانها كذلك تسول لصاحبها الشر والفساد ، يقول سيدنا يعقوب لبنيه وقد جاءوه بدم كذب يدعون أنه دم يوسف بعد أن أكلــه الذئب كلا : **(بل ســولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل واللــه المستعان على ما تصفون)**(٢٠) ، ويعترف السامرى بخطئه أمام سـيدنا موسى قائلا **(وكذلك سولت لى نفسى)** (٢١) •

والتسويل تزيين النفس لمـا تحرص عليه ، وتصوير القبيح منه بصورة الحسن ، وتزيينه وتسهيله ، وصاحب هذه النفس عندما تتملكه

---

(١٨) البقـــرة ١٣٠ •
(١٩) الراغب الأصفهانى : المفردات ٢٣٤ وتفسير أبى السعود ح ١ ٢٦١ — ٢٦٢ وابن عطية ح ١ ٤٩٢ — ٤٩٣ •
(٢٠) يوسف : ١٨ •
(٢١) طـــه ٩٦ •

دوافع الحقد والشر ، وتسد لديه منابع الخير والحق ، وتتسلط النفس بأهوائها ونوازعها على العقل الضعيف الهزيل المستكين ، العقل الذى غشى عليه ، وصرف عن الحقيقة ، وحجب عنها بحجب الشهوات ، يقوم هـذا العقـل تحت ضغط النفس الشريرة فيلبس القبيح ثوبا حسنا قشيبا ، ويعطى له من المبررات والتقديرات المناسبة له ، ويغدق على الأمنيات الكاذبة معانى الاحترام كى تقدم النفس على ما تشتهى برضا وطواعية ، وكى تركن اليه فى جوانيتها ركونا يزيل منها الشعور بالاثم ، ويخفف من عضة الألم بالذنب ، وهو بالطبع لا يعدو مجرد التسكين لـمـا تبقى من آلام التأنيب لدى تلك النفس ، وهذا المعنى هو ما يمكن نسجه من خلال عبارات المفسرين عن التزيين وتقدير الشىء فى النفس ، والعمل على تحسين الأمنيات الخادعة وتحويلها الى شبه آمال حقيقية .

وانما تضطر النفس الى ذلك اضطرارا لتخلص داخلها مما يمكن أن تصاب به حينا من قلق أو اضـطراب أو انفصام بسبب موقفهـا المعادى للخير والحق ، ونظـرا لأن النفس البشرية مهما حادت عن الطريق وانحرفت عن الجـادة فانها لن تتخلص نهائيا من ركائز فطرية تحب الحسن وتعشق الحق ، وأنه من الجائز أن يكشف عنها فى لحظة من اللحظات التى يكون فيها الانسان متلبسا بالسـوء فيحدث له من الاضطراب الداخلى ازاء هـذا الموقف ما يحدث ، لذا تستدعى النفس قوة التدبير فيها الى عمليـة التسويل والتزيين والتبرير ، وتحـويل القبيح الى حسن بمسوغات معينة يمكن أن تريح النفس وأن تنجيها من الحرج والقلق المشار اليه ولو بصورة وهمية ومؤقتة ، الا أنه من الواضح أن تلك العمليات المداهنة لا يطول بها المدى ، وأن عمليـات الخداع النفسى لا تستمر طويلا ، وقد تقـع النفس فى مأزق حرج تنقشع أمامه كل المسوغات الواهية التى قدمها العقل المخدوع ، ويظهر أمام النفس سوء موقفها ، وفساد مسلكها فتفيق مما هى عليه وتعترف بخطئها وترجع الى الحق ، والا تفعل ذلك أصيبت بمرض نفسى خطير .

وبعد أن تسول النفس ما تحب أن تسـوله ، وتزين ما تتمناه ، وتصوغ له من المبررات ما تصوغ ، وترضى عن فعلها ذلك تبدأ فى مرحلة جديدة لكى يخرج ما بداخلها من القوة الى الفعل ، فتهمس فى الأعماق بصوت خفى ، ويختلج هـذا الصـوت فى قلبها وضميرها ، ويملأ سرها حتى تشحن به شحنة قوية ، وهـذا ما يسمى بالوسوسة **(ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه)** (٢٢) .

وبذا تتمكن تلك النفس الأمارة فى مرحلة أخيرة من اخراج الفعل الى حيز التنفيـذ ، بعد أن تطـوع الأمر الصعب وتجعله سـهلا ، ان أشد الأمور خطرا عليها فى حقيقتها الأصيلة يصير لدى الوجه الذى يأمر بالسوء مقبولا ، وان أصعب الأفعال عند نظرها الفطرى المركوز يصبح بالنسـبة الى النفس الأمارة مستطابا وان أقسى الوقائع على مشاعرها ألمـا يضحى وهو أخفها مرورا واستباحة ، ألم يقتل ابن آدم أخاه ، وألقى أولاد يعقوب بأخيهم الجميل الوسيم الغض الطـرى فى البئر ، وتحت عامل النفس الأمارة ، وتأثير التسويل والوسوسـة لانت جوانب النفس كلها وانقادت وأطاعت ونفذت كما قال سبحانه فى هـذا المعنى ذاته عن ابنى آدم **(فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين)** (٢٣) يقول ابن عطية :

ان القتل فى ذاته مستصعب عظيم على النفوس ، فردته هـذه النفس اللجوجة الأمارة بالسوء طائعا منقادا حتى واقعه صاحب هذه النفس) (٢٤) .

وبهذا العرض تابعنا رحلة تلك النفس من حيث طويتها على الشر ووجهها العقلى الفاسد ، وخضوعه لهـا بالتبرير والتسويغ ، ثم التزيين

---

(٢٢) ق ١٦ وانظر فتح القدير ح ٥ ٧٥ .
(٢٣) المـائدة ٣٠ .
(٢٤) المحرر الوجيز ح ٤ ٤١٣ .

والوسوسة وأخير نرى جرائم تلك النفس فى شناعتها وأقساها على المشاعر تهون وتخرج الى حيز الواقع ، ولا ندعى أننا قد استعرضنا كل خصائص تلك النفس وصفاتها ونشاطها ولكننا ألقينا عليها نظـرة كاشفة من خلال النصوص السابقة .

الفـائدة من وراء معرفة النفس الأمارة :

ينبغى أن نتذكر ما قلناه سلفا على وجه الاجمال من أهمية معرفة الذات ، ونتذكر معه بصفة خاصة أن معرفتنا بأنفسنا على شـكل محدد كتلك الطريقة التى سلكها القرآن الكريم فى جانب النفس الأمارة فوق أنه يتيح لنـا الوقوف على كثير من منابع سلوكنا ، ويكشف بصورة جوهرية عن الدوافع الكامنة فينـا وطبيعتها فانه ينبه الانسان الى الفساد الذى يعتريه ، والى الخبـائث التى تنطـوى عليها ذاتيته ، ويشعره بضرورة مراقبة نفسه ، والنظر اليها نظرة فاحصة ، وعن هذا الطريق يستطيع فى لحظة معينة أن يعيد صياغة نفسه من جديد ، وأن يفكر تفكيرا جديا فى ضبط ذاته ، وتنظيم اتجاهاتها ، وبتجديد هـذا الخاطر ، والعمل على تقويته يترسخ فى النفس ، ويشكل عاملا فعالا يمكن أن يجابه الطوية الفاسدة ويصلح من شأنها اصلاحا ينقلها من عبودية الشهوة والغريزة الى طور جديد من أطوار الصراع القائم بين الأنا الخيرة والأنا الشريرة .

ولا شك أن تلك الطريقة القـرآنية التى تعتمد على التوجيـه والاستبصار ، وعلى معرفة الفرد بذاته تعتبر مشعلا يوجه الفـرد فى دنيـاه وفى أخـراه ، ويبصره بأعماله وذنوبه وتدفعه الى مقاومتها وتهذيبها بعكس ما لو ظل جاهلا بما يجرى فى داخله فانه لن يخطـو خطوة ما نحو الاصلاح ، وسيبقى واقعا تحت تأثير تلك النفس الأمارة مستغرقا فى نزواته وشهواته .

ثانيا — النفس اللوامة :

تلك هى النفس التى تتوسط الأمارة والمطمئنة المتيقنة ، وتصل النفس الى تلك الدرجة بعدة طرق : اما أنها نشأت هكذا ابتداء ، بمعنى أن حالة التكافؤ بين قوتيها نمت بدرجة متوازية ، وبحكم هذا النمو المتساوق صار الضمير قوة زاجرة ومتربصة للشهوة ، لا يدع لها فرصة تستأثر فيها بالنفس ، أو تستحوذ على سلوكها ، وتنفرد بتوجيه العمل ، وكلما ظفرت بفعل ما ، وحققت غرضا شهوانيا معينا ألقى عليها وابلا من اللوم والتأنيب الشديدين ، فهو دائما يقظا حيا ، يقف لها بالمرصاد على كل باب تلجه ، يمنعها حينا ، أو يزجرها ويعنفها حينا آخر •

وقد تصل النفس الى تلك الحالة بعد أن تواجه موقفا صعبا وحرجا ، ولا يشترط أن يكون هذا الموقف بين النفس والغير فحسب ، بل قد يكون الموقف الحرج أزمة نفسية داخلية ، انتبه خلالها الانسان الى فعل شيء بذيء رفضته النفس التى أحدثته ، وأخذت تفكر بجدية فى فظاعته وشناعته فاستفاقت مما هى فيه ، وتحرك الضمير الذى أسدل عليه الستار زمنا ما ، وقد يكون الموقف الحرج الذى أفاق الانسان بسببه ناشئا من لوم الآخرين ، وتعنيفهم ، وحثهم لصاحب النفس الأمارة على أن يستفيق من تأثير نزواته ، وأن يتخلص مما هو فيه من منكر شنيع وسلوك أنانى شاذ ، فتحت اعتراضهم على سلوكه ، وازدرائهم له يبدأ فى النظر الى دواخله وتقويم ذاته ، ويصحو ضميره من جديد •

وأحيانا كثيرة تكون العودة الى عمق الذات وفهمها ، والى صحوة الضمير تحت تأثير التوجيه الربانى ، والمواعظ الدينية التى تحرك المشاعر النبيلة ، وتخترق الحجب الفاسدة الى القلب والعواطف الرقيقة أو يهيب التوجيه الربانى بالعقل أن يحكم زمامه ، ويفرض سلطانه ،

ويعمل بطريقة أكثر انضباطا وخضوعا الى القواعد المستقيمة ، وللقرآن تأثيره النـافذ الى سويداء القلوب ، وله طريقته فى ايقـاظ الهمم الى الخير وتوضيح سـبله .

واننا لنسمع كثيرا عن الضمير الذى يتحدث عنه علماء النفس وغيرهم ، ونصغى الى ألوان من الزجر النفسى الذى يعترى بعض البشر فهل تدخل هـذه المواقف فى اطار النفس اللوامة ؟

اننا اذا تأملنا تلك الحالات التى تثار فيها مسألة الضـمير ، ووقفنا على صيحة العلماء لايقاظ الضـمير وأهميته فى مجال العمـل وجميع ميادين النشاط نجد أن المعايير التى بحكم الضمير على الفعل من خلالهـا مختلة ، وهى غالبا ما تكون معايير دنيوية وقاصرة ، وعلى سبيل المثال فان الضمير البشرى اليوم يتحرك لاختطاف طائرة لدولة كبرى ولا يتحـرك لضرب شعب بأجمعه فى أفغانستان ، أو سـقوط عشرات الآلاف من الضحايا فى حرب ايران والعـراق أو فى فلسطين ، ويتحرك الضمير الفردى ازاء حالة رشوة محدودة ، ولا يتحرك ازاء حالات انتهاك العرض المستباحة كل يوم ، ويتحرك عند انتهاك مبدأ من مبادىء القانون الوضعى ولا يتحرك وشريعة اللـه كلها مضـيعة ، ويحاول علماء التربية والاجتماع والساسة وقادة الفكر تربية الضمير الانسانى على تلك المعايير التى وضعتها النظـريات البشرية ، أو على متطلبات ومصالح مجتمع بعينه ، ولا ينظرون أدنى نظرة الى ايقاظه نحو انتهاك الحرمات الدينية والشعائر والأحكام الالهية .

وهـذا الخلل فى المعايير والتربيـة والنظرات لم تؤثر فى صحوة الضمائر ، وتهذيب النفوس ، بل ساءت الأخلاق ، وفسدت المسالك على النحو الذى نراه سائدا فى مجتمعاتنا المعاصرة ، والشكاوى المريرة من انتشار الاجرام الفردى والجماعى .

لهذا لا نعجب اذا رأينا المفسرين يقصرون عمليـة اللوم النفسى

الصحيح على النفس المؤمنة فيقولون في تأويل قوله سبحانه **(لا أقسم بالنفس اللوامة)** (٢٥) انها نفس المؤمن ، ويقسم على ذلك الحسن(٢٦) ، ولهذه النفس التى تحرك ضميرها بدافع ايمانى طريقان فى اللوم : فمرة تلوم نفسها على الذنب والاثم ، ويكون هذا حالها فى البداية حتى تحقق قدرا كبيرا من الراحة والانتصار على الجانب الشهوانى ، ويكتب لوجهها الخير الغلبة على الوجه الشرير ، وتنتقل الى فعل الطاعات والتحقق بالعبادات ، وفى بداية هذه المرحلة لا يفارق اللوم تلك النفس ، بل يظل ملازما لها ، لكنه ليس لوم المعصية وانما هو اللوم على التقصير فى الطاعات ، واذا قدم شيئا من العبادة استهونته وطالبت بالمزيد وعنفت صاحبها على التكاسل عن الاستكثار من وجوه الطاعة والبر ، وربما اعتبرت التقصير جرما عظيما لا يقل عن جرم الذنب ، واللوم على التقصير فى الطاعات هو الصورة الثانية أو الطريق الثانى من طرق اللوم •

وعبور النفس البشرية من حالة اللوم على الذنب الى حالة التأنيب على التقصير فى الطاعات يتم بمساعدات جادة ، وبنشاط نفسى ايجابى هام ، فتوجيه اللوم الى النفس بطريقة سلبية يكتفى فيها المؤمن بالندم على الذنب ، والتأسف على وقوعه لا يكفى ، ولابد من أن يسلك صاحب النفس اللوامة طرقا أخرى ملزمة للنفس على أن تترك ما تهفو اليه ، وأن تقلع عما تقترفه ، وأبرز تلك الطرق ما يتجلى فى المجاهدة والتزكية ونهى النفس عن الهوى ، ووقايتها من الشح والبخل وحب الذات والأنانية •

أما المجاهدة فتحثنا عليها سورة العنكبوت فى قوله تعالى

---

(٢٥) القيامة ٢ •

(٢٦) فتح القدير ج ٥ ٣٣٥ وتفسير الكلبى ج ٤ ١٦٣ ، وتفسير أبى السعود ج ٥ ٤٢٨ •

(ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ان الله لغنى عن العالمين)
(والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين) (٢٧).
وجهاد النفس شامل لما يلاقيه الانسان من تعب ونصب فى مواجهة العدو ، ولما يواجه به نفسه من مقاومة الذنب أولا ، وترويض النفس على الطاعات وتدريبها على القربات والعبادات ، وما يقتضيه كل ذلك من صبر وتحمل ، والمؤمن اذ يفعل ذلك لا يعود فعله الا على نفسه وحده ، ونفعها كامن فى التهذيب والتصفية ، وفى الترقى بضروب الشعائر وألوان النسك ، وفى نفس المعنى يقول سبحانه **(ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه)** (٢٨) .

ولا بد أن نذكر هنا أن الصراع القائم بين وجهى النفس الأمارة واللوامة يختلف عن الصراع بين الضمير وبين الغرائز ، أو بين الغرائز العليا والغرائز الدنيا المتمثلة فى الشهوات وذلك لأن النفس الانسانية عندما تتسلط على بعضها بدون سند لها من خارجها ، وبدون علاج جيد ، أو حكم عادل يفصل بين وجوهها المحتدمة يحدث لها نوع من التمزق والقلق نتيجة احتدام الخلاف بين قواها ، فان غلبت القوى العليا ، وتسلطت على الشهوات نشأ الكبت وتولد القلق والاضطراب كما يقرر الدكتور مصطفى فهمى (٢٩) ، وان كان العكس وتحول الانسان الى قوة شهوانية أفنته الغرائز الخسيسة وحطمته ، ودمرت فيه كل معانى السمو ، ومشاعر الفضيلة ، وأضحى حيوانا نزوعيا لا يهفو الا لشهوته ، ولا يحيا الا من أجلها .

وأما فى حالة الصراع بين الضمير الدينى أو النفس اللوامة التى

---

(٢٧) العنكبوت الآية ٦ ، والآية ٦٩ .

(٢٨) فاطر ١٨ وانظر تفسير أبى السعود ح ٤ ٣٢٦ ، ٣٤٧ ، ٤٨٠ ، ح ٥ ٤٧٤ ج ٥ ٣٠٥ ، وفتح القدير ح ٤ ١٩٣ ، ٣٤٥ ح ٥ ٢٠١ ، ٣٨٠ .
(٢٩) الانسان وصحته النفسية ٢٣٦ — ٢٤٦ .

تكابد نزواتها وأهوائها ، وتجاهد شهواتها فان شيئا من هذا كله لايحدث لأن النفس الانسانية تشعر فى قرارة نفسها وهى تتخلى عن أغراضها أنها تستجيب لسلطة أعلى منها ، وأنها تتخلى عن أشياء لتحصل على أشياء أسمى هدفا ، وأرضى منالا ، وأن التخلى عن الأغراض الدنيا ليس كبتا وانما هو تعديل واشباع بطريقة أفضل مما تتصوره النفس ، ووسائل هذا الاشباع أجدى فى اثراء الروح ، وارواثها من تلك التى تميل اليها النفس وتهواها ، ولا شك أن لجوء النفس الى طرائقها الخاصة فى الاشباع مهما قدمت لها ، كثيرا من الحظوظ فى أوقات معينة أمام قانون التحريم الدينى فان تلك الطرائق النفسية غير المشروعية سوف تتحول فى لحظة الى عنصر تدمير للنفس البشرية ، وهو ما يفسر لنا شيوع الأمراض النفسية بين أفراد المجتمعات التى تبيح الجنس لاشباع الغرائز النفسية ، وبين النظم التى تفسح للانسان مجالا كبيرا فى التصرف والسلوك دون ضابط أخلاقى دقيق .

وعلى العكس من ذلك فان المجتمعات الاسلامية المتدينة أكثر استقرارا فى الجانب النفسى على الرغم من كثرة مشاكلها المتنوعة ، ويمتاز أفرادها بحالة الرضا والسلامة الروحية نظرا لما تشيعه طبيعة الدين من طمأنينة نفسية ، ولو أن جهازا دقيقا كشف عن مدى السعادة التى تغمر العابد ساعة وقوفه المخلص بين يدى الله لأعطانا نتائج باهرة ، ولدلنا عن قوة التماسك النفسى ، والتآلف الجيد بين القوى المتعددة التى تسكن هذا البيت الانسانى ، وان البائس المسكين من المؤمنين ، والمكروب المحزون من الراضين ليهرع فى كثير من أوقات الشدة الى هذا الموقف البطولى الرائع الذى تضرع فيه النفس بكل أجهزتها الى الله كى يسرى عنها ، وكى يأخذ بيدها فتجتاز محنتها القاتلة ، وما أن تفرغ من مناجاتها حتى تظهر على وجهها اشراقة الأمل ، وتطل من وجناتها شعاعات الرجاء ، وتطبع على الفم بسمة عريضة أعقبت تنهيدة طويلة ، وزفرة عميقة ألقت النفس أثناءها كل ألم مبرح ، واستنشقت مكانه كل أمل مستنير ، وراح هذا العابد

المتواضع فى مأكله ومشربه وماله أسعد وأرضى من هذا الذى يرفل فى حلل السعادة الدنيوية الزائفـــة •

ثالثا ــ النفس المطمئنة :

ونصل الآن الى الوجه المنشود ، والى الروح المثالى ، والشخصية الكاملة ، والنموذج الانسانى الممتاز هذا النموذج الذى تجاوز غليان النفس بالشهوة ، واضطرامها بالغـــريزة ، واصرارها على الذنب ومحاولاتها للافساد ، وميولها المتكررة نحو الفسوق والعصيان ، كما تجاوز مرحلة الصراع بين الخير والشر ، واحتدام التحفز بين الضمير الايمانى والنفس الشهوانية •

واستطاعت النفس فى تلك المرحلة أن تستقر استقرارا كاملا ، وأن تتصالح وجوهها مصالحة تامة بلا شجار ولا عراك ، ولا تنافـــر أو صدام ، وتحقق لهـــا الوئام والاتحاد ، وامتـــلأت جنباتها بالأمن والسلام النفسيين ، وتخلت الوجوه الأمارة عن نشاطها ، واستسلمت الغرائز الخسيسة للضوابط السلوكية الشرعية والعـــامة فى غير كبت ولا حرمان ، واستراح الضمير من مشاكسة الشهوة ، وعاد الجميـــع الى حالة من الفطرية النقية ، وتوحدت النفس توحدا رائقا ، وغلبت القوى الخيرة وسيطرت ، ولم تذهب الأخرى الى اللاشعور لتستقر فيه حينا حتى تجد فرصة تنقض فيها على الضمير أو الفطرة وتصارع من جديد بل انقشعت الى غير رجعة ، وهى راضية كل الرضا بالعوض والبـــديل •

والحقيقة أن النفس الانسانية كائن متطلع ومتوثب دائما ، وآمل بصورة مضطردة ، ويجب أن يتنفس فى شىء ما ، وأن يحصل دائمـــا على اشباع لرغبات حادثة ومتجددة ، نراها كذلك على أى وجه غلب فان كانت الغلبـــة للنفس الأمارة وجدت النفس متطلعة الى الحصول

على أكبر قدر من النزوات ، ومتوثبة الى أن تتنفس فى المحيط الذى يتفق والوجه الغالب هـذا ، واشباعها لشهواتها لا يقف عند حد معين وانما يضطرد ويتفوق ، وان كانت القوة والهيمنة للوجه الخير المشرق ازداد من البر ، واستكثر من الخيرات ، وانهمك فى ذلك انهماكا يساوق الحد الذى عليه النفس من اليقين والخيرية .

ونظرا لأن جوهرية النفس تحب دائما أن تتنفس وتحصل على مرادات تشبعها فى داخلها فان اتجاهها الى الخير يحقق لهـا ذلك بصورة لا يدانيها فيه أى مسلك آخر ، والنفس واعية ولو لم ندرك نحن ذلك أو يفهم صاحبها درجة الوعى ونوعها ، ويظهر وعيها دائمـا فى أنها تغير مواقفها لتحصل على أفضـل حالة يمكن أن تكون عليها ، فلا نظن أن الطبيعة الانسانية السيئة (الأمارة) اتجهت الى هـذا النحو من السلوك لأنه أسمى المسالك فى نظرها ، بل ربما كانت واهمة فى اختيارها هـذا ، وربما رأت أنه الشىء الممكن لاشباع ذاتها ، من هنا فان القـرآن اعتبرها ضالة وزائفة ، ورفق بها طويلا عندما قـدم لهـا أنواعا متعددة من الاقناع ، وحاول بنـاء الادراك على وجه منتج ليعدل من سلوك النفس ويضبط من اتجاهها ، واعتبر الانسان الذى لا يستجيب لتلك النداءات كالحيوان أو أضـل ، ثم بعد ذلك هدد النفس وأنذرها .

كما يظهر وعيها الباطنى : الشعورى واللاشعورى معا عندما تتجه الى الخير والحق فانها تستمسك به وتضحى فى سبيله بكل ما تملك ، وتجود النفس بذاتها أحيانا من أجل الحق الذى اعتنقته ، وهـذا يعنى أن وعيها أدرك أن فضيلتها فى اعتناق الحق هو أسمى شىء تحصل عليه ، وأرقى حالة اشباع تأتيها ، وهى الحالة الوحيـدة التى تتفق مع المركوز الفطرى فى الكائن البشرى .

واذا قلنا ان وعيها قد أدرك ذلك واستمسك به ، وأنها مستعدة

لأن تقذف بذاتها ، وتودى بحياتها فى سبيله فلسنا بحاجة بعد هـذا أن نؤكد على أن تلك النفس لا تحس بأى فقدان شهوانى ينتابها نتيجة الانضباط اليقينى والسلوكى على المبدأ الحق الذى اعتنقته ، ولاتنتابها حالة الكبت المزعومة ، ذلك لأن الكبت يتم اذا لم يكن العوض جديرا بارضاء النفس ، وبأن يغمرها بفيض من الحقائق يشبعها على وجه صحيح ، فان وجدت هـذا الجدير بارضائها ، وهذا القمين باشـباع مراداتها ، والذى يعطى لهـا قدرا كبيرا من التنفس والتوثب والحركة والاشباع والتحقق بالذات فانها تستقذر حالات الشهوة بجانب هـذه الحقائق ، وتستصغر سفاسف النزوات أمام قوة وعظمة هذه الحياة الجديدة المستمرة الأبدية ، ومن ثم فان اندفاعها نحو تنفيذ ما يطلبـه الحق من طاعة وعبادة وتقوى وخشوع يفوق بكثير اندفاعها نحـو الشهوات ، وحالة الرضا التى تصاحب هـذه الأعمال تختلف تمـاما عن الحالة النفسية التى تعقب الحصول على النزوات بأى صورة ، ويكفينا أن نعلم مقدار الفرق بين الحالتين من تصرف الانسان ذاته . فالمؤمن صاحب النفس المطمئنة يجود بنفسه فى سـبيل الحق الذى اعتنقه كما سلف ، وصاحب النفس الأمارة كثيرا ما يبصق على ذاته ، أو يرميها بأشنع السباب ، أو يطلق عليها رصاصة ، أو يلقى بهـا فى اليم ، أو يفتك بها من خنجر انتقاما منها على ما اقترفت ، أو فرارا من مسلكها الذى تنتهجه .

وبناء على هذا فعملية الكبت التى يدعيها علمـاء النفس والتى تسبب الأمراض تحدث لأن النفس لم تحصل على العوض الذى يمـلأ كيانها ، ويغمرها بالسعادة الحقيقية فتحزن وتقلق نتيجة فقـدها لمـا يشبع غرائزها الحسية التى لاتجد مطروحا أمامها سـوى هذا اللون من الاحساس والاشباع ، وتكون تلك الحالات بصورة أوسـع بين الأفراد والجماعات ممن يفتقدون الحقائق اليقينية التى تعانقها النفس وتركن اليها ركونا قويا ، أما المؤمنون وأصحاب اليقين فانهم يسلمون عادة من الأمراض النفسية الناشـئة من صراع الغرائز وكبتها لمـا

أشرنا اليه ، والجدير بالذكر أن احلال أى فكرة انسانية محل تلك الحقائق الاسلامية لا يعطى للنفس درجة الراحة ، ولا يحقق لها أمنا أو سلاما طويلا ، وان استراحت لها مدة فانها سرعان ما تثور عليها وترفضها ، والسبب بسيط وهو أن تلك الفكرة التى حاولت جذب الآخرين اليها هى فكرة نفس ما ، وأنها مهما بلغت من الدقة والشمول فانها لن تستوعب مطلوب الآخرين ، ولن تغوص فى أغوارهم بعكس الحقائق الدينية الاسلامية فانها بعد أن تأخذ دورها من الاثبات وصحة النسبة الى اللـه عز وجل (٣٠) تكون صاحبة الاحاطة والاطلاع على أبعاد النفس كلها، الأمر الذى يجعل النفوس جميعا فى صحة وثبات ويقين لو أخذوا بها وطبقوها .

أهم صفات تلك النفس المطمئنة :

لو قيل لنا أى الصفات جعلت من تلك النفس نفسا عليا ، وروحا مثلى ؟ لوجدنا أن القرآن الكريم أجاب عن ذلك بأسلوب سهل ومبسط ، لم يسلك فيه مسالك التحليل والتعقيد ، والسبر والتقسيم ، وانما سلك مسلك الاختصار المفيد جدا ، ولم يستعرض القرآن الكريم عددا من الصفات التى يجب أن تتحلى بها النفس المثالية ، ولكنه أشار الى لب الصفات ، وجماع الخصائص وحصرها فى صفتين اثنتين هما : الاطمئنان والرضا ، جاءتا فى آيتين مختصرتين من سورة الفجر يقول سبحانه **(يايتها النفس المطمئنة ، ارجعى الى ربك راضية مرضية)** (٣١) والآيتان سيقتا عقب بيان بعض النفوس المريضة والقلقة ، مثل نفوس الكافرين من عاد وثمود وفرعون ، ومثل تلك

---

(٣٠) واعنى بتلك العبارة ان الحقائق الاسلامية لا تقدم بانفعال وتعصب ، وانما تقدم الى غير المؤمنين بعد أن تبين لهم ثبوتها وصدقها ، وانها وحى مسوق من اللـه سبحانه ، اما المؤمنون فلا يحتاجون الى تلك المرحلة بالطبع .

(٣١) الفجر ٢٧ ــ ٢٨ .

النفوس المضطربة التى تهش لاكرام اللــه وتفزع من بلائه وامتحانه، وهــذه نفوس أناس لم يحسنوا علاقتهم بربهم وخالقهم .

وهناك صنف آخر لم يحسن علاقته بالآخرين فلم يكرم اليتيم ولم يحض على طعام المسكين ، وغلبته غرائز الشهوة والتملك ، وفرط هؤلاء وهؤلاء فى جنب اللــه حتى جاءوا يوم القيامة يتذكرون وأنى لهم الذكرى ، ويتندمون ولات ينفع الندم (٣٢) .

فى مقابل هؤلاء جميعا يكرم اللــه نفسا واحدة فينادى عليهــا تكريما أو يأمر ملائكته أن ينادوا ، ويخاطبها بأحب الصفات اليه ، وأعمقها فيها ، والصفتان المذكورتان يتقابلان مع صفات النفــوس الخسيسة تمام التقابل ، فاذا اتسمت نفــوس الكافرين والمضطربين والبخلاء بحالات الفزع والخفة والحنق والجحود والشح فان نفس المؤمن استقرت واطمأنت ، واذا فزعت نفوس من ذكرنا يوم القيــامة لــا تجــده من عذاب وأسفت وندمت فان نفس الصــادقين تردها راضــية مرضية .

والاطمئنان والرضا صفتان شاملتان لليقين والادراك والشــعور (الانفعال) .

أما اليقين فان المفسرين يجعلونه أول هيئــة ترسخت فى نفس المؤمن ، أو النفس المطمئنة ، فيقولون (المطمئنة الى الحق التى سكنها ثلج اليقين فلا يخالجها شك) (٣٣) فى الايمان ، ولا ترتاب ، ولا تنحرف ، ولا تتلجلج وهى سائرة على طريق الاسلام ، (وهى الساكنة الموقنــة بالايمان وتوحيد اللــه) (٣٤) وصفات اليقين على هذا النحو لا تتأتى

---

(٣٢) انظر السورة من ١ — ٢٦ .
(٣٣) تفسير الكشاف ح ٤ ٢٥٤ .
(٣٤) فتح القدير ح ٥ ٤٤٠ والظلال ح ٦ ٣٩٠٧ .

لغـير النفس التى آمنت بربهـا ، وصدقت برسـوله صلى اللـه عليه وسلم •

وأما حالة الادراك فانها نفس هادئة رزينة منطقيـة فى أحكامها ، تعمل فى انتظام وتوافق بعيدة عن تلك الدوافع الثائرة المضـطربة ، ومنتصرة على بقايا الشهوات والنفس الأمارة (٣٥) ، أو على حد تعبير أبى السعود (وصفت بالاطمئنان لأنها تترقى فى معارج الأسـباب والمسببات الى المبدأ المؤثر بالذات فتستقر دون معرفته وتستغنى به فى وجودها وسائر شئونها عن غيره بالكلية) (٣٦) •

وأما الحالة الشعورية لتلك النفس فانها تتجلى فى كونها راضية بقضاء اللـه وقدره ، تعلم أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها ، وما أصابها لم يكن ليخطئها ، والتى لا يستفزها خوف ولا حزن على أمر دنيوى ، ولا تخاف ولا تحزن فى الآخرة لما تجده عند اللـه سبحانه من ثواب ونعيم يقول سيد قطب (المطمئنة الى طريقها ، المطمئنة الى قدر الله بها ، المطمئنة فى السراء والضراء ، وفى البسـط والقبض ، وفى المنع والعطاء ••• المطمئنة فلا ترتاع يوم الهول الرعيب) (٣٧) ، وهى راضية فى ذاتها برضا اللـه عليها وبمننه وثوابه ، ومرضية بما أعده لهـا من نعيم مقيم (٣٨) •

واذا تأملنا الجوانب الثلاثة التى امتازت بها النفس المطمئنة : وهى الجانب اليقينى ، والادراكى ، والشعورى العاطفى أو الانفعالى أدركنا أنه ما بقى بها فراغ دون أن يشبع على نحو من الاشباع السامى والراقى ، فهناك السمو فى المبدأ والهدف ودرجته من اليقين ، وهنـاك

---

(٣٥) الانسان وصحته النفسية ٢٤٥ — ٢٤٦ •

(٢٦) التفسير ج ٥ ٣٣٥ •

(٣٧) فى ظلال القرآن ج ٦ ٣٩٠٧ •

(٣٨) تفسير الكلبى ج ٤ ١٩٩ وتفسير ابن كثير (المختصر) ج ٣ ٦٣٩ •

المثاليـــة والتسامى فى الادراك والوعى والفهم والتصرف والسلوك ، وهناك الرقة والنبل فى العاطفـــة والشعور والاطمئنان على المصير ، ويؤكد هـــذه الجوانب كلهـــا قوله صـــلى اللـــه عليه وسلم لرجـــل **(قل اللهم انى أســـألك نفسا بك مطمئنـــة ، تؤمن بلقائك ، وترضى بقضائك ، وتقنع بعطائك)** (٣٩) ٠

ولا شك أن تلك النفس هى التى تقـــع فى المقدمة والصدارة ، وهى الآمنة والناجية ، وهى محل العناية الربانية ، والشرائع السماوية لم تنزل الا لتجعل النفوس جميعا واحدة بتلك الصفة التى عليها النفس المطمئنة ، وتهدى وتهذب النفس الأمارة لكى تتحـــول الى الخـــيرة الراضية ، ولقد سبقت الاشارة الى أنه ليس من الضرورى أن تمـــر النفوس بالأطوار الثـــلاثة : الأمارة ثم اللوامة ، ثم المطمئنة بل قـــد تبدأ مطمئنة وتستمر ، أو لوامة وتســـتمر أو تنتقل الى المطمئنة ، وقد تبدأ أمارة وتستمر أو تترقى ، فالترتيب ليس شرطا بين الثـــلاثة أو اثنتين منها ■

المسئوليـــة النفسية :

ما زلنـــا بصدد الحديث عن الجانب الأول وهو معرفة الذات ، ولقد تعرضنا لأهمية تلك المعرفة ، واستخدام كلمة النفس مكان الذات ، وعلاقة النفس بالبدن ، والاستعداد والقابلية ، وأقسامها الثـــلاثة ، وبقيت عدة نقاط ترتبط بهـــذا الجانب ارتباطا وثيقا ، وأهمها فى المقام الأول تلك التبعة التى ألقاها الحق جل جلاله على النفس البشرية ، وهى تبعـــة التكليف الذى يبـــدأ بالايمان ويتطلب العمل الصـــالح والخلق الفاضـــل ٠

ومن يراجع كلمة النفس فى القرآن الكريم يجد أن الحيز الكبير

---

(٣٩) اخرجه الحافظ ابن عساكر (مختصر تفسير ابن كثير للصابونى).

جدا من الآيات التى ذكرت فيها تلك اللفظة قد شغل بالحديث عن المسئولية الانسانية ، وأن النفس وحدها هى التى وقع عليها هذا العبء ، فهى التى نبهت الى تحمله ، وحذرت من التفريط فيه ، وخوفت من العذاب فى الآخرة ، وشوقت الى نعيم العمل الصالح •

ومن الواضح أن الخطاب القرآنى اذ يتجه الى النفس لا يمس الا جانبها الادراكى ، ولا يحفز الا تلك الهمة الواعية القادرة على التمييز بين الخير والشر ، والحق والباطل ، والفانى والدائم ، والظلمة والنور ، وبالتالى فهو يطالبها بأن تتحمل مسئوليتها التى نيطت بها ، والتى ما خلقت هذه القوة المدركة الا لتقوم بها وتنهض من أجلها ، أما النفس كشهوة وغرائز وأهواء فمن الطبيعى أنها لا تكون محلا لمثل هذا الخطاب ، ولا أى خطاب ، وذلك لأن ادراك البشرى هو الذى يكون دائما مجالا واعيا للمخاطبة والحوار والاقناع والفهم ، والقوى النفسية الأخرى دافعة ومثيرة أو مستجيبة ، والقرآن عندما يوجه ويفصل يثير العقل ومراكز التفكير ، وعندما يحذر وينبه بين ما تحمله تلك النفس من آفات ، وأمراض نفسية تفسد على الانسان حياته ويقينه أو سلوكه •

نوعيــة تلك المسئوليــة :

هل ألقت المسئولية على النفس البشرية من حيث عمومها وشيوعها بين الأفراد ؟ أو ألقيت على البشرية بحسب تحزبها تحت مبادىء أو أديان معينة ، أو جماعات وطنية محدودة ؟ أو خوطب بها الانسان من حيث هو فرد فرد ، ومن حيث أن تلك النفس البشرية العامة قد لبست جسدا مخصوصا صارت لها به نوع من التحدد والتكيف والاستعداد والقدرة فصارت تخاطب بهذا الاعتبار الفرد المعين ؟

الحقيقة أن المسئولية التى ألقيت على البشر شاملة لكل هذه الأسئلة ، فهناك خطاب موجه الى البشرية من حيث هى جنس متميز

عن الأجناس الأخرى ، وفى هذه الحالة تكون لفظة الانسان هى الفيصل بين الآدميين وغيرهم فى تحمل تلك الدرجة من التكليف ، فيقول سبحانه **(انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا)** (٤٠) وهو تكليف مبنى على الادراك والعقل ، وله أصوله الايمانية والشرعية .

وهناك المسئولية التى تعنى جماعة معينين ، يقومون بالتبصير والتذكير والتعليم ، والحث على الخير ، والزجر من الشر ، وهذه الجماعة هى الفئة المؤمنة التى عرفت ربها ، واستقامت على طريقه ، فالتبعة التى تلقى على مثل تلك الجماعة تتمثل فى دعوة الآخرين وتفقيههم ، لا فرق فى ذلك بين جميع الولايات والدعاة الذين تفقهوا من أجل هذا الغرض ذاته ، فما قامت الولايات الا لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتطبق شرع الله ، وما تفقه الدعاة الا لينذروا قومهم ويأخذوا بأيديهم نحو الحق ، ويقصرونهم عن الشر ، واللفظة المستخدمة هنا هى لفظة الأمة التى تعنى أمة الحكم وأمة الدعوة والأمة المؤمنة بأسرها كل حسب استطاعته (٤١) .

واذا كان الله سبحانه وتعالى قد ألقى التبعة التكليفية على البشرية فانه علم أنها لن تسير على الطريق المرسوم لها ، ولذلك ألزم أمة الايمان دعوة هؤلاء وجهادهم ، والغلظة عليهم حتى يفيئوا الى طريق الله .

ثم تأتى الدرجة الثالثة من الحديث عن المسئولية ، وهى التى تتعلق بكل فرد فرد ونفس نفس ، وقد ركز القرآن عليها أثناء حديثه عن النفس الى حد أنها استغرقت معظم الآيات التى وردت

---

(٤٠) الاحزاب ٧٢ .

(٤١) مراجع كتابنا : الدعوة الى الله .

فيها كلمة النفس ، واستخدمت لفظة النفس أكثر ما استخدمت ، فى معرض الحديث عن المسئولية الفردية ، ولا عجب اذا وجدنا القرآن يركز على المسئولية الفردية لأن الفرد هو لبنــة الجماعة ، وهو العضو الأساسى فى أى أمة ، ومنه يتكون الهيكل الانسانى كله •

وضوح المسئولية الفــردية :

المسئولية التى نيطت بالانسان ليست احساسا أو شــعورا ، وليست منبعا للفعل تحدد جهته ، وتعين مصدره ، ولكنها مسئوليــة ادراك وكسب معا ، ادراك للمهمة التى خلق الانسان من أجلها وهى عبادة اللــه وتوحيده ، وتمييز واع يفرق بين ما ينفع وما يضر ، وفهم ثاقب يعلم يقينا أنه ليس من الحكمة أن يخلق اللــه كائنا على هــذا القــدر من العقل والحيــلة ليأكل ويشرب ، أو يستمتع فى الدنيــا فحسب ، ثم انتقالاً من الادراك والتمييز والفهم الى العمــل الذى يرضى الخالق جل جلاله •

والانسان من حيث هو فرد فى قيــادة نفسه كالانسان من حيث هو جماعة فى الامارة عليهم ، فكما أنه لا يتأمر على الجماعة الا أعقلهم وأبزهم وأبرزهم وأحكمهم فكذلك لايتولى قيادة وجوه النفس الا الوجه الواعى المدرك المتمثل فى العقل والتدبير ، وهذا الوجه هو القيم على على بقيــة الوجوه ، وهو البصــير بهــا (**بل الانسان على نفســه بصيرة** [٤٢]) بمعنى أنه يبصر ما يجب عليه فى الدنيا ، ويعرف عيوب نفسه فيها ، ويدرك ما ينبغى أن يقدم به لاعمار آخرته ، وعلمه هــذا يكون فى الدنيا عينا على نفسه ، وفى الآخرة حجة عليها [٤٣] ، وهو علم

---

(٤٢) القيامة ١٤ ، وبصيرة خبر الانسان : فعيلة بمعنى فعيل والتاء للمبالغــة .

(٤٣) فتح القدير ج ٥ ٣٣٧ •

يقظ يضع النفس البشرية تحت منظاره فى كل لحظة ، ويطلع عليهـا دائما ، يتفحصها من وجوهها المختلفة ، ويتأملها من جوانبها المتعددة، لايغفل عن رؤيتها ، ولا يسهو عن حركتها .

هذا من ناحية المسئولية الادراكية على النفس أما المسئوليـة الفعلية فكل فرد فرد مرهون بعمله كما يقول سبحانه وتعالى **(كل نفس بمـا كسبت رهينة)** [٤٤] ، والرهن بالأعمـال يكون بين الخلق وعند الحق ، أما بين الخلق فسيرة الانسان وسمعته وشرفه وذكراه مرهونة بمـا يقدم من فعل ، والبشر لا يرفعون من أوضع نفسه ، ولا يمدحون قعيدا عن المحامد ، بعيـدا عن الفضيلة ، وأما عند الحـق فالنفس (مأخوذة بعملها ومرتهنة به اما خلصها واما أوبقها) [٤٥] ، وأرباب الكسل أو العمل السىء مغلولون بما هم عليه ، وأصحاب الجد والعمل الصالح (فكوا رقابهم بما أطابوه من كسبهم كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحق) [٤٦] الذى عليه ، ومن ثم فقد طالب اللـه النفس أن تنظر ما قدمت ليوم القيـامة حتى تخلص ذاتهـا من الرهن المذكور **(يأيها الذين آمنوا اتقوا اللـه ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقـوا اللـه أن اللـه خبير بما تعملون)** الحشر ١٨ .

وهذه المسئولية لصيقة بكل ذات لا تتجاوزها الا لمن كان للنفس الفردية عليها سلطان من تربية أو اعداد كالأهل ، نجد ذلك فى قوله سـبحانه **(يأيهـا الذين آمنـوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة)** التحريم ٦ ، فلما كان الانسان مسئولا عن أهله

---

(٤٤) المدثر ٣٨ ورهينة كبصيرة وزنا ومبالغة وهم اسم بمعنى الرهن لا صفة والا قيل رهين ولأن رهينا فعيلا بمعنى مفعول يستوى فيه المذكر والمؤنث .

(٤٥) تفسير الشوكانى ج ٥ ٣٣٢ .

(٤٦) الزمخشرى تفسير الكشاف ج ٤ ١٨٦ .

كمسئوليته على نفســه طولب بما طولب به لنفسه من العمــل على وقايتهم من النار ، وذلك بالأخذ على أيديهم ، والعزم على ما نلزم به أنفسنا من فعل الطاعات ، وترك المعاصى ، وهــذا الأخذ والعــزم لا يتصور فى غير النفس الا مع أهل الانسان •

الجانب الثانى والثالث : الايمان والأخلاق :

يتكون للذات خبرات واسعة عن طريق معرفتها بنفسها ووقوفها على جوانبها المتعددة ، وهو ما سبقت الاشارة اليه فى الجانب الأول ، وأما الجانب الثانى والثالث المتمثل فى الايمان والأخلاق فانهما معــا يحققان المثالية العليا لتلك الذات •

وذلك لأن الانسان المؤمن الذى يعرف دينه ويعرف ربه ، الانسان صاحب الارادة القوية والعقيدة الواضحة هو الذى يستطيع بنــاء شخصيته على أدق المبادىء وأقومها ، والايمان باللــه وحده ، والتخلق بالصفات الفاضلة المنبثقة من مقتضى الايمان والقائمــة عليه يتميز الانسان المتحقق بهما بعــدة حقائق :

منها أن الذات الانسانيــة وهى تؤمن باللــه انما تعقد صلة وثقى بينها وبين ذات عليا ، تلك الصلة التى تمد النفس الانسانية بأرقى المعانى المحققة لمثاليتها العليا ، فالفرد منا جبل على أن يأمل ذاتا أخرى يتمنى أن يكون عليها ، والصلة الايمانية بينه وبين ربه تطلعه على صورة كمالية للــه لا يشابهها شىء فى هذا الوجود ، وتلزمه أن يعتنق ذلك اعتناقا شديدا لو أراد لصلته هــذه أن تكون اعتقادا يقينيا راسخا ، ولا شك أن تلك الكمالات توجد فى النفس البشرية رغبة المحاكاة قــدر استطاعتها ، وبدلا من أن يأمل الفرد تقليد فرد آخر نظيره فانه يتعلم من كمالات خالقه ، ويحاول تثبيت ذلك فى نفسه ، ويجاهدها جهادا مريرا على أن تتمثل الكمالات الربانية تمثلا يتفق مع امكان البشر وقدراته ، وأن تتشربها تشربا يتلاءم مع الطابع الانسانى المركب ، ومع النموذج

الآدمى الناقص ، والايمان من هذه الحقيقة يختلف اختلافا كبير عن المبادىء الانسانية ، وعن محاكاة البشر .

وكذلك فان الايمان يلزم الانسان فروضا من الطاعات والأعمال الصالحة التى تعود على النفس البشرية ذاتها بالقوة والعلاج ، والتربية والتهذيب ، وفوق هذا فالأعمال الشرعية التى يقوم بها الانسان لله هى استحقاق ربانى على العبيد نظير خلقه وكفالته وحفظه لهم ، أو هى فروض تقتضيها ذاته العليا لكمالها فى نفسها ، ولهذا كله لا يَجد الانسان غضاضة أو انتقاصا من نفسه وهو يخضع خضوعا كاملا لله سبحانه ، ولا يحس أن ذاتا أخرى تسخره فى طاعتها ، على عكس الاحساس الذى نحسه لو قدمنا ضروبا من الطاعة والانقياد لأشخاص بشريين مهما كانت مكانتهم .

والأخلاق التى تفرض على النفس البشرية من تلك الذات العليا المقدسة تختلف اختلافا شاسعا من حيث التسامى عن تلك التى تنبع من غرائز الانسان أو تصوراته أو الحدود التى يسنها ، ومن ثم يكون الانسان وهو يطيع ربه ويلتزم بأوامره ، ويستجيب للفضائل التى يدعوه اليها عبدا لذات كاملة لا لشهوة أو غريزة دنيئة .

والحرية الانسانية لا تمس فى ظل القيود التى يفرضها الشرع على السلوك الانسانى لأن الاسلام أفسح المجال كثيرا للعقل الانسانى فى مجالات دنيوية عديدة لم ينص عليها الشرع ، كما أنشطه لكى يفهم بعقله فى اطار النص نفسه ، وأيضا فان الاسلام لفت نظر الانسان الى تلك القوى الهادمة التى يحتويها كيانه ، وطالبه بمقاومتها ومجاهدتها ومصارعتها ، وهذا المسلك تأكيد للحرية فى حد ذاته ، ثم ان القواعد والضوابط الأخلاقية يمكن أن تفهم بصورة أخرى على أنها علامات هادية للنفس على طريق السلوك أشبه بعلامات المرور ، وليس فيها مساس بحرية البشر ، أو أنها جواحز أقيمت لتمنع الشهوة من

أن تتحكم فى السـلوك الانسانى ، وبذا يستقيم الكيـان البشرى وتنسجم قـواه .

والقرآن الكريم ملىء بالحديث عن الايمـان والعمل الصـالح والأخلاق الفاضلة التى تحض الفـرد فى ذاته وفى علاقته بغيره ممـا يضيق المجال بسرده وما هو أظهر من ذلك .

الباب الثالث

المنهج والتكوين الادراكى خاصــة

الفصل الأول

أحكام المعرفة والقوة الخاصة

الانسان انسان بادراكه :

تحدثنا فى الباب السابق عن تكوين الشخصية وأهميتها وجوانبها ونتناول فى هذا الباب أخص صفة فى الانسان وهى الادراك ، والتى بها يعتبر هذا الكائن متميزا عن غيره ، وألقى عليه من الأعباء والتكاليف ما لم يلق على أى كائن سواه ، ولقد ارتبطت مهمة الخلافة والعبودية بتلك الخصيصة ذاتها ، كما ارتبط كل قول أو نشاط انسانى فى الحكم عليه من جهة الصحة والفساد بهـا ، فهى منبع التوجيه لهذا المخلوق ، وهى ميزان سلوكه ، ومعيار تصرفه •

وغنى عن البيان أن ننبه الى أن القرآن الكريم وهو يتحدث عن التكوين الانسانى أسند كلا من مرحلتى النمو الى ذاته سبحانه ، فالمرحلة البدنية بتطورها من الأجنة الى المهاد الى الطفولة الى القوة الى الشيخوخة كلها لا تخرج عن غاية اللـه سبحانه ، وما تقتضيه هـذه الأطوار من حفظ ورزق مكفول بقدرة اللـه أولا ثم ببـذل الانسان وسعيه ثانيا ، ببـذل الأم والأب والغنى والقـادر للطفـل والفقير والعاجز •

وأظهر جانب فى الانسان استغرق كثيرا من حديث القـرآن هو الجانب الادراكى ، فحديثه عن العلم والمعرفة والفقه ، والتبصر والتذكر النواحى تشـغل حيزا كبـيرا من اهتمام الوحى فى اعداده للكائن البشرى وابراز آلات الادراك من حس وعقل وقلب وأهميتها ومقـدار المنـة الالهية فيها واضح لا يحتاج الى تعليق ، والقرآن يسند العلم واليقين ومسئولية الفعل الى الجانب الادراكى وحده ، وتكاد مشكلة التكوين العقلى الواعى والمستنير والمثمر تسيطر على آيات عدة من بين سور القـرآن العظيم ، وتدور الآيات هـذه بين توجيـه وارشاد للانسان حتى يستقيم تفـكيره ومنطقـه واعتقاده وفعله وأخـلاقه والتدبر والتفكر والتعقل يملأ كثيرا من آياته ودقائقه ، وتربية هـذه

وبين تقويم لهـذا الادراك عند اعوجاجه واختلال قوامه ، وهـذه المشكلة عينها هى شغل علماء النفس الشاغل فى عصرنا الحاضر وقبله منذ أن ظهرت الدراسات النفسية الى حد أن جعلت كلمة النفس رديفة لكلمة العقل بحيث اذا أطلقت الأولى انصرفت الى الثانية ، واذا تناول مفكر النفس اتجه مباشرة وللأول وهلة الى عمل العقل وتفكيره ، ولهذا قيـل : ان المشكلة الأساسية (فى علم النفس هى التنظيم العقلى : أى تكوين أنمـاط أو أنظمة متسلسلة من الأفكار والعادات التى توجه النشاط ديناميا) (١) .

والقرآن وهو يجادل ويناقش ويدحض ويفحم ويبرهن يخاطب الانسان على أساس من تلك الركيزة الفطرية المودعة فينا ، ولا يقصـد غرس الايمان عن هذا الطريق فحسب وانما يعنى القرآن ببث اليقين فى القلب واقناع العقل ، وصنع الادراك الواعى المتحفز لفهم حقيقة الأشياء وطبائعها ، وتفهم العلاقات على ما هى عليه ، يقول مالك بن نبى (لم يصنع الرسول صلى اللـه عليه وسلم نفوسا مؤمنة تقية فحسب ، وانما صنع عقولا مستنيرة ، وطرق ادارات فولاذية ، انه ينمى الشعور بالمسئولية ، ويشجع المبادأة فى كل انسان ، ويعظم الفضيلة فى أبسط صورها ، وان البأس والمسارعة لهما رائد كل عضو فى الجماعة اذ يرى نفسه فى سباق الى الخير بحسب أمر القرآن — نفسه) (٢) وما السباق الا مظهر من مظاهر النشاط العقلى المتوثب .

والاهتمام بتكوين عقل واع وقلب مؤمن ، واعتبار ذلك أنضج الصور البشرية ادراكا مسألة هامة وحيوية من وجهة النظر القرآنية ، وبناء عليه فالانسان الناضج هو الذى يتصل بالكون نظرا ودراسة ، وبالنفس معرفة ووعيا ، وبالمجتمع بذلا وتضحية وتعاونا وصـداقة

---

(٢) الظاهرة القرآنية ١٣٤ .

واخلاصا ، وبالماضى والحاضر اعتبارا واتعاظا ، وبالله ايمانا واعتقادا وطاعة وعبادة ، وتكون لديه قدرة كافية من الوعى على أن ينمى معارفه الايمانية والحيوية والاجتماعية وأن يتعامل مع المواقف بحكمة وروية وبالطبع ليس الانسان الناضج هو الذى بلغ مستوى معينا من التحصيل ، أو عرف عددا كبيرا من المعارف الدنيوية دون أن يرقى منها الى الايمان وبما وراء هذا الكون ، فهذا الانسان جاهل مهما بلغ من العلم فج ساذج مهما كان فى حوزته من العلوم والمعارف •

والانسان العاقل والحكيم هو الذى ينتقل من المركزية الذاتية ، ومن الانحصار من دائرة المطالب النفسية وحدها الى المركزية الاجتماعية ، وتكوين علاقات يسودها الحب والعطف والبر والتقوى والتعاون والاخاء والايثار والبذل الى آخر هذه المعانى الأخلاقية التى تعتبر فضائل اجتماعية راقية ، وأن يحس بالآخرين احساسا يقوم على الوعى والوجدان والانفعال بما لدى غيره من أبناء المجتمع الاسلامى خاصة والانسانى عامة ، فكل له حقوقه وأخلاقه ، والنصوص الدينية وفيرة فى هذا المضمار ، وكلها تحث على ما ذكرنا ، وتبين ضرورة أن ينبع النضج والوعى من الاعتبارات الشرعية والأوامر الربانية(٣) •

وأخيرا فان الأساس الذى يبنى عليه المنهج القرآنى للانسان فيما يتصل بقضية الايمان والخلافة والعبودية الشرعية ، والأخلاق الاجتماعية يقوم على اعتبار أن هذا الكائن قادر على التفكير والتعقل والفهم والاقناع ، ولديه ملكة تؤهله للوصول الى الحقائق المجهولة أو المبتغاة أو المختلف عليها ، وعنده قوة يستطيع أن يميز بها بين الخير أو الشر ، ومن ثم فان النزعة القرآنية فى الجانب المعرفى بقينية

---

(٣) انظر كتابات أوفرستريت : العقل الناضج ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٧٩ — ٨٢ بتحوير •

تحث على اليقين وتعالج موضوع الشك ليتخلص منه الانسان ويتجه بقواه الادراكية الى الاثبات اليقينى ، وجميع مناقشات القرآن مبنية على هذا الاعتبار وحده ، وحتى فى أشد الأحوال تجريدا وغيبية نراه لايصادر على تلك الملكة ولا يلغيها ، وانما يحاول تقريب الغيبيات الى الادراك والاستيعاب والتصور بالأمثلة الحسية والشواهد الواقعية ، ليدخل ما لا يتصور عقلا فى المجال الادراكى فيصير معقولا ومتصورا ولا يبقى هناك شىء لا ينال منه العقــل الانسانى قسطا من الوعى ان لم يتداركه على حقيقته .

وهــذه الطريقة المنهاجية تفتح ادراكات البشر الحسية والعقلية والوجدانية الذوقية على الذات الانسانية والكون وما وراءه ، وتستحث هذا المخلوق على الدأب فى الفهم ، وحسن استخدام قواه ، وأن يكون الاستخدام منتجا فى الجانب الدينى والدنيوى دون فصــل بينهما ، واعتبار أن ميل العقل الى الآخرة كلية افراط ، وجنوحه الى الدنياوحدها تفريط وضلال وزيغ وبهتان الى آخره ، ويطلق القرآن النظر الانسانى ليعمل فى المجالات النفسية والكونية والأخروية بلا حــدود ولا حجر ، وانما فقط على ضوء قواعد شرعية تهدد تفكيره ، وتضىء له بعض المجاهل التى يعجز أحيانا عن الوصول اليها ، ولا تظهر المحدودية العقلية لدى الانسان فى الحديث القرآنى الا عندما وازن بين العلم الانسانى والعلم الالهى ، هنا فحسب يقول القرآن (**وما أوتيتم من العلم الا قليلا**) وأيضا فاجتهادات البشر يقينية بنسب متفاوتة ، ولا تكون ظنية واهية الا عندما يذكر حقائق ثابتة كالبعث لمجرد أن العالم الأخروى لايقع تحت حواسه ومشاهداته المباشرة ، عندئذ يسخر القرآن من هــذا المنطلق القاصر والمظنون .

ونتأكد من صحة ما لمسناه اذا ألقينا نظرة ولو سريعة على آيات القــرآن التى استنهضت الحواس والعقــل وحركت القلب ، وطالبت الانسان بالعلم والتفقه والتبصر والتذكر والتفكر والاستيقان ، فأى

فائدة وراء هـذا كله لو لم يكن فى مقدور الانسان أن يدرك ويعرف ويتيقن ! !

ويعلق الزمخشرى فى تفسيره على قوله تعـالى **(يا يها النـاس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذى جعل لكم الأرض فراشـا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا للـه أندادا وأنتم تعلمون** [٤] فيقـول (ومالكم وصفتكم أنـكم من صحة تمييزكم بين الصحيح والفاسـد ، والمعرفة بدقائق الأمور ، وغوامض الأحوال والاصـابة فى التـدابير والدهاء والفطنة بمنزل لا تدفعون عنه) وأيضا فأنتم (من أهل العلم والمعرفة) [٥] .

ويمتدح الرسول صلى الله عليه وسلم كل طريق منهجى . وكل وسيلة تؤدى الى علم نافع فيقول (من سلك طريقا يبتغى فيه علما سهل الله له به طريقا الى الجنة [٦] ومر رسول الله بمجلسين : أحدهما يدعون الله ويرغبون اليه ، والآخر يتعلمون الفقه ويعلمونه فقال **(كلا المجلسين على خير ، وأحدهما أفضل من صاحبه ، أما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون اليه ، وأما هؤلاء فيتعلمون الفقه ويعلمون الجاهل فهؤلاء أفضل ، وانما بعثت معلما ثم جلس فيهم)** [٧] .

فلو لم يكن فى مقدورنا أن نعرف ونتعلم ما كان للآيات التى تحث

---

(٤) البقـرة ٢٠ — ٢١ .

(٥) الكشاف ح ١ ٢٣٧ — ٢٣٨ .

(٦) اخرجه مسلم ٢٦٩٩ فى الذكـر والدعاء ، وفى شرح السنة ح ١ ٢٧٣ ، كما اخرجه ابو داود بلفظه والدارمى واحمد وابن ماجه .

(٧) اخرجه الدارمى ح ١ ٩٩ وفيه ضعف بسبب عبد الرحمن بن زياد الافريقى حيث اتهم بالضعف .

على العلم والتفقه والبقين والبرهنه والحجة ، وماكان لاشادة النبى صلى الله عليه وسلم بطلب العلم والفقه أى مغزى ؟ ؟

وبعــد فاذا طرح السؤال التقليدى فى المعرفة وهو : هل يمكننا أن نعرف ؟ وأن نصــل الى يقين ؟ كانت اجابتنا على النحو الســالف والمبــين .

وننتقل الى السؤال التالى : بأى الوسائل يمكننــا أن نعرف ؟ أبالحس ، أو بالعقــل ، أو بالقلب ، أو بها جميعا ؟ هل وجــدت تلك الوسائل فينا بالصدفة والطبيعة أو بالقصد الالهى ؟ هــذا ما سوف نتناوله من وجهة النظر القرآنية البحتة .

ونبتــدى بخلق الله للقوى الادراكية .

خلق قوى الادراك :

فى مقام المنة الالهية والتفضل الربانى يسوق الله سبحانه وتعالى بعض نعمه على الانسان تذكيرا له بجميل لطفه جل جلاله به ، فيذكر ضمن ما يذكر حقائق ثلاث متجاورة فى آية واحدة اذ يقول **(قــل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقــل أفلا تتقون)** (٨) .

وتبرز الحقيقــة الأولى فى الرزق الحسى الذى يعطى للبدن قوامه ، وللحياة الانسانية بقاءها ، ويغــد الى الانسان من السماء مطراً ، ومن الأرض نباتا وحيوانا ، بينما تتجلى الحقيقــة الثانية فى شق الســمع

---

(٨) يونس ٣١ .

والبصر ، وبهما ينال الانسان رزقه المعنوى من المعارف ، وهما أبرز أدوات الادراك الحسى .

وبالحقيقتين معا يكون الله قـد أمدنا برزق يقيم أود البـدن ، ويحفظ له قوته ، وفى نفس الوقت أعطانا من الوسائل ما يغذى معارفنا بالعلم والادراك ، وكما جعل البطن وعاء حاويا تصب فيه الأرزاق المادية فانه قـد جعل العقل قوة لتجميع المعارف القادمة الينا من الخارج ، واذ كان الفم وما تلاه من المرىء والمعـدة هى مجارى الرزق الحسى ومكان هضمه فان آلات الادراك الحسى هى النوافذ الأولى التى زود الله بها الفطرة الانسانية لكى تمـد العقل بما يجرى من حوله . ثم يتولى هو بعـد ذلك عملية التجميع والتمييز واصدار الأحكام .

وتأتى الحقيقة الثالثة فى الآية مترتبة على الحقيقتين السابقتين حيث يخرج من الرزق الحسى فى السماء والأرض ومن الرزق المعنوى فى الادراك الحسى والعقلى ، لنبات من الأرض ، والسنبلة من الحبة ، والطير من البيضة والايمان من الكفر ، والهداية من الضلال (٩) ، وحيث تنمو القوى البدنية وتشتد بالرزق الحسى ، ويخرج الوعى والفهم من الأعصاب والأوتار الصامتة ، ويبرز الحكم جليا واضحا يقذف به العقل من مناطق لا تفترق عن غيرها من الناحية الحيوية اللهم الا من حيث الوظيفة والمهمة .

وبهذا الفهم يكون الترابط قويا بين أجزاء الآية الثلاثة ، وهـذا من الناحية الأولى .

وأما من الناحية الثانية فان أيا من أعضاء الانسان وأجزائه لم ينل من الحديث القرآنى فى صدد امتنان الرحمن على عبيـده مثلما نالت

---

(٩) القرطبى ح ٤ ٣١٧٤ .

أدوات الادراك ، ولم ترد الآيات تبين فضـل الله فى جزء من البنيـان البشرى كما بينت فضله علينا فى خلق وسائل معرفتنا ، فعلاوة على الآية السابقة يقول جل شأنه **(والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمـون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون)** ٧٨ النحل ، **(وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون)** ٧٨ المؤمنون ونظير هاتين فى صورة الأحقاف والسـجدة والملك ، وفى سورة الأنعام يتحدى الله سبحانه وتعالى ان هو أخـذ ومحا هـذه الأدوات هل من قوة تستطيع اعادتها ؟ فيقول **(قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من اله غير الله يأتيكم به)** (١٠) وفى هذه الآيات بين المولى عز وجل أنه هو الذى أنشـأ هذه القوى فى الانسان انشاء وابتداء ، وأنه هو الذى يصيرها ويجريها لكى تقـوم الادراكية ، فالخلق ابتـداء والتعبير بعـده من ابداع اللـه وتدبيره وعنايته وهذا هو سر التعبير بأنشأ وجعل ، ومن أقواله صلى الله عليه وسلم فى هـذا الموقف ما ترويه السيدة عائشة : كان رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى سجود القرآن بالليل **(سجد وجهى للذى خلقه وشق سمعه وبصره بحوله وقوته)** رواه الترمذى والنسائى وصححه **الحاكم على شرح الشيخين** .

ولتلك القوى سمتان بارزتان ، احداهما شكلية صورية وتتمثل فى أن الله زين صورة الانســان بهذه الآلات فى جمالها ومكانها من ترتيب الأعضاء فى الكائن البشرى ، والأخرى حقيقية عملية تتجلى فى وظيفة هذه الحواس أو الأفئـدة من حيث الادراك والتمييز والوعى والفهم ، والتدبير والعلم ، وفى صدر هذه النقطة ينبه القرآن الى أن الله خلقنا لا علم لنـا بشىء ، وأننا وان حملنا بعض الصفات الخلقيـة عن طريق

---

(١٠) الأنعــام ٤٦ .

الوراثة ، أو بعض المميزات البدنية كاللون أو الطول والقصر فاننـا لا نرث شـيئا من علم آبائنا ، وحتى لو ورثنا كل ذكاء الآباء والأجداد فاننـا لا نرث مع هـذا الذكاء أى حكم عرفانى ، أو أى معلومة ما لم نقم نحن باستخدام آلاتنا الادراكية استخداما يحقق لنا العلم ، ونحصل به على المعارف التى نحتاجها يقول القرطبى :

(أخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا لا علم لكم بشىء) مما يتصل بسعادتكم أو شقاوتكم أو منافعكم ، أو (غير عالمين شيئا أصلا) على حد تعبير أبى السعود ، ولكنه مع هذا أعطاهم السمع والبصر والفؤاد وهى آلات وقوى لكى يحصلوا بها العلم والمعرفة ، ويحسوا جزئيات الأشياء ، ويتنبهوا لمـا بينها من المشاركات والمباينات بتكرر الاحساس فيحصل لكم علوم بديهية تتمكنون بالنظر فيهـا من تحصيل العـلوم الكسبية الأخرى (١١) ، ولكى تبصروا فى الدرجة الأولى بها آثار صنعته سبحانه ، وتصلوا بعقولكم وقلوبكم الى معرفته وتوحيده ، وتعلموا أن الله هو مانح الحياة والوجود ، وهو معطى هذه القوى ومسيرها •

وكانت نظرة القرآن الكريم الى عملية الادراك الحسى نظـرة حقيقية ، فالعين لا ترى الأشياء بدون وسيط ضوئى ، وكذا الأذن ، ومن ثم فان الحق يصرح بهذا الوسيط فى مثل قوله جل شأنه **(هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا)** ٦٧ يونس **(وهـو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا) ٥ يونس (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة) ١٢ الاسراء ، ونظير هذه** الآيات فى سورة النحل وغافر والقصص ويقول القرطبى فى تأويل الآيات **(جعل الشمس ضياء ••• أى مضيئة أو ذات ضـوء ، والقمر نورا أى منيرا أو ذا نور فالضياء ما يضىء الأشياء والنور ما يبين) وجعـل** الليل لتسكنوا فيه مع الازدواج والأولاد والنهـار ليبصر فيه الخلق (والمبصر الذى يبصر والنهار يبصر فيه ، وقال مبصرا تجوزا وتوسعا على عادة العرب فى قولهم ليل قائم ونهار صائم) ومحو الليل لحمس

---

(١١) تفسير أبى السعود ح ٥ ١٣١ — ١٣٢ ، والقرطبى ح ٥ ٣٧٦٧ .

الضوء فيه ، وأما جعل النهار مبصرا فمعناه جعلنا شمسه مضيئة للابصار أى يبصر بها [١٢] .

والآن جاء دور الحديث عن وسائل الادراك كل وسيلة على حدة ، وسوف نتناولها مع الايجاز .

الادراك الحسى

الحس مصدر من حس بفتح الحاء والسين ، ويجىء المصدر بفتح الحاء وكسرها ، فيقال حس لفلان أى رق له ، وحس بالخبر أيقن به ، وأحسسته ، وأحسيته وأحسته عرفته وشعرت به ، وأحسست به ظننت ووجدت وأبصرت وعلمت ، وتحسس استمع لحديث القوم وطلب خبرهم فى الخير ، وتجسس فى الشر والحس بفتح الحاء فى المصدر الحيلة ، وقد تبنى الكلمة على الكسر فيقال (حس) مثل (ضرب فما قال حس) وجىء به من حسك وبسك أى من حيث شئت أو من حيث تدركه حاسة من حواسك .

والحس مصدر حس له اذا رق ، والحس الحركة يقال ما سمعت حسا ولا جرسا ، والحس الادراك ويقال الحق الحس بالاس أى الشىء بالشىء بمعنى اذا جاءك شىء من ناحية فافعل مثله .

والحاسة مؤنث الحاس وهى القوة النفسية المدركة ، والحواس المشاعر الخمس : السمع والبصر والشم والذوق واللمس [١٣] .

ولسنا نقصد من هذا الغرض اللغوى الا أن نتبين صلة الكلمة بالجانب العرفانى و نلمس تلك الصلة بوضوح فهى تدل على المعرفة

---

(١٢) تفسير القرطبى ج ٤ ٣١٤٨ — ٢١٩٩ ، ج ٥ ٣٨٤٥ .

(١٣) سعيد الخدرى : اقرب الموارد فى فصح العربية والشوارد ج ١ ١٩٠ — ١٩١ .

بالشىء والشعورية وظنه أو وجدانه وبصره والعلم به ، والتسمع الى الآخرين ومعرفة أخبارهم وتدل على الحيلة والادراك للشىء أو الحركة أو الصوت ، وادراكها يوصل الى اليقين حيث ورد معنى اليقين بين ثنايا اشتقاقها كما رأينا ، وما يصـــل الينا من خلال الحاســـة أو الحواس نستطيع بطريقة معينة أن نلحقه ببعضه ، فنلحق شيئا بشىء ، وربما نستخرج من تلك العملية شيئا آخر أو حكما آخر ، والحس فى اللغة يســـتخدم بمعنى الادراك الناقل أو الموصـــل عبر الحواس ، وبمعنى الادراك الواعى المميز الذى يربط به الأشياء ويصـــدر الأحكام ، فيصل بها الى اليقين ، والتفرقة بين الحس الناقل والحس الواعى مستخدمة فى المجال النفسى الحديث ، وبالتدقيق فى ألفاظ اللغة نستخرجها بسهولة .

وفى الاستعمال اللغـــوى اشـــارة واضـــحة الى الحس والحاسة والاحساس ، والأول الذى هو الحس قوة أو ملكة والحاسة قوة طبيعية لهـــا اتصال بأجهزة عضوية بها يدرك الانسان أو الحيوان ما يطرأ على جسمه من التغيرات ، والاحساس ظاهرة تتكرر وتحس دائما ، كما أن الاستعمال اللغوى يدل على الحواس الظاهرة الخمس ، وعلى الحس النفسى المباشر الذى ندرك به ما يدور فى أعماق نفوسنا وهو ما يسمى بالحس الداخلى ، وأيضا فاللغة عنـــدما تحدثت عن الحس لم تخل من الاشارة الى ادراك بعض المعـــانى ادراكا تلقائيا ســـهلا وهو مرادف للذوق ، والى ادراك الحكم الكلى أو ما يعرف بالحس السليم المرادف للعقل عنـــد ديكارت .

ولايخلو من اشارات اللغة سوى الحواس الباطنة كالخيال والوهم والحافظة والمصورة والمحررة ، وقـــد أفاض فيها ابن سيناء فى الشفاء والنجاة وعيون الحكمة ، وبالتالى فقول الدكتور جميل صليبا بأن اللغة لم تشر فى تناولها للفظة الحس الا الى الحواس الخمس ، وما سوى ذلك من الحس الداخلى أو الحكم أو الذوق لم تتناوله [١٤] قول يبتعـــد عن الحقيقة كثيرا .

---

(١٤) المعجم الفلسفى : المجلد الأول ٤٦٧ — ٤٧٠ .

الحس فى القرآن الكريم :

وجاءت كلمة الحس فى القرآن الكريم بما لا يخرج عما ورد فى اللغـــة ، فهناك حس بالشىء يحس حســا وحسا وحسيسا ، وأحس الشىء علمه وشعر به ومنه قوله تعالى • (**فلما أحس عيس منهم الكفر قال من أنصارى الى الله**) ٥٢ آل عمران أى علمه ، ومعروف أن الكفر فى حـد ذاته لا يحس بالحواس الخمس وانما يعلم بالحس الســليم المرادف للعقل ، وحكم سيدنا عيسى عليهم بالكفر بناء على هذا الحس هو المراد بادراك الحكم الكلى ، وهـذا الحس فى جملته تتدخل فيـه عناصر الحس الظاهر ، والحس السليم ، فالحس الظاهر الذى يدرك باحـدى الحواس الخمس يشعر بكفرهم من خلال أقوالهم وأفعالهم التى تنم عن عنادهم وجحودهم ، والحس الســليم يتدخل فى تقرير الأحكام والمعانى الخاصة بهم •

وهناك الحس بمعنى الذوق الذى يدرك بعض المعانى ادراكا تلقائيا مثل (**فلما أحسوا بأسنا اذا هم منها يركضون**) ١٢ الأنبياء ، ويشير قوله جل جلاله (**هل تحس منهم من أحـد أو تسمع لهم ركزا**) ٩٨ مريم الى الادراك الظـاهر باحدى الحـواس الخمس ، ويرد التحسس بمعنى التبحث والتطلب للخبر فى قوله جـل جلاله (**يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه**) ٨٧ يوسف • والحسيس الصوت والحركة التى تسمع (**لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون**) (١٥) ١٠٢ الأنبيـاء •

مهمة الاحساس

ولو حاولنـا أن نقصر الحس على الحس الظاهر وحـده وتركنا الحس الكلى للادراك العقلى لوجدنا أن المهمة الرئيســية لهذا الحس

---

(١٥) معجم الفـاظ القرآن الكريم ح ١ ٢٥٩ مجمع اللغة •

الظاهر تنحصر فى نقل صور العالم الخارجى الى الحس المشـــترك ، ولذا يعرف الاحساس بأنه (هو انطبـــاع آثار العالم الخارجى على الحواس وتأثر الأعصاب المتصلة بها) وبهذه الأدوات الحسية يتعرف الانسان على العالم الخارجى ويتكفل الجهاز العصبى بنقل الاحساسات الى المخ والمخيـــخ عن طريق الأعصـــاب المنتشرة فى جميـــع أطرافه الجسم (١٦) ، واهتم ابن القيم الجوزية بالحديث عن كل حاسة ومهمتها الجماليـــة والادراكية ، فتحدث عن البصر والســـمع والشم والذوق والمس بما يؤكد دورها الادراكى ، وعلل وجود عينين وأذنين وأنف ذى منفذين بأن ذلك راجـــع الى احتمال تعطيـــل احداهما فتقوم الأخرى مقامها ، فاذا تعطلت عين أو أذن ســـدت الأخـــرى مسدها ، بخلاف الذوق وهو اللسان فان مكانه محكم بوجود الفم والشفتين ، وهو أمر يجعله فى مأمن من الاصابة غالبا (١٧) ، ولذا خلقه الله واحدا .

وأما الآمدى فيشير الى كل قوة على حدة أيضا ، ويعرف قوة اللمس بأنها (عبارة عن قوة مبثثة فى كل البدن من شأنها ادراك ما ينفعل عنه البـــدن من الكيفيات الملموسة) والذوق عبارة (عن قوة فى العصـــبة المنبسطة على السطح الظاهر من اللسان من شأنها أن تدرك ما يرد عليها من الطعوم بتوسط ما فيه من الرطوبة الغذائية) والشم (عبارة عن قوة مرتبة فى زائدتى مقـــدم الدماغ من شأنها ادراك ما يتأدى اليهـــا من الروائح بتوسط الهواء) وفى كل من الشم أو الذوق يتم الاحساس بالمشمومات أو المطعومات بوصول ذرات من الأجسام الى اللســـان أو الأنف .

والسمع عبارة (عن قوة فى عصبة سطح الصماخ الباطن من الأذن من شأنها ادراك ما يتأدى اليها من الأصوات الحادثة بواسطة تموج

(١٦) د. الهاشمى : علم النفس التكوينى ١٠٠ — ١٠٢ .
(١٧) مفتاح دار السعادة ج ١ ٢٣٩ — ٢٤٤ .

الهواء) والبصر هو الآخر عبارة عن (قوة مرئية فى العصبة المجوفة من العين شأنها ادراك ما ينطبع فيهـا من صور وأشـباح الأجسام ذات الألوان المضيئة والمنعكسة فى الرطوبة الجليدية بتوسط الأجسام المشفة أى التى لا لون لهـا فلا تحجب ما وراءها) [١٨] •

ومحاولات الأمدى هذه شأنها شأن الدراسات الحديثة تتناول الاحســاس من الناحيتين الوظيفية العضــوية والادراكية الحاسة ، واذا أردت أن تستمع الى طرف غير يسير حول الحواس ووظائفها من وجهة النظر العلميـــة الحديثة فراجع ما كتبـــه الدكتور خالص جلبى وموريس بوكار [١٩] •

وهــذه الحواس الخمس تنقل المحسوسات الى الحس المشترك الذى هو عبارة (عن قوة ترتسم فيها صور الجزئيات المحسوسة) وتوجد فى مقدم الدماغ فى التجويف الأول ، وبعد ذلك تنشط المصورة والمتخيلة والوهمية والحافظة والنظرية والعملية [٢٠] •

القوى الحسية ومجالاتها فى القرآن :

أكثر القوى التى وردت فى القرآن هى الســمع (١٨٥) مرة ، والبصر (١٤٨) والذوق (٦٣) واللمس (٤) ، ومع أن كل قوة تعمل فى مجال خاص بها ، وتتميز بخصائص معينة داخل المجال المحدد لهـا من ناحية ، الا أنها تشترك كلها فى اطار عام يجمعها ، وهذا الاطار الجامع لهـا هو توجيهها كلها الى طريق الحق والهداية ومطالبتها لأن تعمـل بدقة كى تصل الى الصراط المنشود •

---

(١٨) المبين فى شرح معانى الفاظ الحكماء والمتكلمين ١٠٣ ، ١٠٤ •

(١٩) جلبى : الطب محراب الايمـان ج ١ ١٦٢ — ١٦٨ ، بوكاى : ما اصــل الانسان •

(٢٠) الجرجانى : كتاب التعريفـات ٩١ ، والمبين للآمدى ١٠٥ ، والمعجم الفلسفى ٧٢ •

وأما الناحية التى تتمايز فيها ، بحيث يكون لكل قوة نشاط يخص طبيعتها فاننا نجـد السمع والبصر أكبر قوتين لهمـا تأثير ملحوظ فى تحصيل المعارف الانسانية وكسب الهداية .

ونتبين من خلال السياق القرآنى أن السمع هو أوسع هذه القوى انتشارا وحيوية ، وأنه يعمل فى اطار سـماع القول والخبر والآيات القرآنية ، والوحى والمنادى ، والتسـمع لآثار السـابقين والأولين ؛ والكلام العام والخاص بالدعوة ، والأصوات العامة والخاصة بالتبشير أو التنذير ، والدعاء والكتاب الموحى الى النبى صلى الله عليه وسلم ، وتحس بجلاء أن الاعتداء بقوة السمع واعتبارها قوة موجودة حكما وفعلا لا يكون الا عندما تصغى آذان البشر لسماع الحق والأخبـار المتعلقة به وتستجيب بالايمان والانصياع لأوامر اللـه وتوجيهاته ، والا تكن كذلك فان صاحبها أصم ولو كان سميعا ، وهو ممقوت مهما حصل من المعارف الدنيوية البعيدة عن رحاب الايمان والاستجابة ، وبالتالى فالذى يسمع حقيقة هوصاحب تلك الملكة الذى استمع واهتدى، ومن لم يكن كذلك فلا سمع له ولا أداه وهو يشبه الأصم الذى فقـد حقيقة أذنيه وصار لا يدرى شيئا مما يقال له .

والقوة البصرية تعمل فى الجو المناسب لها فهى تبصر آيات اللـه الكونية والمتلوة ، وترى المرئيات على اختلافها ، كل ذلك فى الحـدود الايمانية المطلوبة ، وان هى استقامت واتبعت فالابصـار حقيقـة والا وصف المنكر بالعمى مهما ملك من العيون واتساعها ، وكل شىء فى هذا الكون يمكن أن يكون مجالا لرؤية تلك الحاسة ، وأما المغيبـات كالجنة والنار ، وكذلك الذات الالهية فانه لا طاقة للعين على رؤية الله فى الدنيا ، ولا يمكن لها أن تمتد لتخترق الحجب كى تطلع على العـالم الغيبى بكل ما فيـه طالمـا أنها مقيدة بقيود العالم المشاهد والمحسوس. ومن ثم كانت المغيبات والذات من مجال السماع لا الرؤية .

ويظل السمع محصورا فى دوائر المسموعات الخارجية كما ذكرنا ، أما البصر فانه يمتد من الرؤية الظاهرية للأشياء الممكنة الى البصربمعنى العلم أو التذكر والاتعاظ ، أو البصر الباطنى لأحوال النفس ، أوبصر القلب ورؤيته ، أو البصـــائر التى تتفتح عليها القلوب هداية ويقينـــا كالقرآن ونوره ، أو التبصرة التى تذكر وتكون داعية الى الانابة ٠

ولسنا نتبين فى الأذن علامة أو سمة تميز المؤمنة منها عن الكافرة كما نتبين ذلك فى العين ، فالباصرة المؤمنة خاشعة ونكاد نعرفها بسيما الخشـــوع والغض ، وعين الكافر لا تخشع الا عندما يكشـــف لها عن حقائق العذاب يوم القيامة فتخشع الأبصار ، وترهق الذلة أصحابها[٢١]٠

والذين أبصروا آيات الله فى الكون أو وحيه وتدبرها وآمنوا ، وأبصروا بواطنهم ونفوسهم فقوموها وهذبوها وتفتحت عيون قلوبهم وبصائرهم ، واتعظوا بكل ما شاهدوا فهم أولوا الأبصـــار والألباب النيرة المستبصرة ، ولشدة الارتباط بين العين والقلب المستنير يضرب الله سبحانه بينهما قوله **(ونقلب أفئدتهم وأبصارهم)** الأنعـــام ١١٠ وقوله **(ما كذب الفؤاد ماراى)** ثم قال بعدها **(مازاغ البصر وماطغى)** ١١ ، ١٧ النجم ، فهى طليعة القلب ورائدته فان رأت شيئا أدته اليه ، واذا استقر فيه شىء ظهر فيها وبدا عليهـــا كما يرى ابن القيم [٢٢] ، وقـــد يرد الاقتران بين السمع والبصر والقلب وهو كثير ٠

وحاسة الذوق لم يتنـــاولها القرآن الكريم فى المطعومات الا فى موضع واحد تقريبا عندما قال سبحانه عن آدم وزوجته **(فلمـــا ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما) ٢٢ الأعراف ، وما سوى هـــذا الموضـــع**

---

(٢١) النـــازعات ٩ ، والقمـــر ٧ ، والقـــلم ٤٣ ، والمعارج ٤٤ ، والنـــور ٣٧ ٠

(٢٢) مفتاح دار السعادة ج ١ ٢٣٩ — ٢٤٤ ٠

فالمذاق اما رحمة وفضل ونعما وبعد ضراء ، واما جوع فى الدنيا ، أو شدة وبأس من العبيد لبعضهم ، أو عذاب من الله يمس البشر فى هذه الحياة ، أو موت وعذاب أخروى يذوقونه بعد البعث والخروج أو مس سقر .

وكأن المطعومات والمذاقات الحسية التى تخص البطن أو العالم الخارجى لا قيمة لها ، ويجب أن يتحول الذوق الى مهمة عرفانية تتصل بالغاية الرئيسية التى خلق الانسان من أجلها ، وحاسته التى معنا اما أن تذوق الرحمة والفضل فعليها أن تبعث بذلك الى مناطق الادراك ومراكز العليا كى يؤمن الانسان ويشكر قولا وعملا ، والا فعليها أن تذوق عذاب الدنيا والآخرة ، وتذوق جزاء عملها الذى قدمته ، والذوق هنا مرحلة تلى مرحلتى الاسماع والابصار ، أى أن الانسان لا يذوق شيئا قبل أن يدركه باحدى حاستيه الأذن أو العين ، وبالتالى فحاسة الذوق مرحلة ثالثة وجزائية بالاعتبار الذى أشرنا اليه .

وأما حاسة اللمس فعلى الرغم من أنها لم ترد كثيرا فى القرآن الكريم حيث جاءت فى أربع مرات : مرتين على الحقيقة والثالثة والرابعة على المجاز والكناية ، أما استعمالها على الحقيقة فمثل قوله تعالى **(وانا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرا شديدا وشهبا)** (٢٣) ، وقوله **(لو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا أن هذا الا سحر مبين)** (٢٤) والاستعمال المجازى جاء فى قوله جل شأنه **(أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا)** (٢٥) نقول على الرغم من هذا الاستعمال القليل ، ومن أن تلك الحاسة لا تستخدم فى المجال المعرفى مثلما تستخدم العين والأذن ، وأن وسائل تحصيل

---

(٢٣) الجن ٨ .
(٢٤) الانعام ٧ .
(٢٥) النساء ٤٣ والمائدة ٦ واللمس هنا كناية عن الجماع .

العلوم يتوقف كثيرا على السمع والبصر أكثر مما يتوقف على الذوق واللمس ، وأنه فى كثير من المواقف العرفانية يصير استخدام الشم والذوق واللمس غير ممكن ، وربما يؤدى الى ضرر محقق ، وكثير من الأجسام أو العناصر يحظر التعامل معها بأى من القوى الثلاثة ، ولا يبقى الا السمع والبصر وحدهما طريقين لمعرفة تلك المحظورات ، على الرغم من كل هذا إلا أن الله سبحانه جعل قوة اللمس فى آيتى الجن والأنعام السابقتين طريقا من طرق المعرفة المؤكدة ، وذلك لأن الجن تثبتوا من حراسة السماء لا بالسماع ولا بالرؤية ولكن باللمس ، وأن الله سبحانه أخبر أنه لو أنزل كتابا فتحققوا منه باللمس لقالوا ان هذا الا سحر مبين لاصرارهم على الكفر ومجحودهم لنبوة النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يجعل الله سبحانه وتعالى حاسة الرؤية للكتاب دليلا على التحقق من وجوده بل جعل اللمس أداة التثبت منه ، وبالتالى فالاستخدام القليل ليس عنوانا على ضعف الوسيلة فى توصيل الحقائق الى المراكز الراقية .

ويقرر القرطبى فى ذلك تفسيرا لقوله سبحانه (فلمسوه بايديهم) أى (فعاينوا ذلك ومسوه باليد كما اقترحوا وبالغوا فى ميزه وتقليبه جسا بأيديهم ليرتفع كل ارتياب ويزول عنهم كل اشكال لعاندوا فيه وتابوا كفرهم) واللمس باليد مع النظر يزيل كل اشتباه ويبطل كل اعتذار عند أبى السعود (٢٦) ، والأعمى يسمع ويلمس ، والأصم الأعمى يلمس فقط ، واللمس يكون بأى جزء من الجسم فلو فقدت اليد بقيت مساحات فسيحة يتحقق بها اللمس بخلاف ما اذا فقدت الأذن أو العين فليس هناك ما يعوضها ، ولو وجدت الثلاثة فنعما هى درجة من التثبت واليقين وادراك المحسوس .

---

(٢٦) تفسير القرطبى ح ٢ ٣٩٦٠ ، وتفسير ابى السعود ح ٢ ١١٢ .

أيهما مقدم : السمع أو البصر ؟

عنـــدما نقرأ آيات القرآن الكريم نجـــد أن حاسة السمع تقـدم على البصر بكثرة مثل قوله تعالى (**أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننـــا**) ٣٨ مريم (**ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون**) ٢٠ هـــود (**وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم**) ٢٢ فصلت، وكذلك جميع الآيات التى تحدثت عن خلق الله لقوى الادراك وانشائها وجعلها وقـــد يقوم البصر على السمع لدى الانسان قليلا مثل (**مثـــل الفريقين كالأعمى والأصم والبصـــير والسميع**) ٢٤ هـــود (**له غيب السموات والأرض أبصر به وأسمع**) ٢٦ الكهف ، وتقديم البصر على السمع أقل بكثير من سبق الثانى عليه ، هـــذا بالنسبة لحاسة السمع والبصر عند الانسان ، أما بالنسبة لصفة السمع والبصر عند الحق جل جلاله فالسمع مقدم على البصر دائما عند ذكرهما معا .

وهنا نسأل هل يمكن أن نعلل سبق كل منهما على الآخر خاصـــة فيما يتصل بنا ؟ وللاجابة على السؤال نطرح تعليلين أحدهما معرفى يرتبط بسعة الادراك وضيقه ، والأخرى عضوى وظيفى يتصل بنمو أعضاء الحس وآلاته :

واذا طبقنا هذين المحورين فى الاجابة على كل من تقديم السمع على البصر والعكس وجدنا أن السمع عندما يقدم فلأنه من الناحيـــة المعرفية الادراكية البحتة ، يدرك فى الليل والنهار أى فى الضـــوء والظلام ، واليقظة والنوم ، ومع وجـــود حجاب وبدونه ، ويضيف العلامة أبو السعود قوله (ولمـــا أنه طريق تلقى الوحى) ومن الناحية الوظيفية المتصلة بالنمو يؤكد علماء نفس النمو أن الوليد يخرج لهـــذا العالم بعد الولادة وأجهزته شبه كاملة ، وقوى الحس عنده مغـــذة ، كما أخبر اللـــه سبحانه فى ســـورة النحل (الآية ٧٨) وتستطيع أن تقوم بنشاطها على فترات متلاحقة ابتداء من الشهر الأول حتى نهاية السنتين ، وفى نهايتها تكون القوى الحاسة قد اكتملت نموا واستعدادا ،

وأسبق هذه الآلات احساسا هى الشم واللمس والذوق ، أى الاحساسات الدنيا الدسيسة ، حيث تبدأ فى الشهر الأول ، وتتعاون الثلاثة على امداد الوليد بما يحتاجه من غذاء وأمومة ، والمدرك لديه فى تلك المرحلة ما يلمسه أو يشمه أو يذوقه ، وبذا تكون الأشياء المتصلة بجسمه مباشرة هى محل الادراك .

ويلى هذا الاحساس الأدنى احساس السمع ، فيستطيع فى نهاية الشهور الأولى أن يسمع الأصوات التى تقع فى دائرة سمعه وان كان لا يميزها الا فى الشهر الثامن والتاسع ، فسماع الأصوات سابق على تمييزها عن بعضها ، ويتوسط الادراك البصر بين مرحلة السمع والتمييز حيث يبدأ الطفل فى الرؤية ابتداء من الشهر الرابع والخامس ، وهذا يعنى أن حاسة السمع سابقة على العين [٢٧] ، وقد صرح بذلك كل من أبى السعود وابن كثير يقول أبو السعود فى تعليل تقديم السمع (ولأن ادراكه أقدم من ادراك البصر) [٢٨] ، ويقول الثانى **(ذكر تعالى سنته على عباده فى اخراجه اياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا ثم بعد هذا يرزقهم السمع الذى به يدركون الأصوات ، والأبصار التى بها يحسون المرئيات ، والأفئدة وهى العقول)** [٢٩] .

والمفسرون اذ يدركون أقدمية السمع نموا عن البصر يأخذون ذلك من الآيات التى تحدثت عن خلق قوى الادراك بصيغة وأنشأ ، وقد أجمعت على تقديم السمع على البصر والأفئدة طبقا لما خلق الله الانسان عليه ، ولما ينشئه فيه ، ولم يزد العلم الحديث شيئا فى مسألة النمو عما قرره القرآن .

---

(٢٧) أنظر د. الهاشمى ٦٤ — ٦٨ ، ٧٥ ، ٨٦ — ٨٧ ، ٩٩ — ١٠١ ، ١٠٢ ، ٢٢٣ .

(٢٨) التفسير ح ٥ ١٣٢ .

(٢٩) تفسير ابن كثير ح ٢ ٥٧٩ .

وضميمة الى ما سبق فان المخ يتكون من أربعة فصوص : الفص الجبهى ، وبه مراكز الكلام والكتابة والحركة والأفكار السامية ، والفص القفوى ، وبه مراكز الابصار والكلمات المرئية ، والفص الصدغى ، وبه مراكز السمع والكلمات المسموعة ، والفص الجدارى وبه مركز الاحساس (٣٠) •

ويتضح لك من الرسم المقابل وأسماء الفصوص أن مركز الابصار يقع خلف مركز السمع ، وأن فص السمع مقدم عليه ، حيث يقع مركز السمع فى الفص الصدغى بينما يقع مركز الابصار فى الفص القفوى المؤخر ، وأيضا فان المساحة التى يشغلها الفص الصدغى الحاوى لمركز السمع كبيرة وشاسعة يليها مركز الاحساس الجلدى ، يليها مركز الأفكار السامية ويقع فى المؤخرة والضيق مركز الابصار ، فان قدم السمع فلهذه الحقائق التشريحية غالبا •

ومن الجدير بالذكر أن هذا التعليل القائم على النمو ، والذى يفسر سبق السمع على البصر لا يجوز استعماله فى تعليل أسبقية صفة السمع على البصر بالنسبة للذات الالهية لاستحالة التكوين والنمو فى الذات القديمة الأزلية •

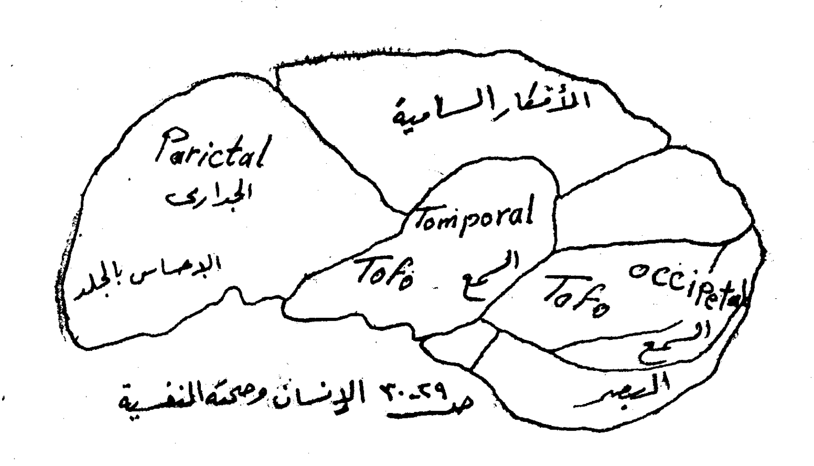
وننتقل الآن الى تعليل تقديم البصر على السمع ، وقد رأينا أنه من الناحية الوظيفية فى النمو يسبق السمع ، ومن ثم فان الاعتماد على هذا الجانب ليس موافقا للترتيب القرآنى فى الخلق ولما أثبته العلم بعد ذلك ، فلابد والحال كذلك أن ننظر لاعتبارات شكلية حيث تقع العينان كأداتين فى مقدمة الوجه سابقتين على الأذنين ، أى أنهما متقدمتان كأداتين متأخرتان باعتبار مركز ادراكهما داخل المخ ، وأيضا

---

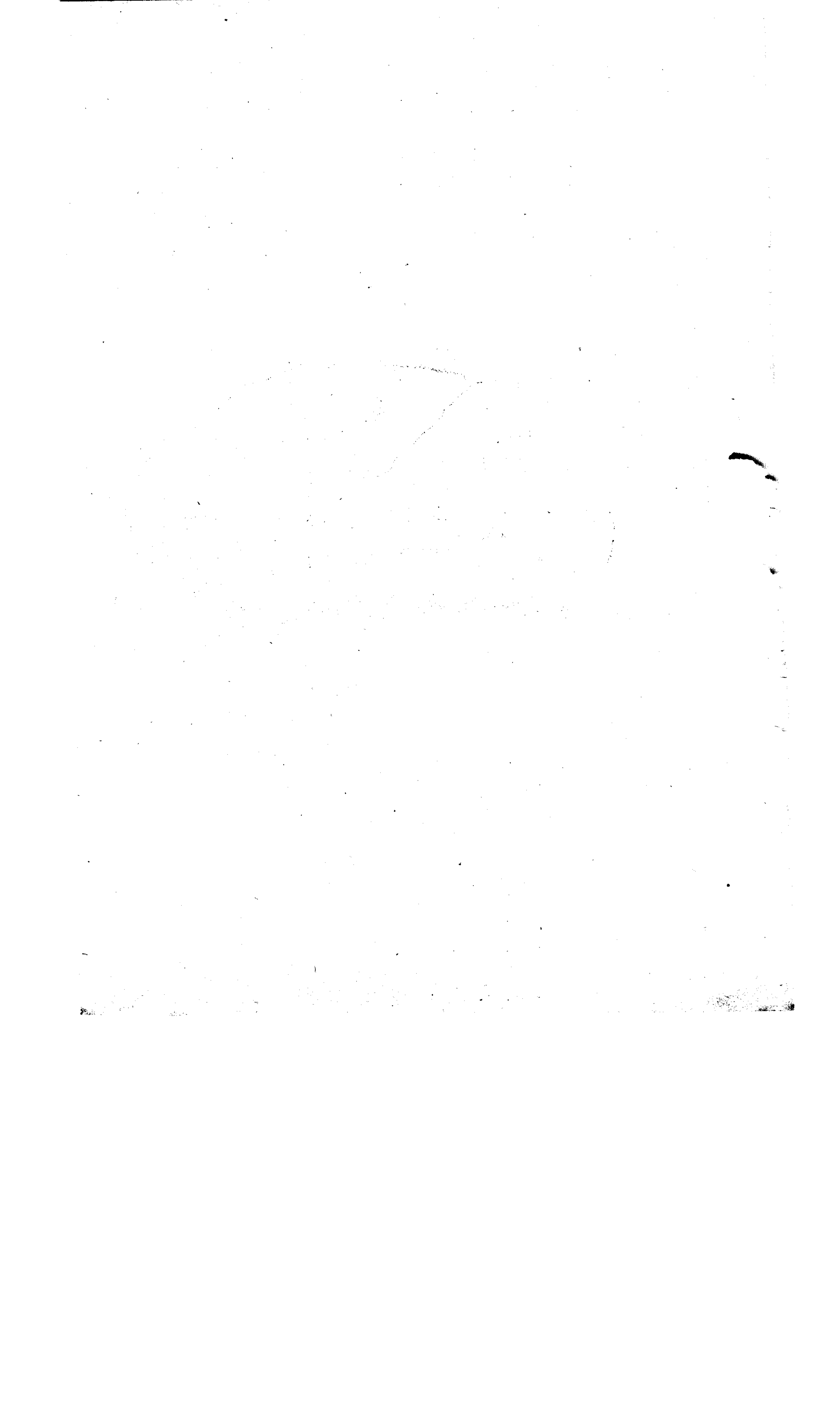
(٣٠) د• منصور فهمى : الانسان وصحته النفسية ٣٠ •

فانه بالنسبة للتعليل المعرفى الادراكى يكون ادراك العين قويا وجليا عندما تتهيأ أسباب الرؤية ، وتخلو الموانع ، ومن أجل هـذا الوضوح اعتبرت الرؤية فى الشهادات الشرعيـة دون السماع كما قال النبى صلى اللـه عليه وسلم (**أرأيتم ضـوء الشمس على مثلها فاشهد**). وينشد الشريف الرضى :

فاتنى أن أرى الديار بطـرفى   فلعلى أعى الديار بسـمعى



صـ ٢٩-٣٠ الإنسان وصحته النفسية



الفصل الثاني

القوة العاقلة

ثانيا — الادراك العقلى :

سوف نتحدث عن العقل هنا فى ضــوء القــرآن وحده ، وسوف لا نتجاوز نظــرته واهتمامه الا بقــدر محدود وذلك بسبب أن بحثنا مهتم بالمنهاج ووسائله كما هو وهى فى الكتاب العزيز ، واذا سعــدنا قليلا فلتوضيح ما ينبنى عليه حديث القــرآن عن العقل .

ماهيــة العقل :

لم يشر القــرآن من قريب أو بعيد الى المفهــوم الحقيقى لتلك الحاسة الراقية التى أودعها اللــه فى الكائن البشرى ، ولم نجد من بين آياته ما تضع أيدينا على الحد المبين لهــذه الميزة التى حبانا بهــا المولى دون سائر الكائنات ، والتى كرمنا بها ، وحملنا الخلافة بنــــاء على ايداعها فى جبلتنا ، كما لم نجد أبسط عبارة تفسر لنــا طبيعة عمل العقل ، واكتفى القرآن بالحديث عن العقل باعتباره حالة مدركة وقائمة لا تحتاج الى توضــيح لمــاهيتها ولا لطبيعــة نشاطها ومن ثم فقد استفاض هذا الكتاب فى أنواع النشاط ، ووجوه الادراك دون ذكــر شىء عن الحقيقة المجردة وكيفية الطبيعة المدركة .

ولقد سبق لنا أن قلنا مرارا ان حكمة القرآن تقتضى دائما تنــاول الأشــياء من حيث آثارها وخصائصــها العملية (من جهة كونها أمرا مجردا ، والحديث عن العقل خاضع لتلك النظرة العامة ذات الطابع السائد فى الكتاب العزيز ، وقد يكون الحديث مبنيا على وضوح الشىء فى ذهن المخاطب من جهته الشرعية أو اللغوية أو على كونه أمرا معلوما بالضرورة والبداهة والحس الداخلى الذى لا ينكر ولا يجهل .

والعقل أمر نحســه فى ذاتنا ، ونعرفه فينا بالضرورة ، ولغتنــا العربية تقدم للنص القرآنى فيضا من الاشتقاقات والاستعمالات لتلك الكلمة يزيل عنها الغموض ، ويجليها أمام القارىء والمستمع على حــد

سواء ، ولقد نزل الوحى يتحدث عن العقل والعرب يعرفون بوضوح لا يحتاج الى تعريف اشتقاق الكلمة وتصريفها والمعانى المستعملة مع كل اشتقاق وتصريف ، فيفهمون جيدا قولهم : عقل الدواء البطن عقلا بمعنى أمسكه ، فالدواء عقول ، والبطن معقول وصاحب الدواء عاقل ، كما يدركون : عقل الغلام عقلا أدرك فهو عامل ، وعقل الانسان السيء فهمه وتدبره ، وعقل البعير ثنى وظيفه مع ذراعه فشدهما معا بحبل يسمى العقال ، وعقل القتيل أدى ديته ، وعقلا عن فلان أدى الدية عنه ، وعقل له ، ترك العقل للدية ، وعقل الوعل صعد وامتنع فى الجبل العالى ، وعقل الظل تام قائم الظهيرة ، وعقل البعير أكل العاقول ، وعقل اليه لجأ ، وعقل البعير كان أعقل ، وعقل الغلام بمعنى عقل أيضا ، وعاقلة معاقله أى غالبة فى العقل ، وأعقل الرجل وجب عليه عقال أى زكاة عام ، وتعقل بمعنى عقل أو تكلف العقل ، وتعاقل القوم دم فلان عقلوه بينهم ، وتعاقل الرجل أرى من نفسه العقل ، واعتقل لسانه عن المجهول حبس عن الكلام فلم يقدر عليه .

والعاقل جمعه عقال وعقلاء وعاقلون ، ويقال امرأة عاقل لما فيها بالغ وبالغة ، والعاقل الوعل سمى به لصعوده والعاقل دافع الدية ، والعاقلة قوة العقل كالذاكرة ، والعاقلة عصبة الرجل وهم القرابة من جهة الأب ، والعاقول معظم البحر أو موجه أو نبات أو ما يلتبس من الأمور ، والعقال الحبل الذى يعقل به البعير ، والزكاة .

والعقل مصدر مأخوذ من عقال البعير بمعنى الربط والامساك والامتناع ، ويقال للقلب والدية والثوب الأحمر الذى يجلل به الهودج ، والعقلة اعتقال اللسان عن الكلام ، والعقول المدرك الفاهم للأمور ، وما يعقل البطن أى يمسكه من الأدوية والا عقل به عقل راجح والأنثى عقلاء ، والمعقل الملجأ ، ومكان عقل الابل ، والمعقول ما يعقل وقد يطلق على العقل كذلك (٣١) .

---

(٣١) اقرب الموارد ج ٢ ٨١٢ — ٨١٣ .

ومن هـذا السرد الاشتقاقى نتبين أن العقل بمعنى الامساك والامتناع والدية والزكاة والتمييز والفهم والعلم بالشىء الذى هو نقيض الجهل ، والتعرب الأحمر الى آخـره ، والعرب اذ يستعملون هـذا كله فى غنى عن تعريف مميز للعقل ، وهم بمنأى عن أن يعرفوا معروفا واضحا لمـا تقتضيه بداهتهم وفصاحتهم من الوجازة ونبـذ التكرار والاطناب ، وما دام الأمر كذلك فان العلماء ظلوا أوفيـاء للمفهوم اللغوى لا يحتاجون فى معنى العقل الى تعريف ، ولا يشتغلون بوضعه ، وجل اهتمامهم بالعقل منحصر فى تحريكه نحو التمييز بين الخير والشر ، والحق والباطل ، والهداية والضلال ، وكسب المحامد وترك المفاسد ، وتحصيل العلم وازالة الجهل ، ولم يبتعدوا عن هذا الطريق الا بعد أن تفلسف العقل المسلم وتأثر بالفلسفات الواردة ، عند ذلك تناولوا العقل من الناحيـة النظرية بالتعريف والتقسيم ، ونشـأ ما يمكن تسميته بعلم المعقول : وهو (علم يبحث فيـه عن العقل) (٣٢) ، وهو شبيه بنظرية المعرفة .

ولمـا تناولوا العقل من تلك الجهة النظـرية حاولوا تعريفه ، وتقسيمه ، وبيان محله ، والفـرق بينه وبين القلب ، وعلاقته بالحواس والجسم عامة والدماغ بصفة خاصة ، والعجيب أن هذا التناول الجديد للعقل غزا العـلوم كلهـا تقريبا ، لا فرق فى ذلك بين علم التفسـير والحديث ، والعلوم التى تختص بهـذا الموضوع كعلوم الحكمة ، ومصطلحات الفنون ، وعلى سبيل المثال فان مفسرا كالقرطبى عرفه بتمسكه فى تفسيره باللغـة والأثر نراه يتناول أول آية ذكرت فيهـا كلمـة العقل وهى الآية (٤٤ من سورة البقرة) ونصها **(أتأمـرون النـاس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون)** فيجرى فى تفسير العقل مجرى غيره من الحكماء ، وبعد أن ىامح الى

---

(٣٢) نفس المرجع .

بعض المعانى اللغوية للكلمة المساحة وجيزة يتوسع فى معنى العقل على طريقة المتفلسفة ، ولا يستنكف من ذكر أقوال بنسبها الى الفلاسفة صراحة قائلا (وقد صارت الفلاسفة الى أن العقل قديم) ثم يبدأ فى ذكر أقوالهم الخاصة بماهية العقل ، ونفس الشىء يصنعه أبو السعود مع الايجاز الشديد ، كما خاض فيه المحاسبى فى كتابه البرهان ، وابن الجوزى فى كتاب الأذكياء ، وقد انقسم العلماء على اختلاف تخصصهم حول حقيقة العقل ومعناه واطلاقه ، والأولى أن نسوق آراءهم بتفصيل مناسب •

١ ــ العقل جوهر أو عرض :

يرى أنصار هذا الرأى أن العقل (جوهر لطيف فى البدن ينبث شعاعه منه بمنزلة السراج فى البيت يفصل به بين حقائق المعلومات) أو أنه (جوهر بسيط غير مركب) أو (جوهر مجرد) عن (المادة وعلائق المادة) وعلى حين يرتضى الجرجانى هذا الرأى قائلا (والصحيح أنه جوهر مجرد يدرك الغائيات) ، وهو بسيط ووجوده فى ذاته لا فى موضوع ، ويرتضيه الآمدى أيضا فان القرطبى يرده بحجة أن (الجواهر متماثلة ، فلو كان جوهر عقلا لكان كل جوهر عقلا) واذا لم يصح كونه جوهرا فقد صرح بأنه عرض ، واضطرب فى نسبة الادراك اليه مع كونه عرضا ، ذلك لأن الادراك يستحيل من العرض كما يستحيل أن يكون ملتذا ومشتهيا •

٢ ــ العقل غريزة :

قال القرطبى : وحكى عن المحاسبى فى البرهان أنه قال (العقل غريزة) ونسبه ابن الجوزى فى الأذكياء الى كل من المحاسبى والامام أحمد •

٣ — العقل جسم :

ذكر ابن الجوزى على لسان فريق من العلماء أن العقل (هو جسم شفاف) .

٤ — العقل قوة أو صفة أو آلة :

حكى عن أبى العباس القلنسوى أنه قال (العقل قوة التمييز) أو (قوة يفصل بها بين حقائق المعلومات) وفند القرطبى هذا الرأى مدعيا أنه لا يعقل من القوة الا القدرة أما التمييز فلا يتأتى منها ، كما دحض قول من قال ان العقل (آلة التمييز) باعتبار (أن الآلة انما تستعمل فى الآلة المثبتة واستعمالها فى الأعراض مجاز) ورد على من نسب ذلك الى الشافعى وأبى عبيد الله بن مجاهد بعدم صحة هذا النقل عنهما ، ولم يتعرض بشىء من النقد الى ما قاله أبو المعالى الجوينى فى كتابه البرهان من أن العقل (صفة يتأتى بها درك العلوم) والمعارف على اختلافها ، فهل ارتضاه بيانا لماهية العقل ؟ لا ندرى ولم يصرح هو بذلك .

والملاحظ أنه ساق بعض الأقوال وسكت عنها ، وذكر أخرى وفندها .

٥ — العقل نور :

فى رأى آخر للمحاسبى يقول انه (نور) على حد عبارة ابن الجوزى المنقولة عنه ، وأما عبارة القرطبى فتقول (العقل أنوار وبصائر) بينما يقول أبو السعود هو (النور الروحانى الذى به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية) ويرده القرطبى مدعيا أن العقل ليس بنور ولكن تستفاد به الأنوار والبصائر (٣٣) .

---

(٣٣) انظر تفسير القرطبى ح ١ ٣١٦ ، وتفسير أبى السعود ح ١ ٩٧ ، وابن الجوزى : كتاب الأذكياء ١٠ — ١١ والآمدى : المبين ١٠٦ ، والجرجانى : كتاب التعريفات ١٥٧ .

محاولة للترجيح :

لا تكاد تفتح كتابا يتحدث عن العقل الا وتجد الاختلاف بين العلماء حول مفهوم العقل قائما على أشده ، وتقترب الآراء أو تبتعد كثيرا ، ويتساوى فى هذا الاختلاف كل من علماء السلف ، وكتاب المصطلحات والفنون ، والحكماء ، والعلماء المحدثين والمعاصرين ، ولم يحدث اتفاق أو تصور موحد على تعريف للعقل ، وان دل هذا على شىء فانما يدل على أن معرفة الحقيقة والماهية للعقل أمر صعب لم تصل اليه بعد ، ولما كان الأمر كذلك فان الذين تناولوا تعريف العقل ، أو نقلوه عن غيرهم لم يرجحوا رأيا على رأى ، أو لم يدعموا ترجيحهم بطائفة من الأدلة تجعله مستساغا الى حد كبير عن غيره ، واكتفوا بمجرد النقل ، أو توجيه بعض الطعون لفريق من العلماء دون غيرهم على غرار ما فعل ابن الجوزى فى كتابه ، أو ما فعله القرطبى فى تفسيره ، فقد آثر الأول أن يكون ناقلا فحسب ، وفضل الثانى كونه ناقدا لبعض الآراء دون غيرها .

وكل من يحاول صنع عملية ترجيح ينبغى له أن يقرر أن ما يقوم به لا يعدو مجرد محاولة منتقاة ، ولا تتجاوز عمليته كونها اصطفاء لرأى سكت عن نقده العلماء ، وتتجلى تلك العملية فى ابراز أن العقل هو (المدرك للأشياء على ما هى عليه من حقائق المعانى) حسبما يحلو للماهويين أن يعرفوه ، وبالطبع يسكتون عن كونه جوهرا أو غريزة أو صفة أو نورا الى آخره ، ويكتفون بذكر آثاره الادراكية دون الخوض فى تحديد ماهيته وحقيقته ، واذا أوصف شىء ما لوصف هذا المدرك قيل انه قوة أو قدرة أو صفة ، وكل وصف يضاف فانما هو وصف معنوى ليس الا ، وحتى فى تلك الحالة التى يصور فيها العقل على أنه جوهر يفسر الجوهر بأنه مجرد لا حسى ، ومن هنا فالعقل فى نظر الفلاسفة والعلماء حتى وقتنا هذا ليس عضوا محسوسا ، أو آلة ملموسة ، وانما هو قوة مطبوعة أو مستفادة مثلما يذهب الراغب

الأصفهانى (٣٤) ، أو عمليـــة تنحصر فى القدرة على التمثيــل العقلى للاحساسات وعلى الترجمة والتأويك والتفسير للأشياء حسبما يقرر بعض علماء النفس التكوينى (٣٥) •

ويذكر هـ • أ • أوفرستريت : أن العقـــل قدرة كامنة ، وليس بالضرورة أن تكون متحققة ، ويخرج من الكمون الى التحقق فى المواقف التى تحتاج الى توجيه توضيح وتمييز ، أواجراء تنظيم وتناسق وانسجام فعندئذ يختار العقل ويربط وينظم ويخلق حتى من الفوضى عالمــا متكامل الأجــزاء (٣٦) •

وبتدبر الآيات التى وردت فيها كلمة تدل على التعقل نجد أنهـــا تناولت عملية التفكير على أنها حالات وأفعال مثل : عقلوه ، تعقلون ، تعقل ، يعقلها ، يعقلون ، ولم تتحدث عن العقل بصيغة المصدر الدال على شىء ما فى ذاته أو وجوده كما لم تتحدث عنه باعتباره آلة حسية ، أو عضوا له وظيفة ادراكية على غرار آلات وأعضاء الادراك الحسى مثل الأذن والعـــين الى آخره ، فالادراك الحسى بارز فى القرآن الكـــريم بأعضائه المحسوسة ووظائفها الادراكية التى تقوم بها ، بعكس التعقل فهو عمليات لا ترتبط بآلات عضوية محسوسة •

الاطـــلاق والتقسيم :

يطلق العقل من الناحية العامة على النفس ، فاذا تناول القرآن النفس الانسانية واعتبرها مسئولة عما كسبت ورهينة بعملها فالعقل معتبر فى الدرجة الأولى ، ومن هـــذا الجانب يكاد فريق من علمـــاء

---

(٣٤) المفردات ٣٤٦ •
(٣٥) د. الهاشمى : علم النفس التكوينى ١٠٢ •
(٣٦) العقل الناضج ١٣٦ — ١٣٨ •

النفس يجعلون العقل مرادفا للنفس فى المفهوم والاطلاق ، ويستندون فى ذلك الى أن المشتغلين بعلم النفس الاكلينيكى يطلقون المصطلحين : صحة عقلية ، وصحة نفسية للدلالة على قدرة الفهم والتكيف مع الغير.

ونلمس بكثرة أن القرآن يتناول النفس بمعنى عام ، فهى تارة نامية وغازية تحب المتعة وتهفو الى الشهوة وأخرى حاسة ، وثالثة مدركة عاقلة ، كما يعتبر الظاهرة النفسية ذات أوجه ثلاثة : وجه يعرف ما يدور فى العالم ، وما يجرى فى النفس من خواطر وأفكار ، ويبدو هذا الوجه فى عمليات الادراك والتذكر ، ووجه بأن يحب ويكره ، ويتأثر وينفعل ويشعر وهو مظهر الوجدان ، وأما الوجه الثالث فيتمثل فى النزوع وميل الانسان الى القيام بعمل ما ، والعقل معتبر فى ضبط النفس النامية والغازية ، وفى كل من الوجوه الثلاثة فاذا ذكرت النفس على أى وجه فالعقل وارد فى الاطلاق بلا خفاء .

وفى الحالة التى نهتم فيها بدراسة الكائن الحى كله من جسم وعقل ونفس يكون العقل واحدا من تلك الأجزاء الثلاثة للانسان[٣٧].

ويطلق العقل من ناحية خاصة ثانية باطلاقين : الأول على القوة المتهيئة لقبول العلم ، والثانى على العلم الذى يستفيده الانسان بتلك القوة ، وأقدم من أشار الى هذين الاطلاقين هو الامام على كرم الله وجهه فيما نسب اليه :

العقل عقلان مطبوع ومسموع
ولا ينفع مسموع اذا لم يك مطبوع
كما لا ينفع ضوء الشمس وضوء العين ممنوع

---

(٣٧) راجع مع المعجم المفهرس د. منصور فهمى : الانسان وصحته النفسية ٦ — ٩ .

وكتب عمر بن عبد العزيز الى بعض عماله بما يشير الى العقلين معا (أما بعـد ، فان العقـل المفرد لا يقوى به على أمر العـامة ، ولا يكتفى به فى أمر الخاصة فأحى قلبـك بعلم العلماء والأشراف من أهل التجارب والمروءات) وفى صدد الاشادة بالعقل المستفاد بالعلم والمعرفة قال المغيرة بن شعبة عن عمـر رضى اللـه عنه (كان واللـه أفضل من أن يخدع ، وأعقل من أن يخدع) ، ويصرح العتيبى أن العقلين : المطبوع أو المفطور ، والمسموع أو المستفاد يتوقف كل منهما على الآخر فيقول (العقل نوعان : فأحدهما ما تفرد اللـه بصنعته والآخر ما يستفيده المـرء بأدبه وتجربته ، ولا سبيل الى العقل المستفاد الا بصحة العقل المركب فانهما اذا اجتمعا قوى كل منهما صاحبه كمـا أن النار فى الظلمة نور للبصر) والى النوعين من الاطلاق يشير فريق من السلف منهم الامام أحمـد ، كما أنه رأى الراغب الأصفهانى ، ويصرح ابن تيمية فى الاستقامة بقوله :

(العقل قد يراد به القوة الغريزية فى الانسان التى بها يعقل ، وقد يراد به نفس أن يعقل ويعى ويعلم) ، والقول بأنه نفس التعقل والوعى والعلم هو قول طوائف من أصحاب شيخ الاسلام وكل من الاطلاقين صحيح من وجهة نظـره (٣٨) .

تفاوت العقل فى الوجهين :

هل خلقنا جميعـا متساوين فى قوة العقل أو ضعفه ؟ أو أننـا متفاوتون فى العقل الفطرى والمكتسب ؟

يجعل القرآن الكريم التكاليف الشرعية متوقفة على العقل واكتمال نمـوه ، وهذا هو العقل الفطرى ، ويجعل الهداية والعلم واكتساب

---

(٣٨) الراغب الأصفهانى : المفردات ٣٤٦ ، ابن عبد البر القرطبى : بهجة المجالس ح ١ ٥٣٤ ، ٥٣٦ ابن تيمية : الاستقامة ح ٢ ١٦١—١٦٢ .

المعارف الدينية والدنيوية متوقفة على العقـل المستفاد ، وكل من العقلين يتفاوت قوة وضعفا ، وكمالا ونقصانا .

ومن الذين أشاروا سابقا الى تفاوتهما ابن الجوزى فقد صرح فى كتابه الأذكياء أن (العقلاء يتفاوتون فى موهبة العقل) أى العقل المطبوع ، أو الاستعداد العقلى الأصـيل ، كما يتباينون فى تحصيل ما يتقنونه من التجارب والعـلم [٣٩] اشارة الى العقـل المستفاد ، ويتمايزون فى المعارف البصيرية اذا كان العقل بمعنى النور المقذوف فى القلب ، ولا سبيل الى تنمية العقل الفطرى عما هو عليه ، فلا يتحول الغبى ذكيا تحت أى لون من ألوان التدريب وان تحسنت مداركه فى اطار الحالة التى خلق عليها ، على حين يترقى العقل المسموع بالتلقين والاثارة للفهم ومخالطة العقلاء وصحبتهم ويسمو العقل الذى هو نور بكثرة المجاهدة والاتباع والاكثار من الطاعات .

واذا ترقى العقل المستفاد عن طريق التدريب الذاتى ومحاولة الفهم والتعلم فان المعارف السائدة فى كل عصر لهـا دخل كبير فى تنوير العقول وتبصيرها ، وتعتبر الأطوار الثقافية عامة والدينية خاصة ذات دخل كبير فى ترقية العقل المستفاد والى هذه الحقيقة يقول عبد اللـه ابن الشخير (عقول كل قـوم على قدر زمانهم) [٤٠] ، وتتلون تلك العقول بألوان التيارات الجارية ، وبالمحاولات التى تستهدف التأثير عليها ، ومن ثم كانت نقلة القـرآن للمجتمع الجاهلى فى الفكر والعلم والأدب طفرة ليس لهـا مثيل فى التاريخ لمـا قدمه من تصحيح لمسار العقل واتجاهه واستخدامه ، ومن معارف وحقائق بصرت العقـل بغاياته وأهدافه ، ودفعته الى النشاط والدأب فى التحصيل والوعى والاجتهـاد .

---

(٣٩) الأذكيـاء ص ٤ [illegible]

(٤٠) بهجة المجالس ج ١ ٣٤٥ .

خصائص العقل المطبوع :

أول خصيصة يمتاز بها العقل الفطرى أنه محل الثناء والمدح ، ومركز التكريم فى الانسان ، ومكمن التفــوق على غيره من الكائنات الأخر ، واذا ما ورد نص يمجد العقل لذاته انصرف الى المطبوع منه دون المســموع ، ومن ذلك قــول النبى صلى اللــه عليــه وسلم **(لا يعجبنكم ايمــان الرجل حتى تعلمــوا ما عقــده بعقله)** (٤١) ، وروى ابن الجــوزى عن أبى هريرة رضى اللــه عنه قال سمعت رسول اللــه صلى اللــه عليه وسلم يقــول **(أول شىء خلقه اللــه القــلم ، ثم خلق النور وهى التوراة ، ثم قال أكتب ، قال وما أكتب ؟ قال أكتب ما يكون وما هو كائن الى يوم القيامة ، ثم خلق العقــل وقال وعــزتى لأكملنك فيمن أحببت ولأنقصــنك ممن أبغضت)** . وأيضا يقول ابن الجوزى عن هذا الوجه من العقل (ان أجل الأشياء موهبة العقل فانه الآلة فى تحصيل معرفة الاله ، وبه تضبط المصالح ، وتدرك الغوامض وتجمع الفضائل) (٤٢) .

وثانى خصيصة لهــذا العقل أنه محط التكليف الشرعى ومبناه ، فقد (جعله اللــه للدين أصلا وللدنيا عمارا) (٤٣) على حد تعبير الحسن البصرى ، وليس من قبيل التوافق أن يتم التكليف للبشرية وجوبا عند البلوغ ، وأن يكون بلوغ الحلم فاصلا بين فترتين : أولاهما تخلو من التكليف حينا أو يسن فيها حينا آخر ، وثانيهما يجب فيها التكليف الزاما بل هو من قبيل الحكمة المشاهية التى اقتضاها العلم الالهى فيما يتصل بالتكوين البشرى والقدرة الانسانية ، واذا ما حاولنا أن نلقى نظــرة على حكمة الارتباط بين التكليف الشرعى على سبيل الوجوب

---

(٤١) ذكره ابن عبد البر برواية ابن عمر : بهجة المجالس ح ١ ٥٣٢ .
(٤٢) الأذكيــاء : ٨ ، ٥ .
(٤٣) المــاوردى : ادب الدنيا والدين : ٣ .

والبلوغ اقتضانا هذا أن نمر سريعا على مراحل النمو الادراكى التى تسبق مرحلة البلوغ :

المرحلة الأولى : وتسمى بمرحلة الطفولة المبكرة وتكون من سن الثالثة حتى الخامسة ، وفيها يدرك ما حوله ادراكا حسيا ، وترتبط أفكاره بالمحسوسات المادية ، ويعلل الأشياء بأسبابها القريبة المادية ، وعلى سبيل المثال فهو لا يدرك من حب الأمومة الا أنها تغطية الغذاء ، ولا يحب من أفراد أسرته الا من يلبى له حاجاته الحسية ، ولأنه كثير الأسئلة جدا فيخشى أن يسأل عن أمور دينية فاما أن يجاب بطريقة تجريدية فلا يفهم ذلك ، واما أن يجاب بما يلائم مرحلته فيفهم ويعى وان كانت الاجابات لا تتفق فى كثير من الأحيان مع الحقائق الدينية .

المرحلة الثانية : وتبدأ من سن السادسة حتى الثامنة ، ويتميز الطفل فيها بنضوج بعض القدرات العقلية وعملياتها الادراكية ، ويستطيع البدء فى التفكير المجرد والتصور والتذكر والانتباه المقصود المركز ولو الى حين الا أنه لا يفارق التفكير العملى الحسى السابق ، بل يظل هذا النوع هو أوسع القدرات الادراكية انتشارا وسيطرة على اهتمام الانسان فى تلك المرحلة ، ويزاول اذن عمليات التفكير المادى بكثرة ، وشىء من التفكير المجرد ، وآخر من الخيال المحلق .

وهذه كلها تساعد على تعلم القراءة والكتابة باعتبارها نشاطا عقليا مجردا يقوم على رموز اصطلاحية تدل على أشياء أخرى ، كما يساعد التمييز فى تلك المرحلة على أن يؤمن الطفل بأداء بعض الشعائر على سبيل الاستحباب والتدريب .

المرحلة الثالثة : يتقبل الطفل فى تلك المرحلة كثيرا من المعلومات المجردة ، فيدرك حب الله ، وحب الوالدين ، وحب الوطن ، ويمكنه

الى حـد ما أن يضع تعريفا قريبا من الصحة للكلمات المجردة مثـل العطف والشجاعة والانتقام والغيرة ، ومع أن هذه المرحلة يميل فيها الانسان الى التفكير النظرى ، ويقطع فيه شوطا لا بأس به الا أنها تظل مرتبطة بالعـالم الخارجى ومتصلة بالفائدة والوظيفة ، ويدور الانسان فى سن التاسـعة حتى الثانيـة عشر حول نفسـه واتصاله الشخصى ، وتظل كثير من المعانى المجردة بمنأى عن فهمه مثل العدل والحق والفضيلة والخير والمروءة والايثار •

المرحلة الرابعة : تتميز تلك المرحلة التى تبدأ من سن الثالثة عشر حتى السابعة عشر بالسمو فى المستويات الادراكية العقلية ، وفيهـا يتحرر الفتى من شطحات الخيال وأوهامه ، ومن قيود الحس ، ويدرك أخطاء حواسه أحيانا فيصبح بزلك قادرا على التجريد الذى يفضى الى ادراك الأشـياء البعيدة عن عالمـه الحاسى ، كما أنه يستطيع التصور العقـلى السليم ، والادراك الذهنى الصحيح ، ويميل الى التفكير الدينى فيما وراء الطبيعـة وما بعد الموت ، ويصرف فى ذلك الساعات لا سيما حينما ينفرد بنفسـه ، ويخلو الى ذاته ، كما يتـأمل الحياة ، والى أين يسير ، وما هو المصير بعدها ، ويفكر فى الخالق ، وتغدو هذه الأفكار الدينية والمثل العليا للحياة مألوفة فى حياة المراهق محببة الى نفسه ، ثم انه يتوق الى المناقشة والجدل ليكون لنفسه فكرة خاصة عن كل ما سبق ، ومن المعروف أن الذكاء ينمو سريعا فى الطفولة وتهدأ سرعته تدريجيا كلما تقدم الفـرد نحو أواخر المراهقة ايذانا بقـرب الوقوف والاستقرار فى مستوى فردى ثابت عند أواخرها ، وهو ما يجعل المراهقة مرحلة تكامل فطرى فى تكوين الوظائف العقليـة العليا لدى الفـرد الانسانى (٤٤) •

---

(٤٤) اوفرستريت : العقـل الناضج ٨٦ — ٩٠ د. الهاشمى : علم النفس التكوينى ١٩٣ — ١٩٤ ، ١٩٩ — ٢٠٥ ، القومى : الانسان وصحته النفسية : ١٥٨ .

كل هـذه المميزات لتلك المرحلة تدفع الانسان الى الاقبال على ما يشـبع نهمته الادراكيـة ويجيب على ما يدور فى خلده ، ويعتبر الدين الاسلامى واحدا من أقوى المصادر التى تمد الانسان باجابات شافية بل هو المصدر الوحيد فى مجال العقيـدة والتشريع والأخلاق والآخرة ، ومما يزيد المراهق ولعـا بالدين شعوره بالعجز والخوف فيجد فى الاسلام أملا مشرفا بعد يأس ، وأمنا نفسيا بعد خوف . كما يجد فى الأوامر الشرعية تنظيما للحياة يرجع مصدره الى اللـه وحده ، وتلتقى حالة الادراك التجريدية مع ما فى الدين من عبادات ونسك ذات مغزى مجرد ، أو مع ما فيه من غيبيات لا تدرك بالقياس على الحس وحـــده .

ولهذا ندرك لم جاء الالزام الوجوبى بايقاع التكاليف الشرعيـة فى هذا السن بالذات وليس قبله ولا بعـده ، أما قبله فلعدم اكتمال القوى الادراكية العقلية المناسبة لفهم الدين فهما صحيحا ، وأما بعده فان مرحلة المراهقة تعتبر كما ذكرنا مرحلة هياج نفسى وشعورى وعقلى ، ولابد من ارساء الشخصية الانسانية فيها على أساس قويم ، ثم ان الذكاء قد اكتمل فتأخير التكليف عن اكتماله زمنا ولو يسيرا يعتبر تأخيرا بلا حكمة ، وهو عبث لا يليق بجناب الحق خاصة اذا ما تضافرت الدواعى الضرورية على فرضه تلبية لبنـاء الانسان ودواعيه الشخصية والنفسية والادراكية ورغباته العرفانية فى الحياة وما وراها .

فلننظر كيف بنى التكليف على العقل المطبوع فى حقبة معينـة ومرحلة متميزة ، وكيف لاءم الأمر الشرعى حد العقل ومعياره حتى أن أعرابيا سئل لم آمنت فقال ((ما رأيت محمدا يقول فى أمر افعل والعقل يقول لا ، وما رأيت محمدا يقول فى أمر لا تفعل والعقل يقول افعل))[٤٥] فالأمر والنهى وهما صيغتا التكليف الشرعى متفقان تمـاما مع قبول العقل ورفضه .

---

(٤٥) نقلا عن كتاب : الدعوة الى اللـه لأبى زهرة ٨١ .

وأخيرا فسوف نصرف النظر هنا عن الحديث المفصل فيما يتصل بخصائص كل من العقل النظرى والهيولانى والعقل بالملكة وبالفعل والعقل القدسى لكونها وجوها للعقل الموهوب قام بتفصيصها الفلاسفة ومن دار فى ملكهم (٤٦) •

مميزات العقل المسموع :

يشترك هذا الوجه من العقل مع المطبوع فى كونه محلا للمدح والثناء ، فكل منهما يمدح : الأول لذاته والثانى لما قام به من تحصيل علمى ، أو لما نتج عن نشاطه من هداية ، فاذا قال الله تعالى (**وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون** ٤٣ العنكبوت ، أو قال النبى صلى الله عليه وسلم (**ما كسب أحد شيئا أفضل من عقل يهديه الى هدى أو يرده عن ردى**) فان هذا ينصرف الى العقل بمعنى العلم أو المعرفة أو الوعى ، ويختلفان فى أن العقل المطبوع لا يذم لذاته باعتباره قوة مدركة صرفة ، ولا يتأتى له الزم من تلك الجهة ، بخلاف العقل المستفاد فانه يذم باعتبار انحرافه أثناء عملياته الادراكية ، أو باعتبار الصوارف التى تصرفه عن النتائج الصحيحة ، عندئذ يصل الى ثمار ضارة من وراء نشاطه كالكفر والضلال والفسوق فيذم لذلك ، وينسب صاحبه الى العجماوات مع أنه فى حقيقة الأمر ما زال يتمتع بخاصية العقل الفطرى التى تميزه عن الأنعام ، ولكن لما لم يحسن استخدامها وتوجيهها هبط الى دركات العجماوات •

ومادة العقل المستفاد من الظواهر الكونية أو النفسية أو القرآنية هى التى تتحرك بين آيات القرآن الكريم بوفرة هائلة فهناك التوجيه الربانى الى تعقل الكون فى سماواته وأرضه وظواهره المتنوعة جملة

---

(٤٦) انظر المعجم الفلسفى : مجمع اللغة العربية ١٢٠ — ١٢١ ، والمبين ١٠٦ — ١٠٨ والتعريفات ١٥٨ •

وتفصيلا ، والى الاستفادة بآثار السابقين وأخبارهم وأحوالهم وقراءة التاريخ وقصص الاجتماع والعمران ، والى تأمل الزمن والعمر والأجل والغـــاية التى نيطت بالحياة الانسانية .

وهناك التوجيه الالهى الى العقل الانسانى بأن يتدبر آيات الله فى كتابه المجيد ، وقد أنزله اللـــه تبيانا وبيانا وفرقانا وبرهانا وبلسان عربى فصيح ليمكن تدبره والاتعاظ به ، وفى مجال التمييز يجب على العقل أن يفرق بين من ينفع ويضر فيتقرب اليه بالطاعة والعبـــادة وما ليس كذلك من الأصنام والأوثان فينبذه ويجتنبه ، وليحذر هـذا العقل أعداء الانسان من نفس وهوى وشيطان ، وهذا هو نشاط العقل الفطرى ، وأما العقل المستفاد فى وجهه العملى فعليه أن يميز بين الخـــير والشر والنافع وغيره ، والبـــاقى والفـــانى ، وما عند اللـــه وما تستمتع به النفس وصاحب هذا العقل هو المؤدب الكيس (٤٧) ، أو كما قال الامام على وقد افتخر عنـــده رجلان (أتفتخران بأجساد بالية وأرواح فى النـــار ان يكن لكما عقل فلكما أصل) (٤٨) ويقـــول (لا مال أعود من العقل) أى أنفع (ولا عقل كالتدبير) و (لا علم كالتفكـــر) (٤٩) .

والعقل المطبوع لا يخرج من القوة الى الفعل ومن الكمون الى الظهور ، ولا يصير عقلا مستفادا نافعا موصلا الى الهداية والايمـــان والتخلق بالصفات الفاضلة وهى الثمار الحقيقية المعتبرة فى النشاط العقلى للانسان ما لم يجتنب الصوارف التى تصرفه عن الوصول الى تلك الغـــايات الصالحة ، وليحذر التقليد وسوء استخدام العقـــل ،

---

(٤٧) راجع مادة عقل يعقل فى : المعجم المفهرس لألفـــاظ القرآن الكريم : ٤٦٨ — ٤٦٩ ؛ ومعجم ألفاظ القرآن الكريم ٥٨ — ٥٩ .

(٤٨) بهجة المجالس ح ٢ ٥٣٣ .

(٤٩) نهج البلاغة : ٣٨٠ .

والاستهزاء بالحق والوحى وافتراء الكذب ، واقتراف الرجس واتباعه والا فالذى يقع فى هذا لا يعقل عقلا ناضجا منحيث التدين والاستمساك بالعقيدة الصحيحة ، والآداب السامية مهما كان له من ذكاء فى مجالات أخرى والآيات التى تحمل هـذه المعانى كثيرة فى القرآن خاصة تلك التى تتعرض لمـادة التعقل ، ومن أمثلة ذلك قوله سبحانه فى سـورة البقـرة (**صم بكم عمى فهم لا يرجعـون**) (صم بكم عمى فهم لا يعقلون) الآية ١٨ ، ١٧١ ويعلق الزمخشرى قائلا :

(كانت حواسهم سليمة ، ولكن لمـا سدوا عن الاصاخة مسامعهم، وأبو أن ينطقوا به ألسنتهم وأن ينظـروا ويتبصروا بعيونهم جعلوا كأنما ايفت مشاعرهم (٥٠) وانتقضت بناها التى بنيت عليها للاحساس والادراك كقـول الشاعر :

صم اذا سمعوا خيرا ذكرت به   وان ذكـرت بسـوء أذنوا

وقـوله :

أصم عن الشىء الذى أريده   وأسمع خلق الله حين أريد(٥١))

ونظـرة القرآن الكريم الى الصوارف للعقل والادراك توضح بجـلاء أن القـوة العاقلة تحتاج لكى تصل الى ادراك مفيد ، ولكى يصير العقل كاملا الى أن تتخلى عن أمور ذاتية وأخرى دينيـة أو اجتماعية سائدة .

وبالنسبة لضرورة التخلى عن الأمور الذاتيـة فان الانسان لن يحقق أكبر قسط من الخير ، ولن يقترب من الحق المنشود ما لم يبتعد عن دوافعه وأهوائه ، وبالعكس فعندما يقع غريسة لذاتيته وأغراضه

---

(٥٠) ايفت مشاعرهم : اصابتها آفـة .
(٥١) تفسير الكشاف ج ١ ٢٠٣ — ٢٠٤ .

الخسيسة يخضع لضروب التحيز والتبرير ، وتبتعد أحكامه عن النصفة، وتكثر المناسبات التى يأتى فيها أشياء ما كان ينبغى له أن يفعلها ويترك أشياء كان عليه أن يؤديها مما يسفر عنه التنافر دون الوئام ، والضلال دون الحق ، والشخص الذى يحيا حياة تجافى العقل انما يهمل استخدام القدرة التى بها وحدها يستطيع أن ينطلق من محبس النفس الى الحقائق الجوهرية الكبرى ، ومن اللحظة الراهنة الى المجال الزمنى الذى يمتد من الحاضر الى المستقبل البعيد وراء هذا الكون كله ، ومن العادات التى تقيده وتستند له الى المثل العليا التى تفتح له الآفاق ، ولن يقفز الانسان من أنانيته وأهوائه الى الايمان والسعادة الأبدية والمثل الفاضلة ما لم ينخلع من تلك الذاتية البغيضة ، ومن تطلعه الى النفوذ أو الرغبة فى السيطرة ، ومن تحقيق أطماع كاذبة أو نجاح تافه فى لحظة من اللحظات ، ومن الجدير بالذكر أن الانسان فى مثل هذه المواقف (انما يلجأ الى التبرير والتسويغ فيدعى لنفسه أنه يسير وفقا لما يقتضيه العقل بينما هو فى الواقع يسير مدفوعا باللاشعور وما احتواه من مشكلات انفعالية استعصت على الحل ، وكل من يحاول الكشف له عن خداعه لذاته واظهاره على حقيقته بكل ما فيها من مجافاة للمنطق وبعد عن العقل يصبح فى نظره عدوه اللدود ، ولما كان الناس يكبرون ومعهم مختلف العوامل التى تدفعهم الى تجنب طريق النضج فهم يصمون آذانهم عن صوت الحق والعقل) وتكون النتيجة أن تتوارى فى معظم الأحيان الجهود المثمرة لتلك الطاقة الهائلة التى زود بها الانسان ، ولا تقع النصائح والمواعظ والبراهين موقعها الصحيح من عقول هؤلاء مهما كانت تلك الأدلة من القوة والنصوع .

وبالاضافة الى الصوارف الذاتية للعقل فهناك الجو الدينى الخادع والثقافى المزيف الذى يؤثر على النشاط العقلى تأثيرا سلبيا ، ويفقد العقل استفادته الحقة التى يمكن أن يحصل عليها من خلال نشاطه ، وتشكل الأديان الوثنية أو الوضعية الفاسدة أو السماوية

المحرفة عناصر التضارب فى التكوين العقدى والنسكى لهـا مما يجر حتما الى حالة من التضارب النفسى ، ويوقع أربابها فى شراك التفكير السىء ، نضف الى هذا أنه غالبا ما يحمى المجتمع هذه الأديان الفاسدة أو الثقافة المـادية ويشجع عليها ، ويكافىء على اعتناقها والخضـوع لهـا الأمر الذى يوصد الباب أمام كثيرين يريدون أن يفكروا بشكل سـليم .

ولو طبقنـا تلك القـاعدة الصارفة على الجو فى مكة وأضرابهـا لوجدناها صحيحة ، فلا شك أن العقل كان يدرك فى بعض الأحيان أن الأصنام لا تعى ولا تعقل ، ولا تنفع ولا تضر ، وبين وعينا بأنها لا تعقل ووعينا بأننا ندرك يحدث التضارب النفسى والقلق من سوء هذه الحالة ، ولكن التمسك بالتقليد ودين الآباء والخوف من السلطة القائمة وتشجيع المكيين على الفجاجة العقلية ومكافأة من يستمر على صنيعهم وعقـاب ومقاطعة وتعذيب من يخالفهم حال دون الخروج من القلق والاضطراب بالتفكير السليم والايمان العميق ، والاستبداد السياسى والفكرى شريك فى هذا الصرف العقلى عن الحق والانصياع له (٥٢) .

وفى ختام الحديث عن المميزات الخاصة بالعقل المسموع نود أن نبين أن القرآن عرض لنشاطه بمراتب متعددة فهنـاك التعقل والتذكر والتبصر والتعلم والتفقه ، وهناك قوم يعقـلون أو يذكرون أو يعملون أو يفقهون أو يتفكرون ، وهناك أرباب العقل واللب والذهن والذكاء ، وكلها وجوه للنشاط العقلى ومستوياته الادراكية من مسـتوى حاس صرف الى عمليات عقلية متوسطة كالتذكر والتداعى والترابط الى مستوى عال كالعمليات العقلية المجردة ، والتى تربط بين الجزئيات ، وتحولها الى كليات الى آخره ، يقول ابن تيمية تعليقا على النصوص التى تحدثت عن

---

(٥٢) انظر فى هـذا أيضا : أوفـر استريت العقل الناضج ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٥٢ ، ١٥٤ — ١٥٥ .

التفكر والاعتبار ونظائرها (وهذا كثير فى القرآن : يمدح التفكر والتدبر والتذكر والاعتبار والفقه والعلم والعقل والسمع والبصر والنطق وغير ذلك) (٥٣) ٠

وعلق ابن حجر على حديث سعيد الخدرى قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ضحى أو فى فطر الى المصلى فمر على النساء فقال (يا معشر النساء تصدقن فانى أريتكن أكثر أهل النار فقلن وبم يا رسول الله ؟ قال تكثر اللعن ، وتكفرن العشير ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من احداكن ، قلن وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله ؟ قال أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل ؟ قلن بلى قال فذلك من نقصان عقلها ، أليس اذا حاضت لم تصل ولم تصم ؟ قلن بلى قال فذلك من نقصان دينها) قال ابن حجر فى التفرقة بين اللب والعقل ٠

(واللب أخص من العقل ، وهو الخالص منه والحازم الضابط لأمره) (٥٤) وبناء عليه فالعقل واللب والذكاء والذهن والتفكر والعبرة والعظة وجوه ومستويات ادراكية للعقل بعضها أرقى من بعض ٠

العلاقة بين العقل والجسم عند المسلمين :

التفرقة بين النفس والعقل وبين الجسم واضحة تماما فى النصوص القرآنية والنبوية ، وهذه التفرقة لم تدع المسلمين يذهبون الى اعتبار الكائن البشرى مزدوجا ازدواجية منفصلة عن بعضها ، بل تنبه العلماء الى وجود رابطة قوية بين النفس بمعنى العقل والجسم ، وأن الانسان

---

(٥٣) الاستقامة ح ٢ ١٥٩ ٠

(٥٤) فتح البارى ح ١ ٤٠٦ وانظر فى هذه النقطة ابن القيم مفتاح دار السعادة ح ١ ٢٤٤ ومالك بن نبى : الظاهرة القرآنية ١٩ ، ٢٥٧ ، وعلم النفس التكوينى ١٩٨ — ١٩٩ ، ٢٠٤ ٠

ما هو الا المجموع من عناصر الجزءين معا وتقدموا صوب الحل فى كثير من المواقف ، وبشكل عام نطق قائلهم (العقل السليم فى الجسم السليم) وبشكل خاص وجدوا الآيات والأحاديث تربط بين الادراك الحسى والعقلى ، وتتحدث عن الرأس وما وعت ، والقلب وفقهه وبصره فاتجهوا ازاء ذلك الى تحديد مكان الادراك العقلى وهل هو فى الرأس أو القلب؟

فذهب فريق منهم الى أن العقل فى الدماغ ، ونقل ذلك عن الامام أبى حنيفة والامام أحمد [٥٥] فى أحد رأييه ، وكتب ابن القيم على لسانهم قوله (ان مبدأ القوة العاقلة فى الرأس ، وقالوا مبدأ هذه الحواس انما هو الدماغ وأنكروا أن يكون بين القلب والعين والأذن والأنف أعصاب أو عروق) [٥٦] وعلل القرطبى هذا بقوله (لأن الدماغ محل الحس) [٥٧] .

ولم يحظ هذا الرأى بالذيوع وحده دون رأى آخر ينافسه بشدة ، ويزغ هذا الرأى المعارض من صريح قوله جل جلاله **(أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها)** ٤٦ الحج وهو رأى ينسب للشافعى وأحمد على رأى ثان ، ويعلله القرطبى بأن القلب معدن الحياة ومادة الحواس ، وينشد شاعر يؤيد هذا الرأى .

ألا ان عقل المرء عينا فؤاده   فان لم يكن عقل فلن يبصر القلب [٥٨]

وأراد ابن القيم أن يفصل هذا الرأى بشكل يبدو متحمسا له من خلال استطراده فيه . ومحاولة الربط العضوى بين القلب وأدوات الادراك الحسية الأخرى فيقرر ما ارتآه أنصار هذا الرأى قائلا : يرى

---

(٥٥) الأذكياء : ١١ .
(٥٦) ابن القيم : مفتاح دار السعادة ح ٢ ٢٤٦ .
(٥٧) تفسير القرطبى ح ١ ٣١٦ .
(٥٨) بهجة المجالس ح ١ ٥٤٥ والأذكياء ١١ .

البعض أن الحواس والعقل مبدؤها القلب ، وهى مرتبطة به ، وبينه وبين الحواس منافذ وطرق ، ويتصل بكل واحد من آلات الحواس بأعصاب تخرج من القلب حتى يأتيها ، وعلى سبيل المثال فالعين اذا أبصرت شيئا أدته الى القلب لاتصالها به والسمع كذلك ، وارتباط القلب بآلات الادراك الحسى ارتباط يشاكل المهمة الملقاة على كل آلة ، فينبعث منه عرق أو عصب الى كل عضو بما يناسبه ويشاكله ، فللعين ما يكون منه البصر ، وللأذن ما يكون حس السمع ، والى اللحم ما يكون حس اللمس وللأنف ما يكون حس الشم ، والى اللسان ما يكون به حس الذوق (فهو الممهد لهذه الأعضاء والحواس والقوى) وقالوا (ولا ريب أنه مبدأ القوة العاقلة منه) (٥٩) .

وابن تيمية يزكى هذا الرأى بقوله (ان العقل فى القلب مثل البصر فى العين يراد به الادراك تاره ويراد به القوة التى جعلها الله فى العين يحصل بها الادراك) (٦٠) واذا اعترض على هذا بأنه كيف يجوز أن يكون عضو واحد على ضروب من الامتزاج يمده عدة حواس مختلفة ، وأجسام هذه الحواس مختلفة ، وقوة كل حاسة مختلفة عن الأخرى أجيب عن ذلك : بأن جميع العروق التى فى البدن متصلة بالقلب اما بنفسها واما بواسطتها ، فما من عرق ولا عضو الا وله اتصال بالقلب اتصالا قريبا أو بعيدا .

ومع أن ابن القيم حاول ربط القلب بآلات الحس ليظهر وحدة الادراك بصورة متماسكة وجيدة الا أنه بعد محاولة الربط هذه عاد يقرر من جديد أن القلب مركز الادراك القلى ، والعلاقة بينه وبين الحواس لا تعدو كونها علاقة معنوية فيقول (والصواب التوسط بين الفريقين وهو أن القلب تنبعث منه قوة الى هذه الحواس ، وهى قوة

---

(٥٩) مفتاح دار السعادة ح ١ ٢٤٤ — ٢٤٥ .
(٦٠) الاستقامة : ح ٢ ١٦٢ .

معنوية لا تحتاج فى وصولها اليه الى مجار مخصوصة وأعصاب تكون حاملة لهـا ، فان وصول القوى الى هذه الحواس والأعضاء لا يتوقف الا على قبولها واستعدادها وامداد القلب لا على مجار وأعصاب وبهذا يزول الالتباس فى هذا المقام الذى طال فيه الكلام وكثر فيـه النزاع والخصام) (٦١) .

تلك صـورة من صور الحـل لتلك العلاقة كما رآها المسلمون ، ودفعهم اليها كما قلنـا حديث القرآن عن وعى الرأس وعقل القلب ، وانتباههم لضرورة الوحدة القائمة بين الادراك الحسى والعقلى مماجعلهم يعقدون الجسور الوظيفية بصورة أو بأخرى بين الادراكيين ، ولقـد قامت محاولة الربط أغلب ما قامت على أساس عضوى وعصبى سواء فى الرأس أو القلب ، ومع أنهـا تختلف عن محاولة الربط الحـديثة التى سنذكرها الا أنها لا تبعد عن الصواب بشكل كبير لأن العلم نفسه الآن يشير الى شفرة علمية يرسلها القلب ، ولوجود علاقة وثيقة بين عمليـة الادراك حتى فى حال وجود مركز العقـل فى الرأس وبين القلب بأكثر من واسطة : اما عن طريق الدم الذى يحتاج اليه المخ ، واما عن طريق بعض الغـدد التى تتدخل بصـورة مباشرة فى الادراك ولهـا علاقة وثيقة بالقلب .

ويكفى العرب المسلمون أنهم حاولوا حل هذه المشكلة قديما بينما لم تظهر فى الدراسات الحديثة الا منذ ثمانين عاما ، وما يقال من أن المشكلة المتمثلة فى البحث عن العلاقة بين النفس بمعنى العقل والجسم لم تظهر الا بعد أن فرق ديكارت بين الجوهرين على اعتبار أن الجسم له خاصية جوهرية هى الامتداد فى حين أن قاعدة النفس عند الانسان هى التفكير والشعور ، الأمر الذى نبـه الفلاسفة بعد ذلك الى ضرورة حل لغز العلاقة بينهما ، ولم تسفر تلك المحاولات عن شىء الا منذ ثلاثة أرباع

---

(٦١) مفتاح دار السعادة ج ١، ٢٤٦ .

القرن (٦٢) عقيعـد أن رأينا محاولات المسلمين السابقة يتضح تهافته هذا الزعم وتجاوزه للحقيقة •

العلاقة بينهما فى الدراسات الحديثة :

استبعدت تلك الدراسات القلب مركزا للادراك العقلى وان كانت لا تنفى عنه نوعا من الوعى كما سنذكره بعد ذلك ، واهتمت بالعلاقة على أساس أن المخ هو مركز التلقى عن الجهاز العصبى والحاس كله ، وهذا الاهتمام ذللت له صعاب البحث بعد تقدمت الدراسات الرياضية التى أدت الى نمو العلوم الطبيعية ، والتى أحدثت بدورها ازدهارا فى الكيمياء ، وعملت الكيمياء على ارتقاء علم الحياة ، ومنه عرفت وظائف الأعضاء ، وبهذا العلم الأخير استطاع العالم الألمـانى (وليام فنت) اقامة أول معمل لعلم النفس لبحث العلاقة بين الجسم والعقل ، ونتج عن تلك الجهـود المتوالية ابراز أن الجانب النفسى له مكونـاته الفسيولوجية ، والعقل يقوم فيما يقوم عليه على مادة الأنسجة المخية وعلى الأعصاب والغدد وأعضاء الحس والشم والبصر •

وأصبح علم النفس التكوينى والعام يتجهان معا الى أن جميـع المستويات المعرفية مرتبطة بالجهاز العصبى ومراكزه التى تمثل حلقـة الاتصال بين الكيان الجسمى والنشاط العقلى للفرد • فالذكاء نوافذه الحواس والأعضـاء وجهازه الأعصـاب ومراكز ها الفاعلة ، ومجاله المحسوسات والبيئة المحيطة به •

وتظهر تلك الدراسات أن العلاقة بين الجسم والعقل تخضع لتفاوت الأنواع الحية ، فالكائنات الحية البسيطة نجد لها حياة عقلية بسيطة ،

---

(٦٢) د• منصور فهمى الانسان وصحته النفسية ١• والعقل الناضج ٨ — ٩ •

وبالتدرج الى الكائنات الراقية نجـد أن لهذه حياة عقليـة راقية ، وما دامت الحياة العقلية مرتبطة بالجهاز العصبى نتيجة مباشرة للمجموع العصبى أى أنها نتيجة مباشرة للجسم) (٦٣) ، وعندما تتأثر الأطراف العصـبية والحاسة بمؤثر معين ينتقل هـذا التأثير بواسطة الألياف العصبية الى مركز من مراكز المخ ، وهنا تنتهى مجموعة عمليات ميكانيكية وفسيولوجية سابقة وضرورة لعملية الادراك الحسى ، ثم تبـدأ عملية عقلية صرفة ، فلأجل أن تتم عملية الادراك لا بد لهـا من تعاون ظواهر بعضها حسية وبعضها عقلية ، وأهم هذه الظواهر الحسية التى تؤكد عليها الدراسات : الجهاز العصبى ، والجهاز الغددى .

أما الجهاز العصبى فى نشاطه المتصل بالادراك خاصة فينقسم الى جهازين :

١ ــ الجهاز العصبى المركزى : ووظيفته تنحصر فى تنظيم الاشراف على عمليات الاستجابات الارادية وكذلك على النشاط النفسى والعمليات العقلية والارادية العليا ، ومن أهم أجزائه فى صدد الادراك المـخ ، ويوجد بالقشرة الخارجية منه اللحاء وهو مركز السمع والشمم والابصار والحركة والكلام والاحساس ومن ثم فهو المسئول عن التحكم والسيطرة على كافة الحواس ، ويعتبر أدق شبكة كهربائية خلقت فى العالم ، وعند تعطل أحـد مراكز هذه الشبكة فان وظيفة أحـد الأجهزة أو الحواس التى تسيطر عليها تتوقف بالتالى .

وهناك ما يسمى بـ (الثلاموس Thalmus **)** أو السرير البصرى (وهو عبارة عن تركيبتين كبيرتين من مادة رمادية ، ويحتوى على عشرين نواة عصبية تشرف على توصيل التنبيهات الحسية الصاعدة الى المراكز

---

(٦٣) الانسان وصحته النفسية ٦ ، الصحة النفسية ٢٩ — ٥٩ ، علم النفس التكوينى ٢٠٠ العقل الناضج ٨ — ٩ .

البصرية والسمعية ومراكز الاحساس بالمخ ، وأخطر هذه المراكز فى الثلاموس هو احتواؤه على مراكز حركية خاصة بالانفعالات .

قنطرة فارول : وتسهم تلك القنطرة فى ضبط تعبيرات الوجه والحركات الجانبية للعينين بالاضافة الى تنظيمها للاحساس باتزان الجسم الذى يتم عن طريق استقبالها للتنبيهات الواردة عن القنوات الهلالية بالأذن ، ويقع المخيخ القبطرة ، ويقوم بوظيفتين أساسيتين هى المحافظة على توتر العضلات المحيطة بالهيكل العظمى ، واستقبال التنبيهات الصادرة من عضو الاتزان (القنوات الهلالية) مع تعديل وضع الجسم ، هذا ويعد المخيخ مركز تجمع وتوزيع هام ويساعد النصفين الكويين فى المخ على استقبال المنبهات واصدار التنبيهات ، ويتصل المخ بالغدد عن طريق ما يعرف بـ (الهيموثلاموس) دون السرير hypothalmos ويوجد أسفل السرير البصرى فى قاع المخ) وبجانب كونه ينظم عملية الهدم والبناء فى الجسم فانه يتحكم بشكل خطير فى بعض الأجهزة وخاصة جميع الغدد الصماء بواسطة اتصاله المباشر بالغدة النخامية الصماء الواقعة هى الأخرى بالقاع للمخ ، وتسيطر وحدها سيطرة تامة على جميع الغدد الصماء وتنظم عملها لا سيما الغدة الدرقية والغدة فوق الكلية .

ويربط النخاع المستطيل بين القلب والادراك الحسى والمخ من حيث أن هذا النخاع يعتبر مركز تآزر حركة اللسان فى البلع والكلام ، كما يتم فيه الاشراف ومراقبة حركات التنفس وحركة القلب وافرازات الهضم ، وأخيرا يتفرع من المخ وقنطرة فارول والنخاع المستطيل اثنا عشر زوجا من الأعصاب تعرف باسم الأعصاب الجمجمية ، والعصب الأول خاص بالشم وأما الثانى والثالث والرابع والسادس فتختص بأعصاب العين التى تشرف على حركتها الارادية واللاارادية والعصب السابع والحادى عشر والثانى عشر فأعصاب التعبير الوجهى والرأس والكلامى على التوالى ، والعصب العاشر بالجهاز العصبى الذاتى

والمستقل ، والتاسع هو صنب اللسان البلعومى ، والثامن العصب السمعى للأذن ٠

٢ — أما القسم الثانى من الجهاز العصبى فيعرف بالجهاز العصبى المستقل أو الذاتى ويشرف على الاستجابات اللاارادية مثل سرعة ضربات القلب والتنفس وحركات العين من حيث الضيق والاتساع ، ويقرر الدكتور مصطفى فهمى فى النهاية أن الجهاز العصبى بقسميه (يتحكم فى وعى الانسان وقدرته على التمييز والادراك ومعرفة السلوك الاجتماعي واللا اجتماعى)

واذا انتقلنا الى جهاز الغدد سواء كانت صماء ليس لها قناة خارجية بل تصب فى الدم مباشرة مثل الدرقية والنخامية والادرينالية والصنوبرية ، أو مقناة ، وتفرز افرازا خارجيا أو داخليا مثل الغدد العرقية واللعابية والأولى افرازها للخارج والثانية للداخل ، أو تفرز افرازا مشتركا بين الداخل والخارج مثل البنكرياس والغدد التناسلية فان هذه الغدد كلها (تؤثر فى النشاط العصبى بشكل واضح «ان قابلية الفرد الانفعالية سواء كانت ثائرة أم خامدة تتأثر الى حد كبير بافرازات بعض الغدد وخاصة الغدة الدرقية وغدة البنكرياس [٦٤] ٠

وبهذا التفصيل المناسب يتضح لنا عدم استقلال جهاز أو عضو ما عن الآخر بل التعاون بارز بين الأجهزة كلها ، والادراك يعتمد على أهم جهازين فى الجسم الجهاز العصبى والغددى وهما يتصلان بالجهاز التنفسى والهضمى وبالقلب كذلك ، وجميع الأجهزة ليست شيئا الا بالدم الذى يضخه القلب ، فان توقف كل شىء فدوره رئيسى فى كل عملية عضوية أو معرفية ٠

---

(٦٤) الانسان وصحته النفسية ٢٠ — ٣٨ ٠

ولا يخفى بعد ذلك أن العلاقة وثيقة بين الحالات النفسية الانفعالية وبين الجسم وأعضائه ، والوظائف العضوية تتأثر بتلك الحالات النفسية كما تتأثر الحالات بالأجهزة والأعضاء ، وكثير من الأعراض الجسمية يمكن أن نعثر لها على عوامل عقلية كما نعثر للأعراض العقلية على عوامل جسمية ، فالتفاعل قائم بين النفس وانفعالها ووعيها وادراكها وبين الجسم وبالعكس ، هذا يؤثر فى ذاك ، وذاك يؤثر فى الأعضاء ، والأجهزة التى تكشف تلك العلاقة موجودة ويمكنها أن تصل الى حقائق علمية تجريبية فى هذا الصدد ، كما أن الملاحظات الخاصة بالنمو الانسانى فى بداية هذا لكائن البشرى وفى نهايته تكشف لنا أن ضعف الجهاز العصبى فى الطفولة والشيخوخة يؤثر على الوعى والتذكر والانتباه والتحصيل (٦٥) وأى ضرر يصيب الجهاز العصبى يؤثر فى عملية الادراك بشكل نسبى .

هل نفهم كمية تلك العلاقة وكنه الادراك :

تحدث القرآن الكريم عن النفس كما أسلفنا ، وتناول الادراك الحسى حسبما ذكر ، وجاءت مادة التعقل فى (٤٩) موضعا من الكتاب المجيد بصيغة الماضى والمضارع (عقلوه ، تعقلون ، نعقل ، يعقلها ، يعقلون ،) واتجه البيان الربانى عن النفس وادراكها الحسى والعقلى الى النشاط لخارجى ، والقدرة على الفعل والكسب ، والفهم والوعى ، ولم يتطرق هذا البيان الى كنه النفس وحقيقتها الداخلية على غرار ما تعرض لنشاطها الباطنى والظاهرى من حسد وحقد أوجب وكره الى آخره ، ومن عزم وارادة الى كسب وجهد وأعمال بارزة ظاهرة ، ولم يتناول كذلك كنه العلاقة بين الجسم والادراك بشعبتيه مثلما تحدث عن العينين والأذنين والاحساس باعتبارها آلات حسية يمكن أن تدرك ، وأيضا فان مسألة الكنه والكيفية الحقيقية التى تتم بها عمليات

---

(٦٥) علم النفس التكوينى ١٩٦ ، ٣١٣ — ٣١٤ .

الادراك الحسى والعقلى لم ترد فى النصوص القرآنية كما هو الشأن فى حديثه عن قدرة الحس والعقل عن فهم الكون ومظاهره والاعتبار بها والتركيز على مراقبة النفس وأنشطتها ، والسبب بسيط فى تجنب اثارة الكنــه والحقيقة ويرجع الى أننا فى حاجة شــديدة لمعرفة الأنشــطة التى تقوم بها لتخدمنا فى حياتنا الدنيوية والأخروية أكثر مما نحتاجه فى فهم الكنه والحقيقة ، علاوة على صعوبة الجانب الكنهوى واستعصائه أحيانا على فهم الانسان وطاقته ، والكيفيات الذاتية بصفة خاصة ليست محل تركيز فى القرآن كتلك المسائل المتعلقة بالظواهر والآثار •

وما زالت نظرة القرآن هــذه هى المعترف بها حتى على ألســنة الذين لا يدينون به ، وهى النظرة السائدة ولو لم ينطق بسيادتها أناس يلجأون فى اعترافاتهم العلمية الى الدين ومصــادره ، بل يعتمدون على الجهد الانسانى ووسائله فى المعرفة والبحث والتجريب ، ولا بأس أن نقف على بعض ما يزجونه الينا فى مقام النفس عامة والادراك بصفة خاصة وسوف أدع المختصين فى هــذا الشأن يتحدثون دون تدخــل كبير منى •

وبالنسبة للنفس بصفة عامة فان العلماء المشتغلين بدراستها لجأوا طوع ارادتهم ، وطبقا لمــا يستطيعونه ، وما ترسله اليهم أجهزتهم العلمية الخاصة بالبحث والتنقيب الى المظاهر الخارجية للسلوك اتفاقا مع وجهــة النظر القرآنية ولو لم يتبنوها أو يعتنقوها ، وذهبــوا أن التكوين الداخلى لا يمكن (اخضاعه للدراسات العلمية ، فنحن لا يمكننا أن نعرف الوحدة الدينامية المتعددة الأشكال ، والتى نقول عنها انما توجد حقيقة ، والتركيب الداخلى مع حقيقته لا يمكن دراسته مباشرة) (٦٦) •

وهم ازاء هــذه النقطة ونظــائرها أمام حقائق داخليــة مجردة

(٦٦) د. سيد غنيم سيكولوجية الشخصية ٥٠ .

ومظاهر سلوكية خارجية ، والمظـاهر هى المجال الحيوى للملاحظات والتجريب والبحث والدراسة ، وهى المجال النفسى المقدور عليه الذى يختص به العلم ، أما الحقائق الداخلية فلا سبيل الى انكارها ، ولايمكن تجاهلها أو رفضها ، ولوضوح وجودها يستحيل جحدها ، ولأنها مبعث أصيل للسلوك الخارجى والظواهر البادية كليس من العقل فى شىء أن نسدل عليها الستار وان كنا لا نعرف كنهها .

وتبعا لهـذا يضيفون قولهم (ان التكوينـات الافتراضـية أو التجريدات تعتبر مع ذلك حقائق موجودة فى العلم ، — والعلم يعالج ما هو حقيقة — ولكن هزه الحقيقة قد تكون مجردة الى حد بعيد ، فليس هناك انسان شاهد الالكترون مثلا ولكن العالم يضع نظرية ما ، وفى ضوئها يذهب الى أنه اذا كان للالكترونيات خصائص معينة فسوف تنتج عنها اذن نتائج معينة ، وتصمم التجارب لملاحظة هذه النتائج ، فالألكترون الحقيقى هو تجريد فقط وليس موضوعا للتجربة ، وبنفس الطريقة فان الشخصية الحقيقية تجـريد من ملاحظـات عديدة لسـلوك الأفراد المختلفين (٦٧) والنفس الانسانية هى ذلكم التجريد الشبيه بالالكترون المختص وراء الظواهر الكهربائية المتعددة ، وهى المختفية وراء السلوك المتعدد للأفراد الذين يخملون نفسا واحدة باعتبار كنهها ، ونفوسا متعددة باعتبار نشاطها ووجوهها .

ولـما لم يصلوا الى كنه النفس وحقيقتها المجردة فانهم بالتالى لم يستطيعوا وضـع قواعد علمية ثابتة لعلمهم ، وتعـددت تصورات الوحدات الأساسية لعلم النفس ، وتباينت وجهات نظر المدارس العاملة فى هذا الحقل ، وعلى سبيل المثال نجـد (فنت وتتشـنر) ممن اهتموا بدراسة الحياة الشعورية العقلية اعتبروا الاحساسات والصور والمشاعر بمثابة الوحدات النهائية الأساسية ، على حين ذهب بعض علماء النفس

---

(٦٧) نفسه ٥٠ .

التجريبيين الى الاعتداد بالمثير والاستجابة مثل الحافز والعادة على أنها وحدات أساسية لهذا العلم ، واتخذوا علماء النفس الفسيولوجى تجمعات الخلية وحدة أولى ، وتمسك المهتمون بالاحصاء بالعوامل وتجمعاتها كوحدات لهم ، ومال علماء النفس الاكلينيكى ناحية الحاجة والرغبة ، واهتم المشتغلون بالشخصية ودراستها بناحية السمات والاتجاهات العامة ، وكانت العناصر والجزئيات هى الوحدات الأساسية لدى مدرسة الجشتالت ، وأكدت على المجال والصبغة الاجمالية العامة أو الأنماط العامة دون الجزئية التى لا قيمة لها بدون الكليات أو العموميات ، وقد سبق هذا كله أن قدمت مدرسة الغرائز الملكات والأفكار والغرائز والعادات والعوامل والاتجاهات •

والنتيجة وراء هذا الاختلاف حول القواعد الأساسية لعلم النفس ، والتى لم يصل اليها العلماء لمتخصصون فيه كما وصل علماء أى فن آخر مثل الطبيعة والكيمياء والرياضة الى قواعد تخدم علومهم أن قرروا أن هذا ألاختلاف والفشل حول الاتفاق على مبادىء محددة راجع (لطبيعة المادة التى يدرسها علم النفس ، وما هى عليه من تعقيد بالغ ، ولذا فان البعض ينظر أحيانا الى علم النفس باعتباره متخلفا عن العلوم الطبيعة الأخرى حيث لم يصل بعد الى اكتشاف الوحدات الأساسية التى تقوم عليها دراسته) (٦٨) •

وما دام هؤلاء العلماء لم يصلوا الى حقيقة النفس فى تجريدها الداخلى ، ولم يتوصلوا بناء على جهلهم هذا الى تكوين وحدات أساسية فانه ليس بالغريب أن يجهلوا الآن العلاقة بين النفس والجسم فى صورتها الكنهوية أو الحقيقية ، ونستمع منهم بعد أن قرروا وجود علاقة ما بينهما ، وانتهوا الى أن الحياة العقلية نتيجة مباشرة للجهاز

---

(٦٨) نفس المرجع السابق ١٩٤ — ١٩٥ •

العصبى اذ يقولون (ولكن ليس هناك من المبررات العلميـــة ما يكفى لقبول هذه العلاقة البسيطة مع تسليمنا بأن هناك نوعا من العلاقة على أى حال) .

وفى بداية الفصل الذى عقده للعلاقة بين الجسم والعقل يقول : كان من الضرورى (أن ندرس ما بين الحياة الجسمانية والحياة العقلية من رابطة ، وليس معنى هذا أننا نبحث كنه العلاقة بين الحياة الجسمية والحياة العقلية فهذا بحث تحطمت أمامه جهود أئمة الباحثين لا سيما ديكارت ومن أتى بعـــده ، ولم يصلوا فيـــه الى الآن الى نتيجة مرضية ولكن الذى نقصد اليه هو أن نبين أن هناك علاقة ، وأن نبين على قـــدر الامكان مدى هذه العلاقة) ويعترف بوجود علاقة بين الحالات النفسية الانفعالية وبين الجسم ثم يردد (ولو أننا لا نعلم على وجه التحقيق كنه هذه العلاقة) (٦٩) .

واذ انتقلنا الى مقصودنا الرئيسى وهو الجهل بكنه الادراك الحسى والعقلى وجدنا علماء النفس والطب معا يذكرون نفس الشىء الوارد مع كنه النفس والعلاقة بينها وبين الجسم ، فيقال عن الادراك : انه أمر نجهله الآن جهلا تاما جسيما يرى الدكتور القوصى ، وأما الطبيب الدكتور خالص جلبى فيسوق فى كتابه : الطب محراب للايمان أن حاسة السمع معقدة جدا ، والمعلومات الموجودة بين أيدينا الآن تتناول بعض الشروح الخفيفة عن كيفية انتقال الصوت لا أكثر ، وأما كيف يحصل فهم الكلمات التى تسمع ، وكيف تميز الأصوات العـــديدة جدا بعضها البعض ، وأين تقع خزائن الذاكرة للمسموعات الى جانب أسئلة كثيرة لا تجـــد جوابا عليها ، ثم يتحدث على لسان أحد أساتذته بكلية الطب أثناء محاضرة له عن كيفية انتقال الصوت وحصول السمع قال الأستاذ : اننـــا نعرف أن الأمر يتم أما كيف تدركه الخلايا العصـــبية وتفهمه

---

(٦٩) أسس الصحة النفسية راجع ص ٢٩ .

فلا نتدخل نحن في هذا البحث ، ويعقب الدكتور جلبى على كلام أستاذه بقوله ، وهكذا يخونهم ذهنهم العلمى عندما يريدون بحث الأمور المعقدة التى يجب أن تطرق ولا يتهرب منها أحد على الاطلاق ممن له جدارة بتناولها •

ومرة أخرى يتناول النطق الانسانى فيقرر أننا ننطق فى كل لحظة بكلمات مسموعة وغير مسموعة ، وهذا أمر نلمسه ونعيه • لكن يتم التفكير والادراك والتخيل وتركيب الكلمات والجمل والأفكار وربط كل هذا بعضه الى بعض بحيث يخرج الكلام منسجما متوازنا يهدف الى معنى فان هذه أمور يقف الطب حتى الآن عاجزا عن الاجابة عليها ، ويستطرد بعد ذلك قائلا ثم كيف يستخدم الانسان الأسماء حتى يتفاهم مع غيره فى شىء ما ، وكيف ينتقل هذا الأمر من عالم الماديات المحسوسة الى عالم الروح والفكر حتى يتم التعبير بالأشياء المجردة ، الحق يقال اننا درسنا الطب وعموماته من أوله حتى آخره ومع ذلك لم نستطع حتى الآن أن نفقه هذه الأسرار ، كما أن الأطباء الذين يعنون بهذه القضايا يقفون مشدوهين أمام هذه الظواهر الفذه العجيبة المحيرة (**الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان**) ان النطق فى مستواه الفكرى قبل حدوث التصويت يعد ظاهرة غير مفهومة فى عرف العلم (٧٠) • وما يقال عن السمع يقال عن البصر يقال عن اللمس يقال عن التجريد العقلى من باب أولى •

وفى النهاية نحن ندرك أننا نعرف ، وأن ذواتنا عارفة ، وأن الخبرات تتجمع لدينا بطريقة أو بأخرى ، وبكيفيات دقيقة ، ونحن نلاحظ ذلك فينا كل يوم ، ونعشق هذا التكوين المعرفى والسبل الموصلة اليه ، ومن يخالف ذلك وينكر وجود الزات العارفة مثل (وليم جيمس) ويعترف بمجرد الأخطار لا الذات فانه يهاجم بشدة من نظرائه فى التخصص

---

(٧٠) الطب محراب للايمان ح ١ ١٩٢ ، ١٤٢ ، ١٤٣ •

ويصرون على أن الذات تتلقى الخبرات والمعارف وتتجمع في بؤرتها ـ ولا يمكن أن تتلاقى الخبرات بعيــدا عن الذات ، ومع الاعتراف بوجود ذات عارفة تحمل في داخلها معارف بها سميت عارفة لأنها احتوتهــا وتكدست بها فان العالم النفسى (البرت) يرى أنه ينبغى أن ينغمس علماء النفس في مشكلة الذات العارفة كوحدة مميزة ، وأن يستغرقوا في تفسير وكيفيات المعرفة وكنهها ، وعليهم أن ينظروا في ظواهر الذات العارفة وانتــاجها-وليس (من الحكمة أن يتخــلى عالم النفس عن مسئولياته في تفســير مظاهر السلوك المختلفة ، ويعزو مشكلاتنا الى وسائط داخلية أو الى عامل خفى يحرك الخيوط) (٧١) فالكنه النفسى ، وعلاقة النفس بمعنى العقل بالجسم وكنه الادراك وعملية التخزين المعرفي المكون للذات العارفة كل ذلك مجهول وغير مقدور عليه من الناحية العلمية حتى الآن وللفلسفة أن تظن وأن تخمن فهى مجرد ظنون لاسبيل لها الى كبد الحقيقة والوقوف على الكنه بشكل واضح •

---

(٧١) د. سيد غنيم : سيكولوجية الشخصية ١٩٢ — ١٩٣ .

الفصل الثالث

القلب ونشـــاطه

الادراك القلبى :

كان من الممكن أن نقول ان القلب عبارة عن سويداء الانسان ومحضه ولبه ووسطه (٧٢) خاصة وأن اللغة تجوز ذلك باعتبار هذا المعنى أحد وجوه المعانى المرادة عند اللغويين ، واذا أمكن هذا القول خرج القلب من دائرة القوى المدركة ، وعطل نشاطه النظرى والعملى ، وصح أن يكون عضوا له قيمة كبرى لما يقوم به من وظيفة فى الجسم فحسب ، ولكن يدفع هذا ما أسند الى القلب من رؤية علمية مثل قوله تعالى **(فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور)** ٤٦ الحج • وما وصف به من أمور ايمانية وارادية وصفاتية تخرج عن وظيفته العضوية المحسوسة المنوطة به فى الهيكل الانسانى •

واذا كان الأمر كذلك فلنبحث عن المهام التى أسندها القرآن الكريم للقلب منفصلة تماما عن العقل ، وقائمة على وجوه تختلف عن تلك التى اعتمد عليها العقل ، ثم نحاول الربط بين جهازى الادراك الراقى فى الانسان ، وما قد يحدثانه من اقناع بفكرة أو استقرار على عقيدة ، أو خضوع لمبدأ •

وأول ما يلفت نظرنا فى هذا الصدد أن اللغة والقرآن والحديث وهى المصادر الرئيسية لنا فى هذا البحث لم تتعرض الى القلب باعتباره قطعة صنوبرية مجوفة لها النشاط المعروف فى دورة الدم من استقباله ودفعه وانما تناولت القلب باعتبار أنه عضو له طبيعة نظرية وأخرى عملية ، وبعبارة أخرى ليس القلب فى اللغة والكتاب المجيد هو العضو الصنوبرى الشكل المودع فى الجانب الأيسر من الصدر والذى يستقبل الدم من الأوردة ويدفعه الى الشرايين مثلما هو عند الفسيولوجيين بل هو ذلك العضو الواعى اليقظ الفقيه البصير

---

(٧٢) أقرب الموارد ح ٢ ١٠٢٨ والمعجم الفلسفى ١٤٨ •

محل الايمـان والطهر والشجاعة والعزيمة الى غير ذلك من الخصائص النظرية والصفات العمليـة •

ولقد أعرضت اللغـة كثير عن الصنوبرية ودائها ، ولم تتناولهما الا لمـاما فى كلمة أو اثنتين حيث أشير الى القطعة وهى القلب مرة ثم أشير الى داء القلب وهو (القلاب) الذى يصيبه فى أخـرى ، وما سوى هاتين فقد أسرفت اللغـة فى فهم القلب وتدبيره أو نشاطه العملى وتحولاته أو تقلبـاته ، بينما حصر القرآن بيانه فى المعـرفة القلبية والدور العملى المنوط به دون ما سواهما ، وكذلك فعلت السنة المطهـرة •

لمـا كان القلب على هذا النحـو من اللغـة والقـرآن كان من المنطق المعقول أن نركز على الجانب النظرى والعملى للقلب ولا نفعل كما فعل غيرنا عندما حاولوا تفسـير الاهتمام القرآنى بالقلب بكونه محلا للنشاط الدموى الذى يحتاج اليه البدن عامة ، ويتوقف عليه المخ الذى هو موئل للتعقل بصفة خاصة ، وكأن صاحب هذه المحاولة يريد بها حل الثنائية الادراكية المتمثلة فى العقل والقلب ، ويضغط على أن المدرك هو العقل ، وجهد القلب فى ذلك امداده بالدم اللازم الذى يعين العقل والمخ على الاستيعاب والفهم (٧٣) ، وهو الذى حاوله كاتبو معجم ألفـاظ القرآن الكريم •

على أنهم أمام الاهتمام اللغـوى والقرآنى بفهم القلب ونشاطه عادوا من تلك المحاولة الى بيان ما يقوم هذا العضو من فهم وعقـة ورحمـة الى آخره ، ولا يستطيع باحث أو كاتب مهما كانت عصبيته للمحسوس أن يتجاهل حقيقة الحس القلبى وعواطفه وما يحمله من مشاعر ، وما يقذف به من علم بعيد الصلة عن وسائل الادراك الأخرى •

---

(٧٣) معجم الفاظ القرآن ح ٢ ٢٣١ •

لذا سنقف أولا عند الجانب النظرى للقلب ثم نتبعه بالجـانب العمـلى •

الفقـه القلبى :

تعتبر اللغة العربية أساسا قويا لفهم ما نحب أن نصـل اليه ، ولتصوير العقلية العربية فى فهمها للأمور وتوسعها فى المعانى ، فكل ما طـرأ على ذهنها من معنى ، أو تعرضت له من فعل ، أو شاهدت من كائن أو وجود عبرت عنه بلفظ ومقال ، وبالتالى فخزانة اللغة كشف لمضمون الفكر وخبيئه ، واعلان عن ظواهر القول والفعل •

وطبقا لهـذا فاننا اذا تصفحنا تلك الخـزانة ، ووقفنا عند مادة (قلب) وجدناها تطلق على المحسوسات كما تطلق على المعانى ، فيقال مثلا : قلبـه قلبا حوله عن وجهه ، وقلب الرداء والشىء حوله وجعل أعلاه أسـفله ، وقلب الشىء للابتياع تصفحه فرأى داخله وباطنه ، ويقال فى المعـانى : قلب الأمر ظهـر البطن اختبره ، فقد استعمل التمحيص والاختبار بين اشتقاق هذه المـادة فى المحسوس والمعانى وفى الأشياء الملموسة والمتعلقة ، وكما يحصل التقليب باليد يحصـل بالرأى والفهم ، ويقال كذلك فى اطار البصر بالمعنى : رجل حول قلب ، وحولى قلبى وحولى قلب أى محتال بصير بتقليب الأمور ، وقالوا فى أمثالهم : اقلب قلاب لمن تكون منه السـقطة فيتداركها بأن يلبها عن جهتها ويصرفها الى غير معناها [٧٤] •

والقرآن الكريم اذ يستعمل هذه المـادة اللغوية يجرى عليها من المعانى ما تحتمله قياسا فيقول سبحانه **(لقد ابتغوا الفتنـة من قبـل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهـر أمر اللـه وهم كارهون)**

---

(٧٤) اقرب الموارد ح ٢ ١٠٢٧ — ١٠٢٨ ومختار الصحاح : ٣٢ •

٤٨ التوبة ، وتقليب الأمور عند الراغب فى المفردات (تدبيرها والنظر فيها) وقال القرطبى (أى صرفوها وأجالوا الرأى فى ابطال ما جئت بـه) (٧٥) ، فالاستعمال هنا استعمال فى المعنى لا المحسوس ، وهو نظر وبصر وجولان فى الرأى ، ولم يقل القـرآن : وعقلوا لك الأمور حتى ينصرف التدبير الى العقل ، بل استخدم لفظة من بين اشتقاقات تلك المـادة التى ينتمى الى فضائلهـا القلب ، ونفس الشىء يذكـر فى قوله سبحانه (**ونقلب أفئدتهم وأبصارهم**) ١١٠ الأنعام ، ويعلق الأصفهانى قائلا (وتقليب اللـه القلوب صرفها من رأى الى رأى) ، ويشرح أبو السعود فيقـرر (انا نقلب أفئدتهم عن ادراك الحـق فلا يفقهونه ، وأبصارهم عن اجتلائه فلا يبصرونه لكن لامع توجهها اليه واستعدادها لقبوله بل لكمال نبوها عنه ، واعراضها بالكلية) (٧٦).

وفى هـذا الاتجاه ذاته يخبرنا القـرآن الكريم عن بصر للقلب وسمع له ، وأنه لا عبرة لبصر سوى هذا البصر القلبى فهو النـافع المفيـد ، ووجـود بصر الرأس بدون بصر القلب لا ينفع ، والعكس صحيح ، يقول جل شأنه (**أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور**) ٤٦ الحج ، ونزلت الآية بعد أن نزل قـوله تعـالى (**ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا**) فقال ابن أم مكتوم وأنا يا رسول اللـه أعمى فنزلت آية الحج هذه .

ويقول قتادة (البصر النـافع جعل بلغـة ومنفعة والبصر النافع فى القلب) وأما مجاهد فيرى أنه لكل انسان أربع أعين : اثنـان فى الرأس واثنان فى القلب فان اجتمعت فهو الخير كله وان فقدت عينا القلب فلا خير ولا هداية ، وان فقدت عينا الرأس تحقق الايمـان

---

(٧٥) المفـردات ٤٢٢ وتفسير القرطبى ح ٤ ٣٩٩٦ .
(٧٦) تفسير ابى السعود ح ٣ ١٧٣ والمفردات ٤٢٢ .

والهداية مع عينى القلب ، ويقول أبو السعود (ليس الخلل فى مشاعرهم وانمـا هو فى عقولهم باتباع الهوى والانهماك فى الغفلة ، وذكر الصدور للتأكيد ونفى توهم التجوز ، وفضل التنبيه على أن العمل الحقيقى ليس هو المتعارف عليه الذى يختص بالبصر) (٧٧) •

وفى آية التحريم يقول سبحانه (**ان تتوبا الى اللـه فقد صفت قلوبكما**) ٤ ، ومع أن المفسرين يذهبون الى أن صفت بمعنى مالت الا أنهم يعودون الى المعنى المتبادر فيحملونها على المعنى المعـروف من السـماع والاستجابة فيقول القرطبى (ان تتوبا الى اللـه فقد مالت قلوبكما الى التوبة) وجواب الشرط محذوف تقـديره : ان تتوبا الى اللـه كان خيرا لكما فقد صفت قلوبكما (٧٨) ، واذا كنتم من أهل القبول والاستجابة فاللائق بكم أن تتوبا لأن التوبة هى المناسبة لحالكم قبل ذلك ، والملائمة للاخلاص مع رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم بعد ما حـدث •

وبناء على ما ثبت للقلب من بصر وسـمع فانه مطالب بأن يفقـه ويدرك بوعى مناسب لـما جبل عليه من النقـاء ولـما طبع عليه من القدرة على الفهـم ، وهو فى تلك الحالة التى يقوم فيها بوظيفتـه الادراكية يكون محلا للتقدير والاعتبار مثل (**أن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد**) أى لمن كان له قلب يعلم ويفهم، أو لمن كان له نفس العلم والفهم فيعبر به عن المعانى مبالغة فى ادراكه وفقهه ، وعلى العكس اذا لم يعتبر ولم يفهم فانه يصير محلا للنقـد والانتقاص مثل (**ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بهـا أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغـافلون**) ١٧٩ الأعراف ،

---

(٧٧) تفسير القرطبى ح ٥ ٤٤٦٩ وتفسير ابى السعود ح ٦ ١١١ •
(٧٨) تفسير القرطبى أيضا ح ٨ ٦٦٦٨ •

فلما كان من شأن القلوب أن تعى وتفقه وصرفها أربابها بهواهم عن مهمتها صاروا كالأنعام فى عدم الاعتبار لا فى وجود القوة المحـركة ، والذين يوصفون باتباع الهوى وسوء الفهم والوعى القلبيين هم الذين تحـدث القـرآن عن قلوبهم بأن اللـه ختم عليها ، أو حال بينها ، أو أغلقها ، أو طبع عليها ، أو جعل عليها من الأقفال ما يسد منافذه عليها ، أو صارت غلفا ، أو جعل الحق عليها أكنـة فلا تفقه ، أو صرفها عن الانصياع وفهم الحق لمـا بها من صدود ، أو ران عليها من السواد بسبب ما يفعلونه ، أو سلك اللـه فى قلوب المجرمين من الكفر والعناد ما يليق بحالهم من الاعراض والجحود (٧٩) ، ولقد سبق أن تعرضـنا لتلك النقطة فى كتابنا الدعوة والانسان .

لطائف القلب المدرك ووقوعها :

القلب يفقـه ويعى هـذه حقيقة لكن ما هى الألوان الغالبـة على وعيـه ؟

لو تتبعنا الآيات القرآنية والأحاديث النبوية باستثناء آية الحج السابقة لوجدنا أن السمة الغالبة على هذه اللطيفة الربانية المتعلقـة بالقلب الجسمانى (٨٠) حسبما يعرفه الجوزجاني تتجلى فى المعـانى الرقيقة التى لا تعتمد غالبا على روافد حسية ، أو مجالات محسوسة ، وذلك مثل الوحى والالهـام ، أما الوحى فجاء فى قواه تعـالى : **(قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن اللـه)** ٩٧ البقرة ،

---

(٧٩) انظر الآيات : ٧ البقرة ، ٨٨ البقرة ، النساء ١٥٥ ، الأنعـام ١٥ ، ٤٦ ، الأعراف ١٠٠ — ١٠١ ، الأنفال ٤ ، التوبة ٨٧ ، ٩٣ ، ١١٠ ، ١٢٧ ، يونس ٧٤ ، ٨٨ ، الحجر ١٢ ، النحل ١٠٨ ، الاسراء ٤٦ ، الكهف ٢٨ ، ٥٧ ، المؤمنون ٦٣ ، الغراء ٢٠٠ ، الروم ٥٦ ، الشورى ٢٤ الجاثيـة ٢٣ ، محمد ٢٤ ، المنافقون ٥ .

(٨٠) التعريفات ١٨٧ .

(وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك) ١٩٢—١٩٣، ولابد أن يكون لاختصاص القلب بالوحى سر وحكمة دقيقة جعلته أهلا لذلك ، ولا نزعم أن القلب بمعنى العقل والا جاءت آية واحـدة تبين اشتراكها فى محلية التلقى عن اللـه ، أو جاء القلب مرة والعقل أخـرى ، وكون القلب ينفرد انفـرادا كليا بعملية التلقى دلالة على تمايزه عن العقل فى هذا المضمار السامى .

وأما الالهام فان الروايات الصحيحة تخبرنا أن النبى صلى اللـه عليه وسلم دعا ربه قائلا (اللهم اجعـل فى قلبى نورا ، وفى بصرى **نورا ، وفى سمعى نورا)** (٨١) ، متفق عليه ورواه البخارى ومسلم ، وكان ينبه الصحابة أن يستقيموا فى صلاتهم قائلا فيما يرويه أبو هريرة **(هل ترون قبلتى ها هنا فواللـه ما يخفى على خشوعكم ولا ركوعكم انى لأراكم من وراء ظهرى)** وفى رواية **(انى لأراكم من ورائى كما أراكم)** وفى ثالثة **(انى أبصر من ورائى كما أبصر من بين يدى)** (٨٢). وليست هـذه حالة تخص رسول اللـه وحده بل يمكن أن يتعـرض لهـا صاحب موسى ، ويتعرض بنـو آدم لو تطهرت قلوبهم من الفساد والشياطين **(لو أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا الى ملكوت السموات)** .

وعن أبى شريح العدوى أنه قال لعمرو بن سـعيد وهو يبعث البعوث الى مكة : ائذن لى أيها الأمير أحدثك قولا قام به رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم للغد من يوم الفتح فسمعته أذناى ووعاه قلبى وأبصرته عيناى حين تكلم به ، انه حمد اللـه وأثنى عليه ثم قال : **(ان مكة حرمها اللـه ولم يحرمها الناس فلا يحل لأحد يؤمن باللـه واليوم الآخر أن يسفك بها دما ولا يعضد بها شجرة)** يقول ابن حجر

---

(٨١) البخارى ح ١١ باب الدعاء ومسلم (٧٦٣) شرح السنة ح ٤ ٤
(٨٢) فتح البـارى ح ١ ٥١٤ — ٥١٥ .

(فيه اشارة الى بيان حفظـه له من جميع الوجوه (٨٤) ، السـمعية والبصرية والقلبية .

وممن منح هـذا الفهم القلبى الثاقب عمـر بن الخطـاب فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله قال) انه كان فيما خلا قبلكم من الأمم ناس محدثون فان يكن من أمتى فهو عمر بن الخطـاب) (٨٥) والمحدث الملهم الذى يلقى الشىء فى روعه وهى منزلة جليلة من منازل الأولياء كما ذكر البغوى ، وعن نافع عن ابن عمر قال (قال رسول الله ان الله وضع على لسان عمر وقلبه) أو (ان الله وضع الحق على لسان عمر يقول به) (٨٦) ويرجح أن يكون سبب ذلك هو انتصـار عمر على نفسه وعلى شيطانه ، وقـد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله لعمر أيضا (ايه يا بن الخطاب فو الذى نفسى بيـده ما لقيـك الشيطان قط سالكا فجا الا سلك فجا غير فجك) (٨٧) وروى ابن عمر قال (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : بينما أنا نائم أتيت بقدح لبن فشربت حتى أنى لأرى الزى يخرج من أظفـارى ثم أعطيت فضلى عمر بن الخطاب قالوا فما أولته يا رسول الله قال العلم) وهذا سبب ثان من أسباب نطقه بالحق رضى الله عنه (٨٨) .

---

(٨٤) فتح البارى ح ٤ ٤٣ .

(٨٥) متفق على صحته رواه البخارى ح ٧ ٤٠ فى الفضائل : المناقب ورواه مسلم (٢٣٩٨) فى الفضائل أيضا ، شرح السنة ح ١٤ ٨٢—٨٣ .

(٨٦) اخرجه احمـــد ح ٢ ٥٣ ، ٩٥ والترمذى ٣٦٨٣ ، وصححه ابن حبان ٢١٧٥ وأبو داود ٢٩٦٢ وابن ماجه ١٠٨ وصححه الحاكم أيضا ح ٣ ٨٦ ، ٨٧ ووافقه الذهبى .

(٨٧) البخارى فى الفضائل وفى بدء الخلق ومسلم ٢٣٩٦ .

(٨٨) متفق على صحته : البخارى ح ١ ١٦٤ فى العلم ومسلم ٢٣٦١ فى الفضائل والترمذى ٢٢٨٥ ودحمد ح ٢ ١٠٨ ، ١٣٠ ، ١٤٧ .

وقال على رضى اللـــه عنه مادحا تلك الهبة فى عمر (ماكنا نبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر رضى الله عنه) ويروى عن ابن عمر قوله (ما نزل بالناس أمر قط فقالوا فيـــه وقال عمر الا نزل فيه القرآن على نحو ما قال)ذكره ابن حبان فى صحيحه عقب الحديث (٣١٨٥) ، وشهد عمر نفسه لابن عباس بقوله (ذاكم فتى الكهول ان له لســـانا سؤولا وقلبا عقولا) [٨٩] ، ونال تلك الهبـــة الربانية أبو هريرة رضى الله عنه ، وقال عن نفسه للصحابة : انكم تقولون ان أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ، وتقولون ما بال المهاجرين والأنصار لا يحدثون عن رسول الله صلى الله عليـــه وسلم بمثل حديث أبى هريرة ؟ وان اخوتى المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق ، وكنت ألزم رسول الله على ملء بطنى فأشهدوا اذا غابوا ، وأحفظ اذا نسوا ، وكان يشغل اخوتى من الأنصار عمل أموالهم وكنت امرأ مسكينا من مساكين أهـــل الصفة أعى حين ينسون ، وقـــد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث يحدثه (انه لن يبسط أحد ثوبه حتى أقضى مقالتى هـــذه ثم يجمع اليه ثوبه الا وعى ما أقول فبسطت نمرة على جتى اذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته جمعتها الى صدرى فما نسيت من مقالة رسول الله تلك من شىء) [٩٠] •

ودعا النبى صلى الله عليه وسلم لحسان قائلا (اللهم أيده بروح القـــدس) [٩١] أى أيده بجبريل •

ونحن من جانبنا الآن لانستطيع تفسير تلك الظاهرة تفسيرا علميا ، وكما عجز العلم وما زال عن تفسير كنه الادراك الحسى والعقلى فهو

---

(٨٩) شرح السنة ج ٤ ١٨٦ •
(٩٠) فتح البارى ج ٤ ٢٨٧ — ٢٨٨ ج ١ ٢١٥ •
(٩١) فتح البارى ج ١ ٥٤٨ والبخـــارى ج ٦ ٢٢٠ ومسلم ٢٤٨٦ والترمذى ٢٨٤٩ وسنده حسن •

عاجز عن الوصول الى حقيقة الادراك القلبى من باب أولى ، ولا نملك الا التسليم بوجود تلك الظاهرة التى شاعت بين الناس حتى اكتسبت بالوقوع المتكرر صفات الظاهرة النفسية التى تتحـد خصائصها وتلتقى فى موضوعاتها ، ولقد أرجعها الرسول صلى اللـه عليه وسلم الى اللـه وحده فى قوله (اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله) .

وهذا يدل على أن النظر القلبى يختلف عن العقلى من حيث أن الأول يعتمـد على تلك اللطيفة الالهية التى أنعم بها قلب المؤمن ، أو أشرق بهـا قلب الخلص من المؤمنين ، والعقل يعتمـد على الحس والمحسوسات وهى أدنى بكثير عن تلك التى يركن اليها القلب ، وموضوع الادراك القلبى تلك المعانى الروحية المستمدة من وراء المـادة ، وهى ذات علاقة وثيقة بالروح والأمور الغيبية ، والمستورات التى لا تمتـد اليها قوى الحس والعقل بالادراك ، وانفراد القلب بتلك المستورات والمعانى الروحية يدلنـا على أن بالجسد منطقة هى محل القذف الالهى ، والسر الربانى الذى يختص به من يشاء من عباده .

ومن أهم خصائص تلك اللطائف الالهية وادراكها فى القلب أنها فى حـد ذاتها ذات وضوح وجلاء لا يتحقق فى الادراك الحسى أو العقلى ، كما أنهـا تحدث يقينا فى النفس لا يرد من أى جهة ادراكية ، وحالة اليقين المنبعثة من القلب ومعارفه الربانيـة تؤثر فى جوانية الانسان تأثيرا رقيقا ، وتحـدث انفعالا روحيا ونفسيا شديدا وقويا يقف يقين العقل دونه بمراتب .

طبيعة الاحساس القلبى :

العقل يعى كما قلنـا ، وكما دلتنا النصوص الوفيرة ، ولكن هل طبيعة وعيه وجدانيه أو استدلالية - وبمعنى آخر هل يحس القلب فيحب ويتألم ويكره ويرضى أو يدرك ويدلل ويكشف من الحقائق ما يكشف ، ويثبت منها ما ثبت ؟

حول هذه النقطة اختلف المفكرون ، فالبعض يرى أن القلب يتسع لادراك العواطف وحدها ، واذا أطلق القلب على مجموع الأحاسيس والعواطف دل على معنى مقابل لمعنى العقل ، (لاروشفوكولد) (يظن الانسان أنه مخير ، وهو فى الحقيقة مسير ، اذا وجه عقله الى هـدف معين دعاه قلبـه الى غيره) (٩٢) ، ويدخل الشـعور بالعطف والحنان والرحمة ضمن الاحساس الوجدانى الذى يرتضيه هؤلاء .

ويذهب فريق الى أن القلب موضع لشتى الانفعالات والعقـائد والاتجاهات العقلية ، وهو أداة للتفكير والتدبر والتذكر والاتعاظ ، وأنه قادر على ادراك الحقائق العقلية بطريق الحـدس والالهام لا بطريق القياس والاستدلال كما سـبق ، والمفسرون وهم يعرضـون للآيات السابقة التى ذكر فيها ثقة القلب ينضمون الى هـذا الفريق لكونهم رأوا أن العقل يعقل ويفكر ويتأمل ماحوله وتأتيه المعارف قذفا ، ويكشف من الخفايا ما لا قـدرة لغيره على كشفه ، ويرى الغزالى أنه (اذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشرق النور فى القلب ، وانشرح الصدر وتكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة وتلألأت فيه حقائق الأمور الالهية) ويضيف (باسكال) اننا لاندرك الحقيقة بالاستدلال العقلى وصحته بل ندركها بالقلب أيضا وكذا معرفتنا بالمبادىء الأولى فهى لاتتم الابالنوع الثانى من الادراك (٩٣) . وعليه فالقلب يفكر بطريقة استدلالية تتفق فى الثمار والنتائج ، وتتلاقى فى الهدف مع الاستدلال العقلى وان اختلفت فى الروافد التى تمده كما بينا قريبا ، ولابن تيمية اهتمامات كثيرة بالقلب وفقهه الاستدلالى والعلماء

---

(٩٢) د. جميل صليبا : المعجم الفلسفى ح ٢ ١٩٨ — ١٩٩ راجـع كتاب الحكم للاروشفوكولد ، والفصل الرابع من كتاب الطبائع والسجايا للابروير بعنوان القلب .

(٩٣) المرجع السابق ١٩٨ ، وانظـر الأحياء ح ٣ ١٨ وخواطـر باسـكال ٤٥٩ . ٥هة.

(٩٤) انظر القتامة : ح ٢ ٢٥١ ، ح ٩ ٢٤٦ ، ٣٠٨ — ٣١١ — ٣٢٠ ح ١٠ ٤٧٧ — ٤٧٨ ، ٦٦١ ح ٣ ٨٨ — ٨٩ ، ٢٤٥ — ٢٤٦ .

اليوم يتحدثون عن سفرة الوراثة فى الخلية كما يتحدثون عن شــفرة قلبية ترجى الينا من داخلنا •

النشاط العملى للقلب :

نسلك نفس الطريقة التى اتبعناها فى الفقه القلبى ، فنجد أولا أن اللغة تشير الى أن المــادة التى ورد القلب بين اشتقاقها تفيد التحول والتصفح والصرف والتوفى والتقــدم والتنقل ورجبه والاضــطراب والوسط والخالص المحض والتقلب ، وتسمى الأفعال الناسخة وهى ظن وأخواتها بأفعال القلوب (٩٦) ، وكلها اشتقاقات حركية فعلية عملية •

والقرآن الكريم يثير المعانى المرتبطة باللغة واشتقاقاتها فترد اللفظة (قلب) الشىء حوله من وضع الى آخر ، وقلب الشىء اليــه رد ، **وقلب الله فلانا اليه توفاه (٢١ العنكبوت) (يعذب من يشاء ويرحم من يشاء واليه تقلبون)** وقلب الشىء جعله لا يستقر على حال ، أو قلب كفيه على كذا ندم عليه أو آسف (**ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال) ١٨ الكهف (وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيــه على ما أنفق فيهــا) ٤٢ الكهف (يقلب الله الليل والنهار) ٤٤ النور** ، **وانقلب رجع وتحول** من شىء الى شىء فى العقــائد وغيرها (١١ الحج ، ١٤٢ آل عمران) وغيرهما ، والتقلب التحرك من جهة الى جهة ، أو التنقل من مكان الى مكان ، أو التحول من حال الى حال (١٤٤ البقرة ، ١٩٦ آل عمران ، ٢١٩ الشــعراء) وكل هــذه **الاشتقاقات تحولات** وتصرفات فعليــة وسلوكية •

وتنسب الى القلب أعمال عقائدية وأخلاقية ، وتمتاز بأنهــا أمور وأحوال خفية ، فأعماله كلها مستورة غير ظاهرة وان بدا على الانسان

---

(٩٥) د. موريس موكاى : ما أصل الانسان ١٢٦ — ١٢٩ .
(٩٦) مختار الصحاح ٣٢ ، واقرب الموارد ح ٢ ١٠٢٧ — ١٠٢٨ .

من الأمارات والشواهد ما يدل عليها ، فهو من الناحية العقائدية محل الايمان (**أولئك كتب فى قلوبهم الايمان**) ٢٢ المجادلة ومعقـد العزم والكسب والارادة(٢٠٤ البقرة ، ٢٢٥ البقرة ، ٥ الأحزاب) والقلب سكن الطمأنينة والهداية والربط والسكينة والتمحيص والخير والطهر ، ومن الناحية الأخلاقية محط الرأفة والرحمة والتآلف والحب والمودة ، ومن الناحية الوجدانية الشعورية يخاف ويخشى ويرهب ويجل ويخبت ويلين ويخشع (١٠٦ النحل ، ١١ التغابن ، ١٠ القصص ، ٢٦٠ البقرة ، ٢٨ الرعد ، ٣٢ الحج ، ٤ الفتح ، ٢٧ الحـديد ١٠٦ آل عمران ، ١٢٦ آل عمران ، ١٠ ، ١١ الأنفال ، ٧٠ الأنفال ، ٥٣ الأحزاب ، ٧ الحجرات ، ١٤ الحجرات) وغير هـذا كثير فى كتاب الله سبحانه ، والطابع العملى للقلب أكثر فى القرآن من السمة النظرية المفكرة بعكس العقل .

والقلب مع ذلك يأثم ويزيغ (آل عمران) وينكر (٢٢ النحـل) ويلهو (٣ الأنبيـاء) ويشمئز (٤٥ الزمر) وأقشعر ٧٤ البقرة ، ١٣ المـائدة ، ٤٣ الأنعام ٥٣ الحج) وهو محل تزيين الشيطان (١٢الفتح) وحب الجنة والطاغوت (٩٣ البقرة) .

ومن أمراضه النفاق والحسـد (٣٢ الأحزاب) والغل (١٠الحشر) والحسرة (١٥٦ آل عمران) والريب (٤٥ التوبة) وآيات النفاق كثيرة والتصريح بالمرض القلبى متعدد فى الكتاب المجيد ، والتنبيه على سلامته وصحته واضح ، ومن يقرأ السنة النبوية يرى فيها ما جاء فىالقرآن من اسناد الفعل والعاطفة والوجدان الدينى الى القلب ، ولا يمكن حمـل هذا كله على المجاز أو ارجاعه الى العقل الذى محله الدماغ .

وعلى سبيل المثال فان النبى صلى اللـه عليه وسلم عند وفاة ابنه ابراهيم قال فيما قال (**تبكى العين ويوجل القلب ولا نقول ما يسخط الرب**) (٩٧) **وفى رواية أنس دخلنا على رسول اللـه** صلى اللـه عليه

---

(٩٧) ذكـره الهيثمى فى المجمع ج ٣ ١٧ ونسبه الى ابى يعلى والبزار واعله به واخرجه الترمذى (١٠٠٥) شرح السنة ج ٥ ٣١ .

وسلم وابنه ابراهيم يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله تذرفان فقال له عبدالرحمن بنعوف وأنت يا رسول اللـه فقال (يا بن عوف انهـا رحمة ثم اتبعها بأخرى فقال ان العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول الا ما يرضى ربنا عز وجل وانا بفراقك يا ابراهيم لمحزونون) (٩٨) وكان النبى صلى الله عليه وسلم يدعو (اللهم انى أعوذ بك من علم لا ينفع ومن نفس لا تشبع ، ومن قلب لايخشع ومن دعوة لايستجاب لها) (٩٩) وقال عن أهل اليمن (أتاكم أهل اليمن هم أضعف قلوبا وأرق أفئدة ، الايمان يمان والحكمة يمانية) (١٠٠) •

وكلام السلف ، وكتب التراث مليئة بالحديث عن القلب وصفاته وما ينبغى أن يكون عليه ، وتعتبر المجاهدة والاعتبار والاتعاظ من أهم السبل المؤدية الى نقائه وطهارته ، ولقـد نبغ كثير من علماء المسلمين فى فن الوعظ المؤثر فى القلب مثل أبى عثمان الواعظ ، وابن الجوزى ، وألف العديد منهم كتبا فى المواعظ والرقائق بغية تهذيب القلب وترقيقه ، وامتاز أسلوبها بالرقة البالغة التى تخدم الغرض نفسه ، وركزت فى الموضوعات على المسائل المؤثرة فى هذه المضغة ، ومن أشهرها كتاب القصاص والمذكرين لابن الجوزى ، والمواعظ فى شفاء الملوك له أيضا الى غير ذلك من كتب الرقائق والزواجر •

خاتمة : سلطان الادراك فى كل من القلب والعقل :

العقل كما سبق هو الجهـاز الذى يفكر بذاته ، ويعمل بطبيعـة ادراكية مودعة فيه ، ويعتمد على الحواس والمحسوسات فى موضوع

---

(٩٨) متفق على صحته : البخارى ح ٣ ١٣٨ — ١٤٠ ومسلم ٢٣١٥ شرح اسنة ح ٥ ٤٢٩ •

(٩٩) صحيح اخرجه مسلم ٧٢٢ شرح السنة ح ٥ ١٥٩ •

(١٠٠) متفق على صحته البخارى ح ٨ ٧٧ ومسلم ٥٢ ، والمسـند ح ٢ ٢٣٥ ، ٢٥٢ ، ٢٥٨ •

أدراكه ، وهو بذلك يصور أحكاما مبنيّة على نتائج مستخلصة من مقدمات مسلمة بديهية ويقيم براهينــه على أساس من الضروريات ، ويقــدم هذه النتائج أو البراهين الى الكيان الانسانى فيقوم القلب بتلقفها ، ويتدبرها ثم يثق بما جاء فيها بعد أن يسلم بصحتها ، ثم يعقد القلب عزمه وارادته للقيام بما يقتضيه يقينه القادم اليه من العقل سواء كان هذا المقتضى ايمانا بفكرة أو عقيــدة أو عملا ظاهرا وعنــدئذ يحرك الجوارح لتنفيذ الأعمال المطلوبة ، ومن الجدير بالذكر أن تلك الأعمال تعود على اللب من جديد ، فان كانت خيرا زادته لمعانا وبريقا ، وان كانت شرا لفته بثياب أسود قاتم ، وفى حالة الخيرية وازدياد الطهــر والصفاء يشرق وجه القلب بما كسبه من عمل فيستحق بهــذا البريق عطاء الله ومننه ، وفيضه وجوده ، فتأتيه المعارف الربانية بعد ذلك من جديد ، فيقوى يقينه الذى بنى على التعقل ، وتزداد معارفه ، وتمتزج ببعضها امتزاجا قويا يكون فى صالح الانسان ومنفعته وسعادته .

هــذا اذا كان الشحن القلبى قادما الى الانسان من جهة الادراك العقلى ، وقــد يبدأ الانسان من القلب مباشرة ، وتمر العملية الادراكية على نحو عكسى ، وذلك عند بعض الأشخاص الذين يرون بقلب كبير ، ولديهم قدر من الصفاء والاستعداد والنقاء ليؤهلهم لتبين الحقائق وكشفها بلا تدخل من العقل ، بل باشراق القلب وحده ، ومنحة اللــه التى يفيضها عليه جودا وكرما ، هؤلاء تمتلىء جوانيتهم يقينا بالحقائق التى يعرفها القلب بطــريق مباشر ، وبلا واســطة مقدمات ضرورية أو بديهية ، وتغمرهم المعرفة الواضحة غمرا ، وتسيطر على كيانهم سيطرة واضحة يسلم معها العقل ، ويتخلى عن طريقته وجدله ازاء لمعان الحقيقة ووضوحها ، وكما لا ينكر العقل رؤية البصر الرأسى فلا ينكر رؤية البصر القلبى .

ويخطو العقل خطوات أخرى على الطريق فيتبين حقائق القلب ويدافع عنا بما يملك من قوة ، وبما يقــدر على الدفاع عنها من تعبير ،

وبما تتحمله الحقائق القلبية من ألفاظ وطرق فى الاقناع ، وقــد يدلك على صــحتها ببراهين تخرج عن سماتها ولكن تتصــل بها من قريب أو بعيد ،وحتى لو سكت وصمت فان حالته هــذه تكون مفعمة باليقين والرضا عن ذاته وعما وصل اليه ، ولا يقع صــاحب اليقين القلبى عن طريق الالهام فى تناقض مع ذاته الواعية ، ولا يصطدم عقله مع قلبه، ولا ينكر تفكيره ما أودع فى قلبه من سر ، أو ما كشف لقلبه من حقيقة عن طريق الحدس والفراسة ، ويرجع انعدام التصــادم الى طبيعــة الادراك القلبى ذاته وما ينطوى عليه من وضوح وجلاء وقوة ، ولكونه معــرفة مباشرة ، والى كــون القــوى الادراكيــة الانسانيــــة متحدة ، فما توصل اليه فريق الحس يكون مادة لتفكير العقل ونشاطه ، وما استخلصه العقل واطمأن اليه يدين به القلب ويركن اليه ، وما كشف للقلب من حقائق ولطائف يشع بريقها على العقل ويؤثر فيه ، وتبــدو لوامعه بريقا فى العين أو جمالا ورقة من النطق أو ســيما وعلامة على الوجه ، فالوحدة الانسانية متمثلة فى القوى الادراكية كما هى متمثلة فى الوظائف العضوية والخلايا الحية والأجهزة البدنية ، وانها لوحدة ذات سمات انسانية عامة فى الوقت الذى يتمتع فيه كل فرد من أفراد الانسانية بمميزات خاصة تحدد شخصيته المستقلة ، ويتعامل فى الحياة من النــاحية التربوية والســلوكية والاجتماعة على أساس من تلك المميزات والفروق •

الفصل الرابع

المسئولية الادراكية

أهمية هذا المبحث :

ربما قيل ان هذا الباب خاص فى الدرجة الأولى بالمعرفة وقواها فى القرآن الكريم فما للمعرفة والمسئولية ؟ والمسئولية مبحث يتعلق بتحديد الأساس لأى فعل انسانى ، وبتوضيح المنابع للسلوك البشرى .

ولدفع هذا السؤال نجيب من عدة جوانب تجعل موضوع المسئولية مبحثا ضروريا هنا ، وأولها أن القرآن الكريم اعتبر القوى المدركة فى الانسانية أصلا ومنبع للأقوال والأفعال ، العقائد والأعمال خيرها وشرها تصلح اذا وعت القوى بجدية وتسوء اذا ساءت ، ومن هنا كان الحديث القرآنى عن الادراك الانسانى بكل آلاته الحسية والعقلية والقلبية كثيرا ومستفيضا ، يبين له طريق النظر الصحيح ، ويحثه على التفكير المثمر ، والتدبر والتأمل والتبصر الى آخر ما أسلفنا الاشارة اليه ، ويقوم من اعوجاجه عند الذى انحرف بهم طريق التعقل ، أو ضلوا سبيل الاهتمام الراقى ، أو حجبتهم عن رؤية المجال الادراكى السامى صوارف النفس أو المادة .

ومن ناحية أخرى ينبه القرآن الى أن تلك القوى العاقلة مع كونها مصدرا لكل نشاط انسانى الا أنها تحتاج الى مراقبة دقيقة من الانسان ذاته ، فهو مسئول عن الحس والعقل والقلب مسئولية كاملة ، ومسئوليته ازاءها تنحصر فى تمحيص دوافع اهتمامها ، هل هى من النوع الراقى فكرا وعملا ؟ أو من النوع الدنيوى المنحط وهل تنحاز القوى العاقلة الى أهواء النفس وشهواتها ، والى مطالب دنيوية محدودة أو تسمو فوق ذلك الى الغايات والمثل الدينية والاجتماعية ؟ وهل تسخر القوى العليا المدركة لقوى النفس الدنيئة أو تهذب وتقاوم تلك القوى السافلة كى ترقى النفس فوق دناياها وشواتها ؟ كل ذلك يحتاج الى مراقبة وتمحيص من الانسان على مداركه .

وبما أن الانسان لا يراقب ادراكه بادراك الآخرين وحدهم وانما يحرس ذاته بذاته في الدرجة الأولى ويدعو القوى الادراكية أن تراجع نشاطها ، وأن تعدل من منابعها ودوافع تفكيرها ، وأن ترقى بأهدافها التى تسعى مفكرة للوصول اليها فانه سيستخدم نفس القوى فى كشف دوافعها وخططها وغاياتها ، ومن ثم فان الادراك ينطلق مفكرا ثم يعود الى نفسه متثبتا أو ممحصا ومقوما ، وليس لنـا ادراك مفكر وآخر مراقب ، وانما هو ادراك واحد قادر على المهتمين معا ، والذين يجيدون التفكير والرأى الذين يعودون الى أنماط تفكيرهم فيخضعونها لضروب الابتلاء والاختبار ، ومن لا يفعـل ذلك يقع فى مهاوى الآراء المتعجلة والأفكار الساذجة ، ويصـير عرضة للانحراف الفكرى الذى يتبعـه انحراف فعلى وعملى ، فالمسئولية من هـذا الجانب الأول تقع على الادراك تجاه ذاته وطبيعة تفكيره ، وتجاه النتائج المترتبة عليـه من سلوك وأفعال .

ويصرح القرآن الكريم بمسئولية الادراك على ذلك فيقول جـل شـأنه (**ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا**) (١) والمفسرون يقررون بداية أنه لا ينبغى أن ينبع التفكير من منطقة لا علم للانسان بها أصلا ، ولا يليق أن يخوض الفكر فى مســائل مجهولة بالنسبة الى قواه ، ويجب أن يكون موضوع الادراك معلوما لدى المدرك ، وأن تعمل القوى الادراكية فى المجالات التى تستطيعها بلا تجاوز لحـدود قدراتها ، فللحس مجاله ، وللعقل مجاله ، وللقلب كذلك ، ولهـا كلها مجتمعة مجال تستطيع العمل فيه ، وهناك من الأمور التى لا تعنيها ، أو التى تغيب عنها وتخرج عن دائرة استطاعتها ونشاطها مما يجب على الادراك ألا يخوض فيها ، وأن يعى الادراك ازاءها حدوده وقدراته ونسبيته .

---

(١) الاسراء : ٣٦ .

وأيضا فان منابع التفكير وأولياته ينبغى أن تكون واضحة جلية ، وثابتة لا ظنية ، ولا محتملة ، فالمظنونات والمحتملات ليست فى نظر القرطبى محلا لتعلق الادراك وان اعتبر أبو السعود المظنون مفيدا ، وسنده مرجحا ، واذ امتنع تعلق الادراك بالذى لا يعنينا ، أو الذى يخرج عن حدود استطاعتنا ، أو ما كان مظنونا وموهوما ، أو ما احتمل الفساد والصحة فمن باب أولى يمتنع عند تيقن الفساد ، أو تحقق المضرة ، أو ثبوت الضلال ، ويدخل فى هذه الممنوعات الادراكية الخوض فى المغيبات بالطرق الادراكية الانسانية والحديث عن الالهيات بأقيسة الادراك ، وانكار البعث بأدلة عقلية .

وعلى الانسان أن يعى أن كل حاسة مدركة ، أو قوة مفكرة (مسئولة عن أحوالها شاهدة على أصحابها) وهى مراقبة لذاتها بما أودع فيها من لطائف الادراك والوعى ولذلك عبر القرآن عنها بـ (أولئك) المفيدة للعقلاء ، أو المستخدمة فيمن يعقل ، وتعنى أن كل واحد من الأعضاء مسئول عن نفسه (٢) مسئولية كاملة ، وأن الله جل جلاله قبل أن يؤاخذ على الفعل باعتبار المسئولية الواقعة على الانسان ازاء صورة منه وطريقة وقوعه ومباشرته له نبهه الى القوى المدبرة والعاقلة وأنها مسئولة عن ادراكها من حيث ان ما تقوم به من تفكير يهيىء السبل لوقوع الأفعال بعد ذلك ، فدور المسئولية الادراكية سابق عن وقوع الفعل بداهة وتصورا ، وحول هذا يروى ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ذات يوم لأصحابه (استحيوا من الله حق الحياء) قالوا انا لنستحى يا نبى الله والحمد لله قال (ليس ذاك ولكن من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى ، وليحفظ البطن وما حوى ، وليذكر الموت والبلى ، ومن أراد

---

(٢) القرطبى ح ٥ ٣٨٧٣ — ٣٨٧٦ ، وتفسير ابى السعود ح ٥ ١٧١ — ١٧٢ بتصرف واسع .

الآخرة ترك زينة الدنيــا فمن فعل ذلك فقــد استحيا من اللــه حق الحياء) وحفظ الرأس وما وعى شامل للسمع والبصر واللسان والمخ الذى هو محل التفكير ، فلا يستعملها الا فيما أحل اللــه ، ولا يفكر الا فيما ينفع وما هو حق ، والبطن شامل الفرج والقلب ، وحفظهما يعنىأن يكون القلب مهتما بالعلم النافع والفرج مصونا عن كل محرم(٣).

والجانب الثانى الذى يوضح أهمية المبحث فى المسئولية الادراكية لاينفصل عن الأول انفصالا تاما ، بل يرتبط به فى علاقة وثيقة ، ويكمن هــدا الجانب فى أن المنهج القرآنى يختلف عن الطرق النظرية للمناهج الانسانية من حيث ان الطريق القرآنى فى حديثه عن القوى الادراكية واصلاحها والطريقــة المثلى لوعيها انما يعدها اثمار ونتائج عقائدية وعملية ، وليس قاصرا على مجرد النظر كما هو عنــد الباحثين فى نظرية المعرفة لذاتهــا ، أو الذين يقفون فى بحوثهم عنــد النظر المجرد ، فاصلاح الوعى وارشاده طريقة واستدلالا ليوصل الى اليقين الاعتقادى، وتنشيط الفقه العلمى والحث عليه ليستقيم العمل الصالح ، وكل من الوعى والاستدلال ، والفقه والعلم مرتبط بالقوى الادراكية وسيرها .

والوعى والعلم نابعان من الادراك وسبيلان الى صحة العمل ، وسابقان عليه ، فهناك ضرورات محددة : قوى ادراكية يجب أن تسعى بجودة ودقة وضبط ، وعلم هو ثمرة النظر فى الكون وآيات الله فى كتابه، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم الشارحة والمبينة ، ثم عمــل منضبط على ما سبق من ادراك وعلم وعن التلاحم بينها يقول معاذ بن جبل (العلم امام العمل والعمل تابعه) (٤) ، ويقول عمر بن عبد العزيز

---

(٣) اخرجه احمــد ح ١ ٣٨٧ والترمذى ٢٤٦ والحــاكم ح ٤ ٣٢٣ وقال البغوى حديث غريب شرح السنة ح ١٤ ٢٣٥

(٤) ابن تيمية : الحسبة فى الاسلام ٨٢ .

(من عبــد الله بغير علم كان ما يفســد أكثر مما يصلح) (٥) ، ويأمر ابن عباس علماء المسلمين قائلا (كونوا ربانيين حكماء فقهاء) (٦) وعنون البخارى فى صحيحه لأحــد أبواب العلم فقال (باب العلم قبل القول والعمل لقوله تعالى « **فاعلم أنه لا اله الا الله** » فبدأ بالعلم) ويتحسر الكفار يوم القيامة على فقــدان الوعى المستنير وبالتالى فقدان الايمان والعمل الصالح مما أوقعهم فى سوء أعمالهم وصنيعهم بدخولهم النـــار فيقولون ساعتها (**لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير**) (٧)

أى لو كنا نسمع سمع من يفهم ويفقه ، أو نعقل عقل من يميز لكنا من أهل العلم النافع والايمان الصادق ، والعمل المخلص على شرع فنجونا فى يومنا هــذا (٨) ه

فالنظرة القرآنية التى نحن بصــددها ، والتى نضــبط الادراك الانسانى ضبطا يستقيم معه التفكير كى يتجه الى الغايات العليـــا التى خلق من أجلها هذا الكائن البصرى فى عمران الأرض وعبادة الحق جل جلاله ترى أنه من ألزم اللوازم أن يستيقظ هذا الادراك ويستفيق ، ويتخلى عن ظنونه الفاسدة وخيالاته الشاردة المنحرفة ، وأوهامه التى لا أساس لهـــا من واقع أو عقل ، وأن يعمل فى ضوء القواعد الشرعية ، والأحكام الدينية كى يحصل على علم يفيده واجتهادات تنفعه ، وأن تتحول تلك العلوم الى سلوك أخلاقى ، وأداء شرعى للفرائض والأوامر الالهية ، وتلك النظرة طبقا لأجزائها الأساسية هذه ، وتحولاتها الاصلية المشار اليها تفرض احكام الربط بين العقليـــة والتنفيذ ، وبين التفكير والتطبيق •

---

(٥) نفسه ٨٣ .
(٦) فتح البارى ح ١ ١٦٠ — ١٦١ .
(٧) الملك ١٠ .
(٨) فتح البارى ح ١ ١٦٠ — ١٦١ .

وليس المنهج الاسلامى مجرد بحوث نظرية فى الادراك ، أومجموعة من المفاهيم والنظريات والمثاليات فحسب بل هو كذلك مع التطبيق والتربية ، وجعل الأحكام والنظريات مبادىء تحكم الأفراد ، وتسيطر على الواقع ، ولهـا مفعولها القوى والعميق فى هذه الحياة كلها دينيا وسياسيا واجتماعيا .

صورتا الضبط الادراكى :

هناك وجهان للضبط الادراكى : وجه يتعلق بالطبيعة الداخلية لعملية الادراك والتصورات المبدئية والغائية التى تحركها وتدفعها ، وهذا الوجه قد تناولناه فى النقطة السابقة بشىء من التفصيل . ويمكن أن يتسمى هـذا الوجه بالصورة الباطنية أو الداخلية للادراك .

وهناك وجه آخر يمكن أن نطلق عليه الصورة الظاهرية ، وهو يتعلق بضرورة حفظ آلات الادراك الحسية ، عن أن تمتد الى ما حرم الله ، أو أن تتعقب بالنظر والسماع ما ليس مباحا أو مشروعا ، أو أن يتجه العقل المسموع ، أو العقل العلمى الى العلوم التى لا تفيد ، أو التى لا يجر تحصيلها الا الى ضرر محقق على الفرد والجماعة ، أو أن يخطر القلب من الهواجس والوساوس والظنون والريبة والشك ما يعكر صفوه ، ويحول بينه وبين اشراقات الحقيقة .

وانما تعلقت عملية الضبط بالصورتين الباطنية والظاهرية لكون الأولى ذات علاقة دافعية بالأخرى وكون الظاهر له تأثير المباشر على الباطن بالتصفية أو التكدر ، وسوف نتبع فى الحديث عن الصورة الظاهرة الخط المذكور فى الآية الكريمة السابقة (٩) فنبدأ بحفظ السمع ، ثم البصر ، ثم الفؤاد فى منطقه العقلى والقلبى والوجدانى ، وأخيرا نتناول المسئولية ووجوهها الفردية والاجتماعية وغيرهما .

---

(٩) آية الاسراء ٣٦ .

ضبط الأسماع :

تحدث القرآن عن السمع فى صورة مركبه رائعة ، وفى مواقف تتسم بالوضوح والتمييز ، فهناك سمع الله الذى أحاط بالسرائر والخفايا كما أحاط بالظاهر والعلن ، وهناك سمع المؤمنين الذين استمعوا لآيات الله أو المنادى لدعوة الحق فآمنوا واستجابوا واهتدوا وتدبروا ، وأنصتوا واتبعوا أحسن القول ، وهذا السمع هو المحمود والمطلوب فى القرآن ، والذى اتسم صاحبه بالحياة واليقظة القلبية والروحية ، والطواعية الايمانية والسلوكية (١٠) ، وهو السمع المنضبط الذى يرشد الى الحق ويهدى اليه ، وانه ليطالب به عموم البشر بصيغة الأمر والالزام .

وهناك السمع المذموم لأهل الكتاب والكفار وعموم المنكرين ، وهو سمع جامد متبلد ، يسمع صوت الحق وآيات الله تتلى ثم ينكر ويصر مستكبرا كأن لم يسمعا ، أو كأن فى أذنيه وقرا ، ويكفر ويعصى ، ويحرص أربابه على الحق ، ويستهزئون به ، ويزلقون النبى بألسنتهم عند سماع الذكر ، وربما قالوا أنه أساطير الأولين ، وأنهم قادرون على أن يأتوا بمثله افتراء ، وقد يطعنون فى الكتاب أو فى نبيه أو يبدلون وحى الله سبحانه ، وهم جاحدون منكرون ضالون كالموتى أو الصم ، ماتت قلوبهم أو طبعت على الباطل والشر ، أو أصابها دين أو غلف أو أكنة (١١) .

---

(١٠) أنظر البقرة ١٠٤ ، ٢٨٥ ، آل عمران ١٩٣ ، المائدة ٧ ، ٨٣ ، الأنعام ١ ، الأعراف ٢٠٤ ، الأنفال ٢٠ ، التوبة ٦ ، الحج ٧٣ ، النور ٥١ ، الروم ٢٣ ، ٥٣ ، السجدة ٢٦ ، الزمر ١٨ ، التغابن ١٦ ، الحق ١٣ .

(١١) أنظر : البقرة ٧٥ ، ٨٤ ، ٩٣ ، النساء ٤٦ ، ١٤٠ ، الأنعام ٢٥ ، الأعراف ١٧٩ ، ١٩٨ ، الأنفال ٢١ ، يونس ٤٢ ، النمل ٨٠ ، الروم ٥٢ ، القصص ٣٦ ، لقمان ٧ ، النور ١٢ ، ١٦ ، ص ٧ ، فصلت ٤ ، ٢٦ ، الزخرف ٢٠ ، الجاثية ٨ ، القلم ٥١ .

وفى معرض الضبط يأمر الله المؤمنين أن يعرضوا عن سماع اللغو (٥٥ القصص) وينهاهم عن السماع بلا فائدة (٢١ الأنفال) عملية أو نظرية ، وعن ابن عباس رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (من تحلم بحلم لم يره كلف أن يعقد بين شعرتين ولن يفعل ، ومن استمع الى حديث قوم وهم له كارهون أو يفرون منه صب فى أذنيه الأنك يوم القيامة ، ومن صور صورة عذب وكلف أن ينفخ فيها وليس بنافخ) ونهينا عن التصنت والسمع وغيرها (١٢) .

ومن الملاحظ أن آذان المستجيبين والمنكرين ترتبط حاستها ببواطنهم فان كان الباطن نقيا خاليا من الهوى والصوارف اخترق الحق أروقة الأذن الى العقل والقلب وحدث التأمل المجرد فانصاع المتفكر أو المتدبر الى دواعى الحق وبوارقه ، وان كان الباطن حسودا مريضا خبيثا عفنا مشغولا بحجبه اعترضت الأمراض الباطنية طريق الصوت ، فأوقفته عند حافة الأذن الخارجية فيكون قد سمع وهو لا يسمع ، وما الأذن فى الحالتين الا أداة توصيل جيدة لو ذلل سبيلها ، وأزيلت العقبات أمام عملها ، وما عملية الضبط المقصودة الا توجيهها الى المطلوب شرعا، والمباح وجودا ، والا تيسير الطريق أمام الافادة من توصيلها لما سمعت، وتنظيف الطريق الداخلى أمام ما ترمى به من مسموعات .

الضبط البصرى :

علينا أن نعى حقيقة هامة هى أن القرآن الكريم وهو يتناول المسائل عامة ، والضبط الادراكى فى السمع أو البصر أو غيرهما يثير المسائل العامة والخاصة كما هى فى حد ذاتها وما ينبغى أن تكون عليه ، وكما هى فى واقع الأمر عند المؤمنين والكافرين ، وخصائصها عند كل ، وأحوال كل من الفريقين ازاء كل مسألة ، أما بالنسبة الى -

---

(١٢) رواه البخارى ح ١٢ ٣٧٤ — ٣٧٥ فى التعبير وشرح السنة ح ٢ ١٣٠ .

١٦٢٣١ل

السنة فانها تهتم فى الغالب بالبيان والتفصيل والتربية والتهذيب لنفوس المؤمنين ، وتعنى بضبط الجوارح على شكل تفصل فيه ما يجب تركه ، وما يجب فعله ، وحتى فى تلك المرات التى يتعرض فيها القول النبوى الى موازنات بين أحوال المؤمنين وغيرهم ، وقلوب المؤمنين والكافرين والمنافقين ، وأعمال المخلصين والمرائين ، وعلم الصادقين والكاذبين فانما تكون تلك الموازنات أو هذا التفصيل والتقسيم لغرض الاعتبار والتعليم والترويض لنفوس المؤمنين وبواطنهم أو ظواهرهم ، وبناء على هـذا فيكون القرآن خطاب الانسانية كلها ، والسنة خطاب الاعداد والبناء للذات المؤمنة ، وتوجيهها الى ما يصلحها ، وتحذيرها عما يضرها •

وتطبيقا على ذلك فان القرآن كما فعل فى السمع فعل فى البصر ، فنبه الى أن المؤمنين يتطلعون بعيون ملئها البريق واللمعان الى الآيات الكونية فينظرون فيها ليروا عظيم الصـنع وبديع الاتقان ، وروائع الجمال ، فتبهرهم الآيات ، وتخطب أبصارهم وعقولهم ، ويتأملون هذا الخلق فيدركون خالقه ويعلمون أنه ربا فيؤمنون ، كما يبصرون آيات المتلوة التى هى بصائر وهـدى ورحمة ، ويبصرون باطنهم كذلك (١٣) لكن لا بعين الرأس ولكن بعين القلب •

ولفت أنظـارنا الى أن الكفار يحيون فى ظلمات البـاطل وعماه لـما كذبوا به من الحق ، وأنهم يبصرون الباطل والفاحشة ويأتونها ، وذلك لأن قلوبهم أصـابتها غاشية وطمس ، وعليهم أن يدركوا أنهم يعجزون عن ادراك بعض المغيبات التى تقع فى متناول حواسهم البصرية ومن باب أولى يعجزون عن ادراك المغيبات التى تبتعـد عن أنظارهم بمسافات غير متناهية •

---

(١٣) الأعراف ٢٠٣ ، الاسراء ١٠٢ ، القصص ٤٣ ، ٧٢ ، السجدة ٢٧ ، الذاريات ٢١ ، الجاثيـة ٢٠ ، الحاقة ٣٨ — ٣٩ •

وفى نهاية هـذا التفصيل عن بصر الفريقين من المؤمنين والكافرين يترك الله الحرية للبشرية عامة أن تبصر حقائق اليقين أو لا تبصر ، فان أبصرتها فلنفسها ، والا فعليها (١٤) .

وهذا العرض الذى نشاهده يختلف فى طريقته عن توجيه السنة التى تحدد بالضبط المجالات التى لا ينبغى للبصر أن يرتادها ، وعلى سبيل المثال فان ابن عمر روى أن النبى صلى اللـه عليه وسلم قال : **(يا معشر من آمن بلسانه ولم يفض الايمـان الى قلبه : لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم فانه من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته ومن تتبع اللـه عورته فيفضحه ولو فى جـوف رحله)** (١٥) وحديث (اياكم والجلوس بالطرقات) مشهور فيه من حقوق الطريق قوله صلى اللـه عليه وسلم **(وغض البصر)** (١٦) وروى أبو موسى الأشعرى عن النبى صلى اللـه عليه وسلم قال : **(كل عين زانيـة ، فالمرأة اذا استعطرت فمرت بالمجلس فهى كذا وكذا يعنى زانية)** (١٧)، وعندما نظر رجل الى النبى صلى اللـه عليه وسلم من ستر الحجـرة وفى يـد المصطفى (مدرى) قال النبى صلوات اللـه عليه **(لو أعلم أن هـذا ينظرنى حتى آتيه لطعنت بالمـدرى فى عينـه ، وهل جعـل الاستئذان الا من أجل البصر)** متفق على صحته رواه صاحب المصنف والبخـارى ومسلم .

---

(١٤) الأعـراف ١٧٩ ، ١٩٥ ، ١٩٨ ، يونس ٤٣ ، هـود ٢٠ ، الأنبياء ٣٠ ، النمـل ٥٤ ، يس ٩ ، ٦٦ ، الطور ١٥ ، الأنعام ١٠٤ ، القيـامة ١٤ .

(١٥) أخرجه الترمذى فى مسنده (٢٠٣٣) وسنده حسن شرح السنة ح ٣ ١٠٤ .

(١٦) أخرجه مسلم والبخارى ومتفق على صحته شرح السـنة ح ١٢ ٣٠٤ .

(١٧) أخرجه الترمذى وأبو داود والنسائى واسـناده قوى حسن صـحيح .

الضبط الفكرى « العقلى » :

نحن نملك فى داخلنا قوة تفكر ، وعقلا يتدبر ، ونحن نحس أننا نفكر ، وتصدر أحكامنا وأعمالنا نتيجة لما نقوم به من ملاحظات وروية وتأمل وتعقل ، وامتدح الاسلام العقل وبين فضله كما ذكرنا ، وانصب هذا المدح على العقل الذى هو قوة تتهيأ للتفكير وتقدر عليه ، ولا يتعلق بما طبعنا عليه من قوة قادرة على الفكر دم ، فالعقل المطبوع لا يحتمل الا وجها واحدا هو الحمد والاشادة •

أما العقل المسموع ، أو العقلى العلمى فهو الذى يحتمل الوجهين: المدح والذم باعتبار ما يقوم به من نشاط ، وما يثمره من علم ، وهذا ما سبقت الاشارة اليه فى الفصل السابق ، وقد يقال مع هذا ان الاسلام لم يصمت تجاه العقل المفطور حتى ينتج ثمارا عرفانية يحكم عليها بعد ذلك بالصحة أو الفساد ، بالقبول أو الرد ، وانما قدم له جملة من القواعد العامة التى يعمل فى اطارها ، وساق له عديدا من التوجيهات التى تكلل مسعاه بالخير المحض ، وناقشه فى كثير من الاتجاهات التى يمكن أن يتجه تفكيره اليها وحذره من فساد ما هو فاسد ، وبطلان ما هو باطل ، وحسن له ما هو خير وصحيح •

وقبل أن يصنع له اشارات السير على الطريق دفعه دفعا الى التفكير ، وأنشطه الى العمل ، وأفسح له ساحة التفكير وغيرها فى الكون والحياة والذات البشرية والمصير والحكم والعلل والأسباب ، وأطال فى نظره حتى فتح له مجال الاجتهاد فى النصوص القرآنية والنبوية طبقا لقواعد لغوية وشرعية وعلمية معروفة ، وبذا يكون الاسلام قد حث العقل على النظر وبين له المجال الذى يعمل فيه ، وأقام له القواعد الضابطة لفكره حتى لا يزيغ أو يضل ، وحتى يكون نظره فى الكون والانسان والمغيبات خاضعا لتقييم اسلامى ، ويكون الدين هذا هو مقياس الفكرة ، ومنطلق الحكم فى كل مشكلة ، وتكون قواعده ضوابط تراعى عند كل نشاط عقلى فى بدايته ونهايته ، وتقتضيه

تلك الضوابط أن يأخذ من الأشياء بقــدر ويدع منها بقــدر فى حــدود ما يستسيغه الاسلام ويقرره •

والقرآن يصنف العقلية البشرية ازاء تلك الضوابط الشرعيــة الى فريقين :

فريق حصر نشاطه العقلى فى حدود أغراضــه الذاتية وشهواته النفسية ، والملذات الدنيوية المحدودة ، وانطلق ينكر ويكد ويكدح من أجلها دون تطلع الى مثل عليا وحياة أبدية وراء هذه الحياة ، واعتبر القرآن هذا الفريق المحاصر بذاتيته كالأنعام لا عقل له ، ومهما منح من الذكاء المسخر لهذه المتع فهو بليد العقــل مظلم التفكير غافل عن الحقائق العليا ، وهو أشبه بسائق ماهر يقود سيارته ولكنه لا يتبــع اشارات المرور الهــادية ، فمهما كانت مهارته فمصــيره الى تحطيم نفسه ومركبته •

وفريق آخر اتسعت نظرته ، وفتح عينيه على مطالبه البدنيــة والروحية معا ، وسار يعقل الأمور بميزان الشرع ، ويبنى فكره على اليقين لا الظن ، ويتبع الارشادات الدينية فى كل خطــوة يخطوها ، وتجاوزت آفاق تمييزه الى ايثار الدار الآخرة على الأولى ، وعمل فى اطــار الايمــان بالله والانصــياع الى أحكامه والاستجابة لأداء فرائضه ، وصاحب هــذا العقل يقيم تفكيره أولا على أساس يقينى ثابت ، ومتجنب الريبــة أو الشك طبقا لتوجيه القرآن (**يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن أن بعض الظن اثم**) [١٨] ، وقول النبى صلى اللــه عليه وسلم (**اياكم والظن فان الظن أكذب الحديث**) [١٩]،

---

(١٨) الحجرات ١٨ •

(١٩) الموطأ ح ٢ ٩٠٧ — ٩٠٨ والبخارى ح ١٠ ٤٠٤ ومسلم (٢٥٦٣) شرح السنة ح ١٣ ١١٠ •

وعن علقمة أن رسول اللـه قال **(فى المؤمن ثلاث خصال ليس فيهـا خصلة الا له منها مخرج : الطيرة والحسد والظن فمخرجه من الطيرة الايرده ، ومخـرجه من الظـن الا يحقق ، ومخـرجه من الحسـد الا يبغى)**(٢٠) ، وروى بسند منقطع **(وينجيك من سوء الظن ألاتتكلم)** أخرجه عبد الرازق فى المصنف (١٩٥٠٤) ، ويرافق ترك الشك والريبة وسوء الظن ترك ما يريب **(دع ما يريبك الى ما لا يريبك)** **أخرجـه** أحمـد والنسائى والطبرانى .

وأنصار هذا الفريق ، وأصحاب هذا العقل كيسون يدينون أنفسهم ويعملون لحياة أبدية ولا يتبعون هواهم أو يتمنون الأمانى الخادعة(٢١)، فالعقل يعمل فى محيط واسع يشمل الدنيا والآخرة ، وهو محكوم بنظرة الاسلام الى الحياتين معا ، والى النفس البشرية وطريقـة علاجها ومجاهدتها ، والشرع قاض وحاكم وقيم على العقل ، والعقـل واع ومجتهد ومستنير بنور الوحى (٢٢) .

ولا ينبغى أن نظن أن الاسلام بضبطه للعقل قد فرض عنيه نوعا من الحجر والتضييق ، بالعكس ان الاسلام فى الحقيقة وسع نشاط العقل ، وأمد اهتمامه الى ما قبل البدء للانسان حيث أمره أن يفكر فى هذا الكون كله تفكيرا حرا طليقا يتعرف عليه ويدرس مظاهرة وجريانها وعلاقاتها ببعضها ، ويكتشف أسبابها وغاياتها ، وكون الاسلام يقود الحركة العقلية الى الاعتراف بوجود اله خالق ، أو يخبره بذلك ابتداء فليس معنى هـذا أنه قـد صادر على منطق العقل فى وعيـه بالكون

---

(٢٠) ذكـره السيوطى فى الجامع الصغير وهو مرسل ورجاله ثقات شرح السنة ح ١٣ ١١٤ .

(٢١) (حديث الكيس من دان وعمل لـما بعد الموت والعـاجز من اتبـع نفسه هواها وتمنى على اللـه الأمانى) .

(٢٢) راجع ابن الجوزى : الأذكياء ٨ ، ٩ — ١٥ .

والحيـــاة ، لأنه يكون كذلك لو كان فى مكنة العقل أن يدرك البـــداية الصحيحة للكون والاسلام مع تلك الاستطاعة يحجب العقل عنها الى نظرة تدين بخلق الله للكون ، أو كان فى مقدور الكون أن يسير وحده بعـــد أن يكون قـــد وجد من تلقاء نفسه ، وكل من قدرة العقـــل على ادراك البداية لهـــذاالكون ومن خلق الكون وايجاده بالصـــدفة ليس صحيحا ولا مقدورا بالشواهد العلمية والعقلية ذاتها ، وبالتالى فتنبيـــه الاسلام الى أن الله خالق ومسير لهذا الوجود أمر يتفق مع واقع الكون وعلاقة الانسان به ، الأمر الذى يجعل دراسة الكون فى اطار الايمان ، أو تؤدى اليه ضرورة تفرضها طبيعة الكون العاجزة • وعقلية الانسان القاصرة ، وتتلاقى تماما مع للواقع والحقيقة •

***

وكذلك فان الاسلام أمد اهتمام العقل الى حياة بعد هذه الحياة الدنيا لها مطالبها من الطاعة والعبادة وتهذيب النفس وترويضها وكبح جماحها ، والاســـلام اذ يفرض نوعا من الطاعات والنسك الشرعية ، ويلزم العقل على أن يجبر النفس أن تتخلى عن رزائلهـــا وأن تتحلى بالفضائل والكمالات فليس هذا التصرف الدينى حجرا علىحرية النفس، أو على دائرة التفكير ، وانما انتفى الحجر فى كل منهما لأن مطالبـــة النفس بتجنب الرزيلة نوع من ترقيها والعمل على تساميها ، ولأن مطالبة الاسلام للعقل بأن يفكر فى أفضل السبل والطرق التى تكسب النفس رونقا وجمالا وتساميا ويتخلى بسلطانه المميز وارادته القـــوية عن مهاوى الرزيلة ، فهذه المطالبة الشرعية للعقل حفز له عن أن يميز بين أمرين : أحدهما أدنى فيتجنبه ، والآخر أعلى فيتخير له ويختـــاره وينفذه ، فالضبط من تلك الزاوية ليس تضييقا وانما هو ترقية وتسام بهـــذا العقل والنفس أن يسلكا سبيل التفكير الراقى لا الهابط ، وطريق الكمال لا النقص •

وذو العقل يأتى حسان الأمور ويعمـــد للأرشـــد الأ[illegible]

وقال صالح بن عبد القدوس :

ألا انمـا الانسان غمـد لعقله ولاخيرفىغمد اذا لميكنلهنصل(٢٣)

بعض شواهد الضبط العقلى :

ساق القرطبى فى كتابه « بهجـة المجالس » ما روى عن النبى صلى اللـه عليه وسلم أنه قال (**حق على العاقل أن يكون له أربع ساعات : ساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يفضى فيها الى اخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ، ويصدقونه عن نفسه ، وساعة يخلى فيها بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل ، فان هذه الساعة عون له على هذه الساعات واجمام (٢٤) للقـلوب ، وحق على العاقل ألا يظعن الا فى احدى ثلاث : زاد لمعاده ، ومرمة لمعاشه ، أو لذة فى غير محـرم ، وعلى العـاقل أن يكون عارفا بزمانه مالكا للسانه ، مقبلا على شأنه**) .

وقال الحسن البصرى (صلة (٢٥) العاقل اقامة لدين اللـه) ، ويقول أيوب بن القرية عن العاقل (الدين شريعته ، والحلم طبيعته ، والرأى الحسن سجيته ، ان نطق أصاب ، وان سمع وعى ، وان كلم أجاب) ، والعاقل عند الحجاج (من يعرف عيب نفسه) (٢٦) .

الضبط القلبى :

يتحدث القـرآن عن القلوب ولا يعتبر منهـا الا ما كان سليما صحيحا ، وتتحدث السنة عن أنواع القلوب وان منها الأجرد والأزهر

---

(١٣) القرطبى : بهجة المجالس ح ١ ٥٣٨ .
(٢٤) أى احكام .
(٢٥) أى ملة .
(٢٦) بهجـة المجالس ح ١ ٥٣٢ ، ٥٣٤ ، ٥٣٦ .

والأغلف الى آخره ، ونظرا لمكانة القلب من الجسم والمعرفة معا فان الأخبار الصحيحة طالبت القلب بأن يتخلى عن تمنيه الخادع الذى لا يصحبه عمل ، وألا يهوى ما هو محرم ولا تشغله وساوس فاسدة ، وأن يتجرد من العقود السيئة ، والاصرار على الذنب ، وأن يطابق باطنه ظاهره ، ويشاكل ظاهره باطنه ، وأن يحرس الانسان قلبه حراسة مشددة من الشيطان وهواجسه ، وتفيدنا تلك المحترزات فى المجال العرفانى للقلب ، كما تفيد فى العمل والسلوك ، حيث لا ترد المعرفة اللدنية الا لقلب صاف ، ولا تقبل الأعمال الا اذا صدرت من صلب نقى ، وكان على رضى الله عنه يقول (نبه بالتفكر قلبك ، وجاف عن النوم قلبك ، واتق الله ربك) (٢٧) ، ولم ينل عضو من العناية مثلما نال القلب منها .

ثمار الضبط فى الأعضاء غير المدركة :

اذا نحن ضبطنا حواسنا من سمع وبصر ، وضبطنا عقولنا وقلوبنا فقد أحكمنا زمام التدبير الذى تصدر عنه تصرفاتنا ، وتكون عنوانا عليه ، أو دلالة شاهدة له ومن ثم فقد اهتم الاسلام بالحس الادراكى ، والقوى العاقلة حتى لا تنحرف فى تصوراتها فتجر وراءها جوارح أخرى تخطىء تبعا لها وتسىء القول أو الفعل خضوعا لتأثيرها ، ومع ذلك فان الاسلام لم يسكت عند حد التنبيه على أن تتحمل قوى الادراك مسئولياتها وأن تعى مهامها وانما حذر اللسان أن ينطق فحشا ، أو يسب أو يغتاب أو يكذب ، وحثه على أن يتحرى الصدق فى القول والأدب فى الحديث ، وأن يقول التى هى أحسن .

---

(٢٧) نفسه ج ١ ص ١١٥ — ١١٦ .

وقــول النبى صلى اللــه عليه وســلم لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم) (٢٨) و (المسلم من سلم المسلمون من لســانه ويــده) (٢٩) و (سباب المسلم فسوق) (٣٠) ، ومن آيات المنــافق (اذا حدث كذب) (٣١) (وان اللــه يبغض الفاحش البذىء) (٣٢) و (ان اللــه لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب ولكن يعذب بهذا وأشار الى لسانه أو يرحم) (٣٣) ، وقال لمعاذ بن جبل (اكفف عليك(٣٤) هــــذا) أى اللسان كل ذلك يدلنا على ضرورة الضبط اللسانى المعبر عن الفكر العقلى أو الخواطر القلبية .

وتقول أم معبد فى وصف النبى صلى اللــه عليه وسلم (حلــو المنطق ، فصل لا نزر ولا هذر ، كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن) وسأل الحسن بن على هند بن أبى هالة عن صفة النبى صلوات اللــه عليه فقال (جل نظــره الملاحظة) وهو (متواصل الأحزان ، دائــم الفكرة ، ليست له راحة ، طويل السكت ، لا يتكلم فى غير حاجة ، يفتح الكلام ويختتمه بأشداقه ، ويتكلم بجوامع الكلم ، فصل لا فضول ولا تقصــير) وأما على فأجاب الحسين فى هــذا فقال (يخزن لسانه الا فيما يعنيه) و (يحسن الحسن ويقومه ويقبح القبيح ويوهنــه معتدل الأمر غير مختلف ... لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه ... قــد ترك نفسه من ثلاث الرياء والاكثار وما لا يعنيه) و (كان سكوته على أربع على الحلم والحذر والتقدير والتفكير) و (جمع له الحــذر فى

أربعــة أخذه بالحسن ليقتــدى به ، وتركه القبيح ليتناهى عنه ؛

(٢٨) أخرجه الترمذى وسنده حسن شرح السنة ج ١٣ ٢٠٤ .

(٢٩) رواه البخارى ومسلم وابو يعلى وابن ماجــه والطبرانى ، البخارى ج ١ ٥٣ .

(٣٠) فتح البارى ج ١ ١١٠ .

(٣١) نفسه ج ١ ٨٩ .

(٣٢) الترمذى واحمد وابو داود وسنده صحيح .

(٣٣) متفق على صحته .

(٣٤) الترمذى وصححه وأحسن شرح السنة ج ١ ٢٥ — ٢٦ .

واجتهاده الرأى فيما أصلح أمته ، والقيام فيما هو خير لهم) (٣٥) .

ومثل ما نبه النبى صلى اللـه عليه وسلم عن ضبط اللسان نبـه على اليـد والرجل كذلك .

ولو أننا أنعمنا النظر فى كل هذا لوجدنا أن عمليـة الضبط شاملة لإدراك الفـرد وجوارحه الظاهرة ، وبها يصلح الفرد فى ذاته ويصلح الآخرين الذين يفلتون من شرور الغير بعدما انضبط ، وكم يكون المجتمع الاسلامى والانسانى عامة لو طبق هـذا فألزم حواسه حدودها ، وأخضع فكره لضوابط الشرع ، وكف جوارحه عما نهى اللـه ، وصان عرض المسلم ودمه وماله ، واعتبره كله حراما عليه ، فأى سـلام نفسى واجتماعى يمكن أن يتحقق لو طبقنا هذا ، وأى منطق تكون عليه البشرية حكمة ، وأى اعتدال يكونون عليه سلوكا وأخلاقا .

---

(٣٥) شرح السنة ج ١٣ ٢٧٠ — ٢٧٥ .

الفهـــرس

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

رقم الايداع ٨٦/٥٦٩٤

